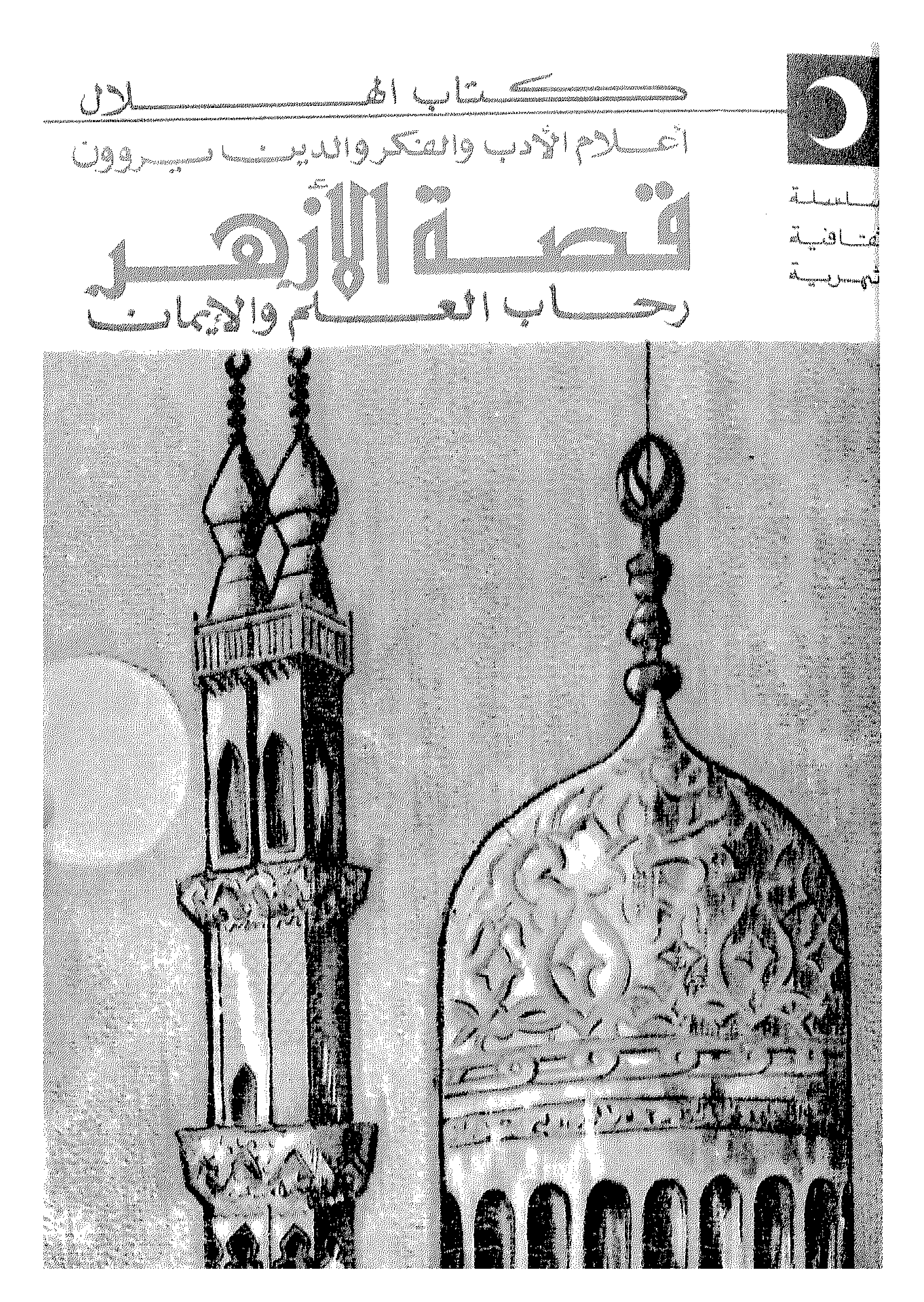


كتاب الهلال
أعلام الأدب والفكر والدين يروون
قصة الأزهر
رحاب العلم والإيمان
سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعى

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفنى : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٢٦٥ – ذو القعدة ١٣٩٢ – يناير ١٩٧٣

No. 265 — Janvier . 1973

مركز الادارة

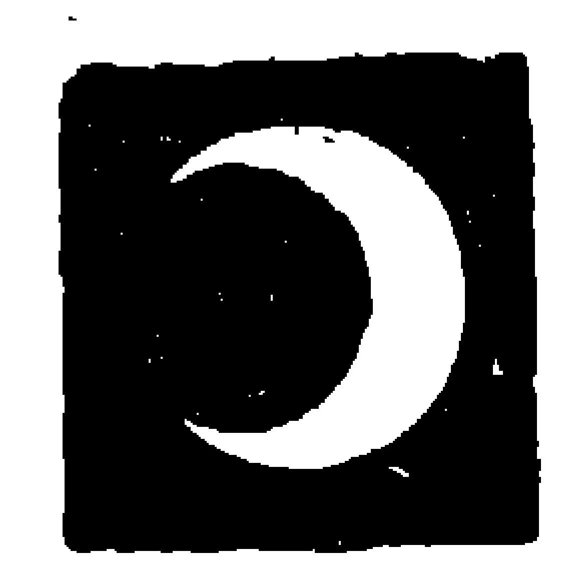
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٢ جـك – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية – والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشـــــــــة
الفنــــــان عادل ثابت

قصة الأزهر

رحاب العلم والإيمان

دار الهلال

تقديم

فى مثل هذا العام ، من الف سنة ميلادية خلت ، اقيمت أول صلاة جامعة فى صحن الازهر . وبهذه الصلاة الجامعة بدات القاهرة تجتذب انظار العالم الاسلامى الى هذا البناء الشامخ الذى ما لبث أن أصبح اكبر جامعة لعلوم الاسلام ، ومعارف الدين والدنيا ، ومحجا لطلاب النور من جميع فجاج العالم الاسلامى ، ومصدر اشعاع للقلوب المؤمنة والعقول الذكية والارواح المتفتحة .

وقد اجتاز الازهر ، فى أعوامه الالف عشرات من المحن ، فأغلقت أبوابه ، وضربت حجارته بالقنابل ، وسقط فى رحابه وعند بابه مئات من الشهداء .. ولكنه بقى صامدا أمام أحداث الزمن ، وخرج من كل محنة وهو أشد وهجا وأعمق ايمانا وأعلى هامة .

من رحاب الازهر خرجت أعظم الثورات فى تاريخ هذا البلد ..

وفى رحاب الازهر ، تخرج المع الرجالات فى كل علم وفن .. فى رحابه تخرج أقطاب الشريعة والمحاماة والسياسة والادب والشعر والموسيقى ..

ولولا الازهر ، ما كان لنا أبو العلاء الجديد ، طه حسين . ولعل بروزه من صحن الازهر كان استجابة

من القدر لدعاء من أمير الشعراء ، فى قصيدة يقول فيها للملك فؤاد ، ناصحا اياه بأن يرعى مكفوفى الازهر:

نظرا واحسانا الى عميائه
وكن المسيح مداويا ومجبرا
والله ما تدرى ، لعل كفيفهم
يوما يكون أبا العلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد
غبنا ، وجل المشترى والمشترى

فتحية للأزهر فى عيده الالفى ، وما زال فينا قلعة تحمى الشعار الذى نحمله فى أعماقنا فى هذا العصر : العلم والايمان .

صالح جودت

تحية للأزهر

قم فى فم الدنيا وحى الازهرا
وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدر ان فصلته
فى مدحه خرز السماء النيرا
واذكره بعد المسجدين معظما
لمساجد الله الثلاثة مكبرا (١)
واخشع مليا ، واقض حق ائمة
طلعوا به زهرا وماجوا ابحرا
كانوا اجل من الملوك جلالة
واعز سلطانا وافخم مظهرا
زمن المخاوف ، كان فيه جنابهم
حرم الأمان ، وكان ظلهم الذرا (٢)
من كل بحر فى الشريعة زاخر
ويريكه الخلق العظيم غضنفرا
لا تحذ حذو عصابة مفتونة
يجدون كل قديم شىء منكرا

---

* نظم امير الشعراء هذه القصيدة التى نتخير منها هذه الابيات الرائعة ، فى سنة ١٩٣٤ ، عندما نودى باصلاح الازهر . !

(١) المسجدان : الحرام والاقصى

(٢) الذرا . الملجأ

ولو استطاعوا فى المجامع ، انكروا
من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ماض فى القديم وهدمه
واذا تقدم للبناية قصرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثة
والعلم نزرا والبيان مثرثرا (١)

***

يا معهدا أفنى القرون جداره
وطوى الليالى ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نوره
وأضاء أبيض لجها والاحمرا
وأتى الزمان عليه يحمى سنة
ويذود عن نسك ويمنع مشعرا (٢)
فى الفاطميين انتمى ينبوعه
عذب الاصول كجدهم متفجرا (٣)
عين من الفرقان فاض نميرها
وحيا (٤) من الفصحى جرى وتحدرا
ما ضرنى أن ليس أفقك مطلعى
وعلى كواكبه تعلمت السرى
لا والذى وكل البيان اليك ، لم
أك دون غايات البيان مقصرا
لما جرى الاصلاح قمت مهنئا
باسم الحنيفة بالمزيد مبشرا
نبأ سرى ، فكسا المنارة حبرة (٥)
وزها المصلى واستخف المنبرا

(١) النزر : القليل ــ والمثرثر : المخلط
(٢) النسك : العبادة ــ والمشعر · موضع مناسك الحج
(٣) جد الفاطميين ، على بن ابى طالب ، وكان بحرا فى العلم
(٤) الحيا : المطر (٥) الحبرة : الفرحة

وسما بأروقة الهدى فأحلها
فرع الثريا ، وهى فى أصل الثرى
ومشى الى الحلقات ، فانفرجت له
حلقا كهالات السماء منورا
حتى ظننا الشافعى ومالكا
وأبا حنيفة وابن حنبل حضرا
ان الذى جعل العتيق مثابة
جعل الكنانى المبارك كوثرا
العلم فيه مناهلا ومجانيا
يأتى له النزاع يبغون القرى (١)

***

يا فتية المعمور (٢) ، سار حديثكم
ندا بأفواه الركاب وعنبرا
المعهد القدسى كان نديه
قطبا لدائرة البلاد ومحورا
ولدت قضيته على محرابه
وحبت به طفلا وشبت معصرا (٣)
وتقدمت تزجى الصفوف ، كأنها
«جاندرك» فى يدها اللواء مظفرا

***

هزوا القرى فى كهفها ورقيمها
أنتم لعمرو الله أعصاب القرى
الغافل الامى ينطق عنكمو
كالببغاء مرددا ومكررا
يمسى ويصبح فى أوامر دينه
وأمور دنياى بكم مستبصرا

---

(١) القرى • الضيافة
(٢) المعمور : الازهر
(٣) المعصر : الفتاة المدركة

لو قلتم اختر للنيـــابة جاهلا
أو للخطـــابة « باقلا » لتخيرا
ذكر الرجال له ، فأله عصبـة
منهم ، وفســق آخرين وكفــرا
آباؤكم قرأوا عليـــــه ورتلوا
بالامس تاريخ الرجـــال مزورا

عمارة الأزهر

نحن الآن فى ميدان الازهر أمام الباب المزدوج الذى انشأه الامير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٦٧ هـ ــ ١٧٥٣ م ، أمام الباب وكان يعلوه كتاب ، وتجاوره مئذنة وقد هدما وفكت مبانى الباب ثم أعيد بناؤها فى سنة ١٨٩٦ عند توسعة الشارع وبناء الرواق العباسى ، وبانشاء هذا الباب ضمت المدرستان الطيبرسية والاقبغاوية الى الازهر .

شيد الازهر القائد جوهر الفاطمى فى الجنوب الشرقى من مدينة القاهرة وعلى مقربة من القصر الكبير الذى أقيم حينذاك بين حى الديلم فى الشمال وحى الترك فى الجنوب . فهو أول جامع أنشىء بمدينة القاهرة الفاطمية . بدأ جوهر فى انشائه فى ٢٢ جمادى الاولى سنة ٣٥٩ هـ ــ ٢ ابريل سنة ٩٧٠ م . وفرغ منه فى رمضان سنة ٣٦١ هـ ــ ٩٧٢ م . والمعروف ان أول جمعة صلاها الفاطميون فى الازهر ، كانت يوم ٦ رمضان سنة ٣٦١ .

وجامع الازهر الذى نزوره اليوم . ليس كله بالجامع الفاطمى الاصلى ، بل هو حصيلة اضافات من الآثار ضمت اليه فى أزمان متتابعة . وسنبدأ بالحديث عن تخطيطه وزياداته وزخارفه فى العصر الفاطمى .

(*) عن كتاب « الازهر وما حوله من الاثار » للاستاذ المؤرخ الدكتور عبد الرحمن زكى

الازهر فى العصر الفاطمى :

كان مخططه الافقى زمن بنائه مكونا من ثلاثة ايوانات حول الصحن ، الشرقى منها مكون من خمسة أروقة ، المشرف منها على الصحن يقوم على أكتاف ، أما الاروقة الباقية فمن عمد رخامية . وفى كل من الجانبين القبلى والشمالى ثلاثة أروقة ، المشرف منها على الصحن قائم على أكتاف أيضا .

أما الجدار الغربى فليست به أروقة . ويتوسطه الباب العام . وكانت تعلوه المنارة ، ويرجح أن هذا الباب كان بارزا عن الجدار .

وبأعلى الجدران شبابيك جصية مفرغة بأشكال هندسية ، وعقودها مستديرة ، أحيطت بافريز مكتوب بالخط الكوفى المزهر . وما زالت بقاياه موجودة بالايوان الشرقى للجامع . ويشطر الايوان الشرقى مجاز متجه مباشرة الى المحراب ، ارتفعت عقوده وسقفه عند مستوى ارتفاعات الجامع ، وقد حليت حافة عقود هذا المجاز بكتابات كوفية ، وحليت أيضا خواصرها بزخارف نباتية مورقة منوعة . وعقود هذا المجاز هى الباقية فقط من عقود الجامع القديمة . أما باقى العقود بالمسجد عدا العقود التى حول الصحن فقد تغيرت غير مرة . وينتهى هذا المجاز الى المحراب القديم الحافل بالزخارف والكتابات الكوفية .

ويعلو المحراب (١) قبة حلت محل قبته القديمة . وكان ينتهى طرفا هذا الايوان بقبتين غير موجودتين الآن

(١) لما بلغ البناء الى المحراب كتب بدائرة القبة على يمنة المنبر والمحراب « بسم الله الرحمن الرحيم » مما امر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الاكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى ، وذلك فى ستين وثلثمائه .

وكان للجامع ثلاثة ابواب فى جدرانه القبلية والشمالية والغربية .

هذا هو تخطيط الجامع الذى بناه جوهر الصقلى لمولاه المعز لدين الله والمنبر الاصلى القديم الذى أنشىء بالازهر عند بنائه نقل فيما بعد الى جامع الحاكم بأمر الله . واخذ الخليفة يخطب مرة فى الازهر ، ومرة فى الجامع الحاكمى ، ومرة فى جامع عمرو بن العاص ، ومرة فى جامع احمد بن طولون .

وفى حوالى عام ٤٠٠ هـ ــ ١٠٠٩ م جدد الحاكم بأمر الله الازهر ، وأوقف عليه الاوقاف (١) ثم تبعه من بعده أهل الخيرات فأصبح يعتمد على أوقاف عظيمة .

وفى عام ٤٢٧ هـ (١٠٣٥ ــ ٣٦ م) جدد الجامع الازهر فى خلافة المستنصر بالله معد بن الظاهر لاعزاز دين الله . ثم اقتفى اثره حفيده المنصور ابو على الآمر بأحكام الله الذى تولى الخلافة سنة ٤٩٥ هـ ــ ١١٠١ ــ ٢ م . فأحدث فى الازهر تجديدا . وفى متحف الفن الاسلامى لوح من الخشب كان يعلو محراب الازهر الذى بناه المنصور أبو على (٢) .

ولما تولى أبو الميمون الحافظ لدين الله عبد المجيد سنة ٥٢٤ هـ ــ ١١٢٩ م ، جدد فى الازهر أبنية وانشأ فيه مقصورة « فاطمة الزهراء » ، التى تجاور الباب الغربى الذى فى مقدمة الجامع بداخل الاروقة . وقال بعض رجال الآثار انه أضاف رواقا يحيط بالصحن

---

(١) محب الدين الخطيب : الازهر ، القاهرة ١٣٤٥ هـ ــ ص ١٠ ــ ١١ .

(٢) كتب على هذا المحراب «بسم الله الرحمن الرحيم حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . امر بعمل هذا المحراب المبارك برسم الجامع الازهر سيدنا المنصور أبو على امام الامر باحكام الله .

من جوانبه الاربعة مكونا من عمد رخامية فوقها عقود فارسية الطراز وقبة رشيقة بأول المجاز (١)

ولما انقضت الدولة الفاطمية كانت مساحة الازهر ١٣٠٠٠ ذراع ، أى أقل من نصف مساحته الحالية ، وقد أصبحت اليوم ٢٦٣٣٣ ذراعا (١٢٠٠٠ متر مربع).

هذا ما كانت عليه عمارة الازهر فى أيام الفاطميين حتى بادت دولتهم من مصر على يد السلطان الناصر صلاح الدين الايوبى فى عام ٥٦٧ هـ — ١١٧١ م . ثم عطل اقامة الجمعة فيه حتى تولى الملك الظاهر بيبرس حكم مصر فأعادها اليه .

الازهر فى العصر المملوكى :

جمع الامير عز الدين ايدمر الحلى من أمراء الظاهر بيبرس ، بعض ما تبدد من أوقاف الازهر وانتزعه من أيدى غاصبيه ثم جدد سقوف الجامع وتبليط أرضيته وفرشه وكسوته. وكان للأمير بدرالدين بيلبك الخازندار الظاهرى يد محمودة فى هذا التجديد ، فأنشأ رواقا كبيرا وقف عليه المزارع والعقار واشترط أن ينفق من غلاتها على من ينقطع فى هذا الرواق لقراءة القرآن الكريم واسماع كتب السنة المحمدية ، وتدريس فقه الامام الشافعى رضى الله عنه . وبعد أن تم تجديد الازهر ، أراد الامير عز الدين ايدمر أن تعاد الخطبة فى منبره الى ما كانت عليه من قبل . فمن الفقهاء من أجاز ومنهم من منع ... وفيمن أجاز قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى ... فعمل الامير عز الدين بقول من أجاز . وكان لاعادة الخطبة الى الازهر حفلة عظمى فى هذا الجامع ، ثم فى دار الامير عز الدين ، وكان ذلك

(١) حسن عبد الوهاب . العمارة الاسلامية فى العصر الفاطمى . مجلة العمارة العدد — ٦ عام ١٩٤٠ ص ٣١٤ .

على قول ابن الفرات فى يوم الجمعة ١٨ ربيع الاول سنة ٦٦٥ هـ ــ ١٢٦٦ م .

وفى عام ٧٠٢ هـ ــ ١٣٠٢ م . حدثت زلزلة عنيفة ، خربت قسما عظيما من مصر والشام ، وأصابت الازهر وبعض مساجد القاهرة بأذاها ، فتقاسم الامراء عمارتها ، وأخذ الامير سلار من رجال المماليك البحرية على نفسه عمارة الازهر وتجديده .

وفى عام ٧٠٩ هـ ــ ١٧٠٩ م انتهى الامير علاء الدين طيبرس الخازندارى نقيب الجيوش من انشاء مدرسته وجعلها مسجدا (تعرف بالمدرسة الطيبرسية) وقرر بها درسا للفقهاء الشافعية وتأنق فى رخامها وتذهيب سقفها وفرشها ببسط منقوشة بشكل المحاريب ، وجعل فى المدرسة خزانة كتب (١) .

وفى عام ٧٢٥ هـ ــ ١٣٢٥ م جدد الازهر القاضى نجم الدين محمد بن حسين « حسن ؟ » الاسعردى (٢) محتسب القاهرة .

وفى عام ٧٤٠ هـ ــ ١٣٣٩ م انتهى الامير اقبغا علاء الدين الواحدى من انشاء مدرسته المتصلة بالمدرسة الطيبرسية ، وقيل انه لم يؤسس بنيانها على التقوى فأخذ أرضها بغير رضى من أصحابها وأنشأها بالعسف . وقد وقف عليها أوقافا دارة ، وجعل لها منارة هى احدى المنارات الخمس الازهرية .

---

(١) مما يدل على اخلاص هذا الامير النية لله فيما تقرب اليه به من عمله هذا ، فانه لما فرغ من بناء مدرسته أحضر اليه مباشروه حساب مصروفاتها ، فلما قدم اليه استدعى بطست فيه ماء وقبض أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شيء منها وقال : شيء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه . محب الدين الخطيب ، الازهر ص ١٦ (ألحقت هذه المدرسة والمدرسة الاقبغاوية بالازهر فيما بعد) .

(٢) من سعرد فى ارمينية .

وفى عام ٧٦١ هـ ـ ١٣٦٠ م جدده الامير الطواشى سعد الدين بشير الجمدار الناصرى ، لما سكن بقرب الازهر ، فاستأذن الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فسمح له بأن يقوم بالاصلاح . تتبع جدرانه وسقوفه بالتحديد حتى عادت كأنها جديدة . وبيضه وبلطه ، وأنشأ على بابه الجنوبى حانوتا لتسبيل الماء العذب ، وعمل فوقه مكتبا لاقراء أيتام المسلمين . ورتب فيه دروسا لفقهاء الحنفية ، وأنشأ لفقراء المجاورين مطبخا يوميا ، وأوقف على ذلك أوقافا جليلة .

وفى سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ ـ ٩٨ م) سقطت منارة الجامع ، فأعاد بناءها الظاهر أبو سعيد برقوق بن آنصل من ماله الخاص . ولم تدم هذه المنارة طويلا ، فقد سقطت فى ٨١٧ هـ (١٤١٤ ـ ١٤١٥ م) ثم فى عام ٨٢٧ هـ (١٤٢٣ ـ ٢٤ م) وكان يعاد اصلاحها فى كل مرة . وأنشأ السلطان برقوق صهريجا للماء فى صحن الجامع وعمل فوقه مكانا مرتفعا له قبة ويسيل فيه الماء ، كما انه أقام ميضأة .

وفى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ ـ ٤١ م) شيد جوهر القنقبائى الحبشى الخازندار المدرسة الجوهرية عند الباب الشمالى الصغير للأزهر تجاه زاوية العميان ، وبداخلها مدفن منشئها ..

وفى أثناء حكم السلطان الملك الاشرف أبى النصر قايتباى (٨٧٢ ـ ٩٠١ هـ) (١٤٦٧ ـ ١٤٩٦ م) أحدث تجديدا شاملا فى الجامع ، فأنشأ باب المزينين ، والمنارة التى هناك ، وفسقية وسبيلا وميضأة ، وأحدث صهريجا تجاه باب المغاربة ، وشيد على باب الجامع مكتبا ، ونقش فى الحجر على الباب بعد كتابة

كوفية يعسر قراءتها : « انما الاعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ، لا اله الا الله محمد رسول الله ، نصر من الله وفتح قريب ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بانشاء هذا الباب والمئذنة الشريفة مولانا السلطان الاشرف قايتباى بتاريخ شهر رجب الفرد ثلاثة من سنة ... » . كما انه جدد رواق المغاربة ، ونقش على بابه : « أمر بتجديده مولانا وسيدنا السلطان الملك الاشرف قايتباى ، على يد الخواجا مصطفى بن الخواجا محمود ، غفر الله لهما » .

ولقايتباى نقش على أحد المحاريب وبعض الشبابيك وكان ذلك فى سنة ٩٠٠ هـ ــ ١٤٩٥ م .

وفى سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ ــ ١ م) قام السلطان قانصوه الغورى ببناء مئذنته ذات الرأسين داخل باب المزينين ، كما أنه رتب فى رمضان ٦٧٠ دينارا لمطبخ الازهر .

الازهر فى أيام العثمانيين :

لما دخل السلطان سليم القاهرة ــ ١٥١٧ م ــ زاهر ، وصلى فيه ، وأمر بتلاوة القرآن فيه ، وتصدق على فقراء المجاورين . وسنذكر فيما يلى أهم عمليات التجديد فى ذلك العصر :

ــ فى عام ١٠٠٤ هـ ــ ١٥٩٥ ــ ٩٦ م ــ جدد الشريف محمد باشا والى مصر بعض أجزاء الأزهر .

ــ وفى عام ١٠١٤ هـ ــ ١٦٠٥ م ــ عمر حسن باشا والى مصر مقام الحنفية أحسن عمارة وبلطه .

ــ وجدد الامير اسماعيل بك القاسمى ــ ١١٣٦ هـ ــ ١٧٢٣ م ــ سقف الجامع .

ــ وفى سنة ١١٤٨ هـ ــ ١٧٣٥ م ــ أنشأ الامير

عثمان كتخدا زاوية العميان ، وجدد رواق الاتراك ورحبة ورواق السليمانية « الافغانيين » ، وزاد فى رواق الشوام ، ورتب لذلك مرتبات من وقفه .

ـ وفى سنة ١١٦١ هـ ـ ١٧٤٨ م ـ تقلد ولاية مصر أحمد باشاكور ، وتتلمذ للشيخ حسن الجبرتى « والد الشيخ عبد الرحمن » فأثبت عدة مزاول لمعرفة المواقيت وضع احداها فى ركن صحن الازهر على يسار الداخل .

ـ وفى سنة ١١٦٧ هـ ـ ١٧٥٣ م ـ أنشأ الامير عبد الرحمن كتخدا الزيادة التى زادها فى الازهر . قال الجبرتى عنها : أنشأ مقصورة فى الجامع مقدار النصف طولا وعرضا ، ويشتمل على خمسين عمودا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقصورة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت ، وسقف أعلاها بالخشب وبنى به محرابا جديدا ، ومنبرا ، وأنشأ له بابا عظيما « يعرف بالدوداري » وهو المشهور بباب الصعايدة ، وبنى بأعلاه مكتبا له قناطر معقودة على أعمدة له من الرخام لتعليم الايتام ، وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجا عظيما وسقاية لشرب العطاش ، وعمل لنفسه مدفنا بتلك الرحبة وجعل عليه قبة معقودة وتركيبة من رخام بديعة الصنع عليها أسماء العشرة من المبشرين بالجنة ووصفا للنبى « صلعم » وبعض الاشعار . وبالرحبة رواق مخصوص بمجاورى الصعيد المنقطعين لطلب العلم ومرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب .

وبنى بجانب ذلك الباب « المزينين » منارة ، وانشأ بابا آخر جهة مطبخ الجامع وجعل عليه منارة أيضا وجدد المدرسة الطيبرسية وجعلها مع المدرسة

الاقبغاوية المقابلة لها من داخل باب المزينين الكبير(١) ، وهذا الباب مؤلف من بابين عظيمين ، كل باب بمصراعين ، وجعل على يمينه منارة ـ أزيلت سنة ١٣١٥ هـ ـ وفوقه مكتب . وبداخله ميضأة . وزاد فى رواق الشوام ووقف عليه ، وجدد رواق المكيين والتكروريين .. فكان مجموع ما عمله « عبد الرحمن » فى الازهر مما تقصر عنه همم الملوك .

وفى مدة مشيخة الشيخ عبد الله الشرقاوى ـ ١٢٠٨ ـ ١٢٢٧ هـ ـ ١٧٩٣ ـ ١٨١٢ م ـ لم يكن لمواطنيه من مجاورى مديرية الشرقية رواق خاص بهم ، وانما يقطنون المدرسة الطيبرسية ، واتفق حدوث خلاف بينهم وبين من فى المدرسة من الطلبة أدى الى اخراجهم منها ، فأرسل الشيخ الشرقاوى امرأة ضريرة فقيهة تحضر عنده فى درسه الى عديلة هانم زوجة ابراهيم بك زعيم المماليك ، فكلمت زوجها فى انشاء رواق لهؤلاء الطلبة فكان ذلك سبب انشاء رواق الشرقاويين (٢) .

الازهر فى القرن التاسع عشر :

وفى عام ١٢٢٧ هـ ـ ١٨٠٥ ـ ٦ م أنشأ الوالى محمد على ـ رواق السنارية بالتماس الشيخ محمد وداعة السنارى ، فاشترى الوالى ربعا قديما فى مكان هذا الرواق وشيده ووقف عليه .

وفى عام ١٩٢٩ هـ ـ ١٨٦٢ ـ ٦٣ م ـ قام السيد

(١) نقش على وجهة الباب من الخارج ابيات مموهة بالذهب مشتملة على تاريخ بنائه (١١٦٧ هـ) وهى :

ان للعلم ازهرا يتسامى . كسماء ما طاولتها سماء
حيك وافاه ذا البناء ولولا . منه الله مايسامى البناء
رب الهوى هداك وايا . تلك نور تهدى به من تشاء

(٢) محب الدين الخطيب : المرجع السابق ذكره ص ٣٢ .

ابو بكر راتب باشـــا باتمام عمل كان قد بداه الوالى عباس الاول . فأنشأ رواق الحنفية وأنفق عليه من ماله وشيد فوقه ثلاث عشرة غرفة للمتقدمين من المجاورين فى ذلك الرواق ، وجعل له خزانة كتب قيمة .

وفى عام ١٢٩٠ هـ ـ ١٨٧٣ م ـ جدد باب الصعايدة والمـكتب الذى يعلوه ، وأوقفت ابنة الخديو اسماعيل أوقافا عظيمة على الازهر .

وفى عام ١٢٩٦ هـ ـ ١٨٧٨ ـ ٧٩ م جـدد الخديو محمد توفيق نحو ثلث المقصورة القديمة مما يلى باب الشوام ، وأصلحت المدرسة الاقبغاوية التى تقوم فيها دار الكتب الازهرية .

الازهر فى العصر الحديث :

وفى عام ١٣١٠ هـ ـ ١٨٩٢ ـ ٩٣ م ـ قام ديوان الاوقاف بتجديد صحن الازهر وما بدائرتيه من البائكات ودربزينات المقصورة القديمة ، وأصـلح باب المزينـين وطرقته ، والمدرسة الطيبرسية والاقبغاوية . وفى عام ١٣١٤ هـ أنشئت فى المدرستين المذكورتين دار الـكتب الازهرية . وفى ٢٤ شوال سنة ١٣١٥ هـ ـ ١٨٩٧ م ـ احتفل بافتتاح الباب العباسى والرواق العبـاسى أيام مشيخة الشيخ حسونة النواوى رحمه الله ثم شـمل التجديد الاروقة المتصلة بالسور الجنوبى (١) .

ولعل خير وصـــف للأزهر هو ما جاء فى الخطط التوفيقية « ج ٤ ص ١٤ ـ ٢٦ » فقد وصف العـلامة على باشا مبارك بناء الازهر الذى كان عليه فى أخريات القرن الماضى ، وحدد أبعاده ، وذكر ابوابه ومحاريبـه وقبلاته ودورات مياهه ، وأماكن الوضـوء ، وصحن

(١) محب الدين الخطيب : المرجع السابق ذكره ص ٢٥ .

المسجد ، ومناراته ، ومزاوله ، وأروقته وصهاريجه.. الخ .

أما من الناحية المعمارية والفنية ، فخير وصف للجامع ورد فى كتاب العلامة الاستاذ ك.أ.كريسويل.

وفى عهد حكومة الثورة أجريت بالازهر اصلاحات هامة ، تناولت اصلاح محراب عبد الرحمن كتخدا ، وتجديد سقوف المسجد ، وفتح مناور جديدة بها ، كما أجريت به أعمال بياض ودهان ، وضوعفت فيه الانارة .

موجز وصف الازهر :

ان الجامع فى شكله الحاضر بناء فسيح يقوم على أرض مساحتها ٢٦٣٣٣ ذراعا « ١٢٠٠٠ متر مربع » يحيط به سور مربع الشكل تقريبا وبه ثمانية أبواب :

فى الجانب الغربى المطل على ميدان الازهر باب المزينين والباب العباسى . والاول باب شامخ من زيادات الامير عبد الرحمن كتخدا ، والثانى أحدثته نظارة الاوقاف عند تأسيس الرواق العباسى نسبة الى الخديو عباس الثانى .

وفى الجانب الجنوبى، باب المغاربة تجاه درب الاتراك، وباب الشوام ، وباب الصعايدة .. الذى انشأه عبد الرحمن كتخدا .

وفى الجانب الشمالى ، باب الجوهرية وهو باب صغير تجاه زاوية العميان وهو من انشاء جوهر القنقبائى .

وفى الجانب الشرقى باب الحرمين وهو مقفل أنشأه عبد الرحمن كتخدا ، وباب الشوربة وينسب الى عبد الرحمن أيضا .

وتعلو أسوار الازهر وأبوابه خمس مآذن (١) : ثلاث في داخل باب المزينين : احداهما الاقبغاوية ، والثانية مئذنة قانصوه الفوري وهي أعلى منـاراته ، والرابعة بجانب باب الصعايدة ، والخامسة بباب الشعرية ، وكلتاهما من انشاء كتخدا ·

وينقسم حرم الازهر الى رواقين :

الرواق الكبير وهو القديم ، ويلي الصحن ويمتد من باب الشوام الى رواق الشراقوة . والرواق الجديد الذى انشأه عبد الرحمن كتخدا ـ ١١٦٧ هـ ـ ويلي الرواق القديم ويرتفع عنه بنحو نصف ذراع. وسقف الرواقين من الخشب المتقن الصنع . وترتكز الباكيات على عمد من الرخام الابيض · أما الباكيات المحيطة بالصحن فترتكز على أكتـاف « دعامات » والعقود من النوع المعروف بالعقود الدقيقة الزاوية

وكان للجامع عشرة محاريب أزيل أربعة وبقي الآن ستة . ففي الرواق الجديد محرابان : المحراب الكبير الذى أقيمت عليه قبة مرتفعة على ستة عمد ومحراب صغير من شمال المنبر يعرف بقبلة الشيخ الدردير . وفي الرواق القديم محراب واحد يعرف بالقبلة القديمة وان لم يكن محراب الجامع الاصلي ، وعليه قبة قديمة. وكان في صحن الجامع أربعة محاريب صغيرة (٢) وللجامع منبر واحد وهو حديث .

وبالازهر ما يزيد على ٣٨٠ عمودا من الرخام الجميل، جلبت تيجانها من المعابد الوثنية والكنائس القديمة .. من الجيزة وأبي صوير وسقارة وميدوم ودهشور.. الخ

(١) كانت ستا ثم أزيلت المئذنة التى كانت خارج باب المزينين عند تجديد الرواق العباسى ..

(٢) فى متحف الفن الاسلامي ، المحراب الذى انشأه الخليفة الامر سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ولوح الخشب الذى كان يعلوه .

أشهر الثورات السياسية في تاريخ الأزهر

تتحد العبادة والحضارة فى الدعوة الاسلامية ، ويتصل الدين بالدولة أوثق الاتصال . بل ان استقامة السلوك البشرى والسياسة الانسانية من أهداف العبادة ومقوماتها الاساسية ..

فالنظام الروحى فى الاسلام هو قاعدة المبادىء الخلقية ، واذ كان المسجد أو الجامع هو المعهد الاسلامى الاول ، فقد كان يضم العبادة والسياسة وكانت المساجد لعهد الرسالة والخلافة والصالحين من بعد هى منازل العبادة والحكم معا ، تؤدى فيها الصلاة وتتقرر السياسة ، وتوجه منها الغزوات ، واذ كان العلم هو قاعدة الدين والدنيا معا فى حكم الاسلام ، فقد كان لزاما أن يأوى الى المساجد أو المعاهد الاسلامية الجامعة . وقد ظهر ذلك على اتمه فى مساجد البصرة والكوفة وغيرهما فى فجر الاسلام ..

ومن هنا كان تأسيس الجامع الازهر دينيا سياسيا علميا ، وكان تأثيره ودوره فى شئون الدين والدنيا واسع المدى منذ نشاته لاكثر من الف عام خلت ، وفى مختلف الحقب التاريخية التى مرت به ...

لقد أنشأه الفاطميون اثر اتخاذهم مصر قاعدة لملكهم ، وسموه الجامع الازهر ، نسبة الى فاطمة

(*) للاستاذ الدكتور سيد نوفل

الزهراء التى ينتمون اليها ، وعينوا فيه نحو أربعين من علماء الشيعة ، ينشرون فى الناس مذهبهم الدينى ، ويدعون لسياستهم ، ويبشرون بحكمهم ...

ولهذا كان طبيعيا أن يسعى الايوبيون لتغيير الصبغة الفاطمية فى الازهر ، وأن يتنكروا له مائة عام حتى يتم لهم هذا التغيير ويمارس الازهر دوره السياسى من جديد على وجه يرضون عنه . لكن زاد من شأن دوره العلمى ، قضاء المغول على مدارس العلم فى المشرق العربى ، واندثار الوجود الاسلامى الزاهر فى الاندلس..

وكان صنيع العثمانيين مع الازهر أشبه ما يكون بصنيع الايوبيين أو أقسى منه ، وان حاول قادتهم التزلف الى علمائه وطلابه والظفر بتأييدهم ، ويدل على طبيعة الازهر السياسية انه كان ينتخب لرياسته ناظر أو وزير من بين كبار رجال الدولة ، وان الرئيس العلمى أو الشيخ لم يعرف الا فى العهد العثمانى .

والحق ان دور الازهر الدينى والسياسى لم يتهيأ لاى من الجامعات الاسلامية أو غيرها . ويشير المؤرخ والمستشرق المعروف ك . فولرز K. Vollers الى بعض أسباب هذه المكانة المرموقة للأزهر ، فيذكر : « وقوع الازهر فى مكان يتوسط العالم الاسلامى ، وقربه من الحجاز ، وأهمية مصر الاقتصادية وصبغتها العربية ، وامتداد القارة الافريقية فيما يلى مصر » . ثم يقول : « وأهم من هذا كله ما لوادى النيل من ثقافة عقلية قديمة العهد ، تركت فيه بذورا صالحة لنمو العلوم والآداب » .

ومهما يكن من أمر ، فان دور الازهر بارز فى جميع الاحداث والثورات السياسية التى تعاقبت على وطننا منذ نشأته . ودوره فى العالم الاسلامى يمثل دور مصر

البارز لمختلف العصور الاســـــلامية ، ومنذ الثورة الأسلامية الاولى لعهد عثمان بن عفان .

وقد احتل شيوخه فى التاريخ مكانة لا تقل ، ان لم تفق ، مكانة الـكثيرين من الملوك والولاة ، فسجلت عهودهم وابعادها وسماتها ... وأرخ الجبرتى لشيوخ الازهر فى اتصال وتعاقب امتد مائتى عام ...

وكان شرط القيادة والادارة من الشروط الاساسية فى شـيخ الازهر الصالح ، فحين ولى الشيخ ابراهيم ابن محمد الباجورى المشيخة منـــذ قرن مضى ، لم يستطع لضعف ارادته النهوض بأعبـــاء المشيخة رغم عظمته العلمية . وحين ظهر ضعفه ووهنه ، عين فى عام ١٢٧١ هـ مجلس من أربعة وكلاء للنهوض بأعبـــاء المنصب الـكبير ...

ويظهر الاثر السياسى لشيخ الازهر حتى فى عهـد طغاة المماليك ... ويروى صـاحب عجائب الآثار ان الطاغية ابراهيم بك ذهب الى الشيخ العروسى متذللا متصاغرا باكيا ، طالبا أن يؤيده ضد ثورة الشعب على حكمه ..

كما يروى المؤرخون انه فى عام ١٧٩٥ م استبد الوالى بأهل بلبيس فى تحصيل الضرائب ، فلجأوا الى الشيخ الشرقاوى ، شيخ الازهر ، ليحميهم .. ونصح الشيخ الحاكمين : مراد بك وابراهيم بك ، ولـكنهما لم يستمعا لنصحه ... وحينئذ قاد الشيخ ثورة شـملت أهـل القاهرة وضواحيها ، وتجمع الناس ثلاثة أيام مصرين على سيادة الحق والعدل ، أو الجهاد والفـــداء فى سبيلهما .. ولم يكن بد للطاغيتين من الرضـــوخ ، وتحرير عهد يوقعانه بالتزام الجباة السيرة الحسنة ، والكف عن مد أيديهم الى أموال الناس بغير حـق ..

لكن الدور الازهرى لم يكن من صنع شيخ الازهر وحده ، بل من صـــنع الازهر كله : شيخه وعلمائه وطلابه جميعا ، ومن صنع الرأى العام الوطنى الذى يقرره الازهر . واذا الم بشـــيخ الازهر ، أو بكبار العلماء ، ضعف عن مسايرة الآمال الوطنية ، أو اعترى همتهم فتور ، تصدى لهم جمهرة العلماء والطلاب ، وأعرضوا عنهم ، وتخلوا عن قيادتهم ، بل أوقعوا بهم الاذى ، ومضوا فى سبيل الثورة الوطنية ما استطاعوا الى تأدية واجب النضال الوطنى للحرية سبيلا ...

والامثال على ذلك كثيرة :

ومنها ما حدث فى ثورة مارس (آزار) لعام ١٨٠٠ ضد الفرنسيين . فقد طالت مدتها ، وتكبد فيهـــا الفرنسيون من الخسائر ما لا يقل عن خسائر الوطنيين. وحينئذ لجأ الفرنسيون الى المصانعة . فاتصلوا بالشيخ الشرقاوى ، شـيخ الازهر ، وجمـاعة من زملائه هم المشايخ المهدى والفيومى والسرساوى . واتصـــل الشرقاوى وزملاؤه بالفرنسيين ، وعادوا الى الثائرين يحملون طلب الفرنسيين بايقاف الحرب ، والعفو عن جميع القائمين بالثورة ، واباحة الخروج والبقاء لمن شاء منهم ... ولم يكد الثوار يسمعون هذه الشروط التى تبعدهم عن هدفهم ، فى التخلص من احتلال الفرنسيين واجلائهم عن ارض الوطن المقدسـة ، حتى استنكروا صنيع الشيخ وزملائه ، ولقنوه وزملاءه درسا لاينسى ، « فضربوهم ، ورموا عمائمهم الى الارض ، واسمعوهم قبيح الكلام » ، كما تقول الرواية التاريخية المأثورة..

وقد امتد هذا التأثير الى عهد قريب ، ظهر فى وقفة الشيخ مصطفى المراغى ضد دخول مصر الحرب العالمية الثانية فى خريف عام ١٩٣٩ ، ضنا بمساندة من ساموها

سوء العذاب وتنكروا لحقوقها ولسائر الحقوق العربية.
وسارت فى الشعب المصرى العربى ، بل فى الامة العربية كلها ، قولته المأثورة : « كيف ندخل حربا لا ناقة لنا فيها ولا جمل ؟ ! » ، وكان لوقفته أثرها فى حركة على ماهر منذ نهاية ١٩٣٩ لتجنيب مصر ويلات الحرب ، ثم فى حركة رشيد على الكيلانى العراقية صدى للحركة المصرية ومن بعدها بعامين ...

وكانت مداخلات الشيخ المراغى ذات أثر فى شئون الحكم وتاليف الوزارات لعهديه فى نهاية العشرينات ، وفى الثلاثينات لهذا القرن ...

واذا كان حديث الثورات السياسية فى تاريخ الازهر يطول ، فاننا نكتفى بعد هذه الكلمة العامة بالاشارة الى أشهرها واقربها ..

ثورة أكتوبر ١٧٩٨ على الاحتلال الفرنسى

فى يوم الاحد الحادى عشر من جمادى الاولى لعام ١٢١٣ هـ ، الموافق ٣١ من أكتوبر (تشرين أول) لعام ١٧٩٨ ميلادية ، وبعد ثلاثة أشهر من الاحتلال الفرنسى بقيادة نابليون لمصر .. شبت ثورة القاهرة الاولى ..

وذكرت أسباب كثيرة لهذه الثورة . فقيل انها الكساد وسوء الاحوال . واتفق الجبرتي ونابليون فى رد اسبابها الى الاوامر الادارية الفرنسية التى أرهقت الشعب ، وسنت القروض والبيوع الاجبارية ، والاستيلاء قسرا ، والفرامات ، ورسوم التسجيل وما اليها من الوان الاستنزاف والعنت ..

ويضيف جديدا الى ذلك المعلم « نقولا الترك » اللبنانى ، مراقب الحملة ومسجل أحداثها ، فى كتابه « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد

الشامية » ، فيذكر المعلم نقولا ان الطبائع المصرية نفرت من ايلاف الاحتلال الفرنسى رغم التودد والتحبب من المحتلين الى الوطنيين ، وان الاستهتار والدعارة الفرنسيين ضايقا المصريين أشد المضايقة ، فضلا عن « الخمامير التى اشتهرت فى كامل أسواق المدينة جهارا ، حتى وفى بعض الجوامع أيضا » ، مما جعل المصريين يؤثرون الموت على الحياة ، مع ان طبقة الاسافل والاراذل كسبت كثيرا من الانحلال الشائع .

ومهما يكن من سبب ، فقد كانت الثورة المصرية على الاحتلال الفرنسى ثورة شعبية عامة بشهادة المؤرخين الفرنسيين وغيرهم . وقد بلغت شعبيتها حد انها فاجأت المحتلين وأذهلتهم رغم عموم دعوتها قبل وقوعها ، وسيرورة الجهر بندائها فى كل مكان ...

وفى ذلك يقول ج . كريستوفر هيرولد Christopher Herold فى كتابه « نابليون فى مصر » :

« واغرب ما فى الثورة المصرية ، التى نشبت فى ٢١ من أكتوبر ، انها أخذت الفرنسيين على غرة ، مع ان اقترابها كان ينادى به على الملأ من فوق سطوح المنازل وأعلى المآذن » . ويضيف « هيرولد » ان أعضاء الديوان الذى اقامه نابليون كانوا على علم تام بمقدمات هذه الثورات والاعداد لها ، وانهم مع لقائهم المتصل لنابليون وأعوانه لم يفضوا الى الفرنسيين بشىء .. ثم يظهر ان نابليون كان يدرك النقمة المصرية ، ولهذا حاول امتصاصها باعلان رغبته فى اعتناق الاسلام ...

ويقول « المركيز دى لاجونكيير » الضابط الفرنسى ، فى الجزء الثالث من موسوعته عن حملة نابليون الى مصر : « كانت الدعوة الى الثورة تختلط جهرا بأذان المؤذنين ، فكانوا يدعون الى الله والى الثورة صباح

مساء . فبلغت عوامل الاثارة أقصى المدى ، حتى كانت حادثة واحدة تكفى لاضرام بركان الثورة القومية . وكان فرض ضرائب المنازل سببا كافيا فى اثارة نفوس الذين لم تستثرهم الدعوة الدينية » . ومن هذا يظهر أن أسباب الثورة كانت أعم من هذه الخصوصيات التى حاول بعض المؤرخين ارجاعها اليها ..

ولقد كانت هذه الثورة أزهرية القيادة ، وكان الجامع الازهر مقر قيادتها العامة ، اذا ساغ هذا التعبير عن أحداث مر عليها مائة وثلاثة وسبعون عاما ..

لقد أخذ علماء الازهر يبثون الدعوة الى الثورة بواسطة شيوخ المساجد يحثون عليها فى عظاتهم وخطبهم وبواسطة المؤذنين يدعون اليها خمس مرات فى اليوم مع كل صلاة .، فكان الازهريون هم قادة الثورة ودعاة الوطنية والفداء . وفى ذلك يقول هيرولد : « أما العناصر المجاهدة حقا ، فهم الغلاة فى الدين كالائمة وطلاب الازهر ... » .

ويجمع الجبرتى ونقولا الترك والمؤرخون على ان الذى تزعم الثورة يوم نشوبها عالم ازهرى شاب هو الشيخ بدر المقدسي . فقد نزل الى الشارع ، وخطب فى جمع غفير من الناس ، داعيا كل مؤمن بالله أن يذهب الى الجامع الازهر : « لان اليوم يوم غزو المؤمنين للكافرين » . ومن بعد ذلك قاد جماعة الى منزل القاضى التركى ابراهيم ادهم افندى . وكان وقورا محترما ، وطلبوا منه أن يذهب معهم الى مقر نابليون بونابرت للاحتجاج على المظالم الفرنسية ... ولم يكد يتخطى عتبة داره حتى رأى الثائرين فى زحف وتكاثر وهياج ، فأدرك خطورة الامر ، وانكفأ راجعا الى بيته.. ولكن الجماهير اصرت على مصاحبته للمسيرة ..

وحين تشبث بتخاذله ، سقط ما كان له من الاحترام فى نفوس الناس ، فانهالت الجماهير عليه وعلى رجاله ضربا بالعصى ورجما بالاحجار ...

وشكلت لجنة لقيــادة الثورة ، وانتخبت الشيخ السادات من نقباء الاشراف رئيسا لها ، واتخذت فى الازهر مقرها ، ونظمت كتائب المتـطوعين وزودتهم بالسلاح والطعام ، واندمج شيوخ الازهر فى الصناع والتجار والعمال وسائر الطوائف بدعوتهم الى الجهاد فى سبيل الله والوطن .

وتكاثر المعممون ، كما يقول الجبرتى ، يخطبــون الجماهير ، ويشعلون نار الحماسة فى قلوبهم . وتطايرت انباء الثورة فى سرعة مذهلة ، وأقبل الفلاحون وأهل الضواحى الى القاهرة ، وظهرت الاســلحة والرماح والاسهم فى الايدى مع الحجارة والعصى والفئوس وما اليها . وتجمع فى الازهر عدد قدر بأربعين ألفا من الثائرين ...

وبلغت أنبــاء التجمهر فى الازهر وخان الخليلى وما حولهما الى الجنرال « ديبوى » حاكم القاهرة من قبل بونابرت . فركب الخيل مع عدد من مســاعديه حتى صادفته المتاريس التى أقامها الثوار على أبواب خان الخليلى والنحاسين . وهنا برز له أحد الثائرين وطعنه برمح فأرداه قتيلا ، كما أجهز الثوار على مساعديه...

وكان بونابرت قد غادر القاهرة فى رحلة تفتيشــية الى مصر القديمة والروضـــة . وحين بلغه مصرع « ديبوى » أسرع بالعودة الى مقره وعين « بون » محل « ديبوى » ...

واتخذ على الفور أشد الاجراءات للقضاء على الثورة وتدمير الازهر معقلها ...

ويقول هيرولد : « أما بونابرت ، فقد ثار غضبه وهو فى مقر قيادته بقصر الالفى ، وأمر مدفعية القلعة المعززة بمدافع الهارتزر والمورتار بأن تسدد المدافع الى الجامع الازهر وما حوله من أحياء هى مركز الثورة... وبدأ ضرب الازهر بالقنابل عند الظهر واستمر حتى المساء ، واصدر بونابرت أمره الى الجنرال « بون » بأن يقضى على كل من فى الجامع الازهر ... »

واخذت القنابل تضرب الازهر وما حوله حتى تصدعت الجدران وانهارت الابنية وسقط الالوف قتلى تحت الانقاض ، وجرى الدم فى الشوارع من الوطنيين والاستعماريين ...

وقدرت المصادر الفرنسية عدد القتلى من الفرنسيين بخمسمائة وعددهم من المصريين بنحو ثلاثة آلاف . ثم اقتحم الفرنسيون الجامع الازهر بخيولهم ، ونهبوا نفائسه وكتبه ، ودنسوا طهارته ، وانتهكوا حرماته ، واقاموا فيه مركزا لهم ...

كما أسر الفرنسيون زعماء الثورة من علماء الازهر ، واعدموهم فى القلعة دون محاكمة ، وألقوا بجثثهم خلف الاسوار ، ثم قذفوا بها فى النيل ...

ولم يترك نابليون أسلوبا للوحشية لم يستخدمه فى التنكيل بالثوار والتمثيل بجثثهم ...

ولكنه مع ذلك لم يستطع اخماد الثورة الا بعد أن احضر طائفة من علماء الازهر الذين لم يشتركوا فيها لاسباب شتى ، وأعلن لهم العفو عما اقترفوه كما قال ، واستكتبهم منشورا يطلب الى الناس الهدوء ، ويزف لهم بشرى الصفح المزعوم والامر باخراج الجنود الفرنسيين من الازهر ، واعادة نفائسه وكتبه اليه ، وفى ذلك يقول « هيرولد » :

« وهكذا نجد الجهر بالعفو عن الابرياء ، واعـدام الثائرين فى الخفاء وتحت جنح الظلام . وهى سياسة خليقة بأن تنال رضاء مكيافيللى ! » ..

وهذه الثورة الازهرية ، تخطيطا وقيـادة ومقرا ، من أخلد الثورات المصرية على الزمان . واذا قدر لهـا أن تخمد ، فقد كانت بتجربتها القاسية ، وخسـائرها الفادحة وتضحياتها الغالية سببـا فى اضطراب مقـام الفرنسيين بها ، ونشوب ثورات فى جميـع الاقاليم ضدهم ، كما كانت أعظم دافع لمصر فى ثورتها الثانية..

ثورة مارس (آزار) لعام ١٨٠٠

كانت ثورة مصر الاولى وما أثبتته للغزاة الفرنسيين من تعذر استقرارهم فى مصر وتحقيـق أحلامهم فى السيطرة الدولية عليها ، وما تتبعها من هزيمة لنابليون فى عكا من الاسباب التى دعت نابليون الى العودة خفية الى فرنسا فى السابع عشر من أغسطس (آب) عام ١٧٩٩ ، مخلفا قيادة جيش الاحتلال فى مصر «لكليبر» ، كما شجعت العثمـانيين على غزو الفرنسيين فى مصر اعتمادا على انضـمام المصريين اليهم .. لـكن الغزو العثماني وما صحبه من تدبير بريطانى ، دفع «كليبر» الى محاربة الجيش التركى المصرى ، والانتصـار عليه فى معركة « المطرية » الطاحنة فى ٢٣ من شـوال لعام ١٢١٤ هـ ، الموافق ٢٠ من مارس (آزار) لعام ١٨٠٠.

وعاد « كليبر » مزهوا بانتصاره الى القاهرة ، لكن الثورة الثانية قابلته فى ذات الوقت .. فقد عز على أهلها هزيمة جندهم وجند اخوانهم الترك المسلمين ، وضياع فرصة التخلص من الاحتـلال الفرنسى الباغى الطاغى ..

وكان أبرز رجال هذه الثورة السيد عمر مكرم نقيب الاشراف ومن رجال الازهر الاعلام .. وقد اعتمد فيها على تأييد شيخ الازهر ، وعلمائه وطلابه الذين انبثوا فى الاحياء المختلفة وأشعلوا الثورة فيها جميعا ، مستفيدين من تجربة الثورة الاولى فى حى الازهر وحده ...

وقد دامت سبعة وثلاثين يوما تخللتها هدنة ، وخرج منها الثائرون بشروط مشرفة تضمنت العفو عنهم .. وامتازت هده الثورة بأعلام كثيرة مشرقة اهمها :

اولا ـ الوحدة الوطنية : فقد التقى فيها الامراء السابقون والفلاحون ، والعلماء والعامة ، والاغنياء والفقراء ...

ثانيا ـ الشمول : فقد بدأت فى حى بولاق ، ثم اشتعلت بها أحياء الحسينية وباب الحديد وبركة الرطل وسائر أحياء القاهرة ، مما كلف جيش الاحتلال الكثير من الضحايا والخسائر ...

ثالثا ـ الاستعداد : فقد عملوا على الاستفادة من اساليب الحرب الحديثة حينذاك ، وانشأوا بجهودهم الذاتية ووسائلهم المتاحة معملا للبارود فى الخرنفش ، وجمعوا مختلف الصناع لصنع الذخيرة واخرجوا المدافع والاسلحة القديمة من المخابىء والمخازن واصلحوها واستخدموها ، وجمعوا الحديد من كل مكان حتى من المساجد ذاتها ، مؤمنين بأن الاسلام عمل ونضال ، وان أعلى درجات الايمان هى الجهاد فى سبيل الله لاعلاء كلمته : كلمة الحرية والعدل والسلام ...

رابعا ـ التنظيم : فقد قسموا القاهرة الى مناطق عسكرية ، عينوا لكل منها قائدا من اعلام الثوار ، ونسقوا العمل ...

وكان من العسير على جيش الاحتلال أن يثبت فى

المعركة لولا ما اخترعته البعثة العلميــة الفرنسية من وسائل الحرب الاشد حداثة ، والتى أطنب الجبرتى فى وصف هولها وفى فظاعة استخدامها بعد ثلاثة أسابيــع من بدء المعركة.. ومع ذلك فقد استطاع الثوار مقاومتها لمدة أسبوعين ، ثم نزل الجيش المحتــل على شروطهم للمصالحة التى لم يجدوا منها بدا ..

لــكن هذه الثورة ، وما أعقبها من مصرع « كليبر » بيد سليمان الحلبى ، وماصاحبها من تطورات دولية ، مهدت لتصفية الاحتلال الفرنسى فى مصر بعــد ثلاث سنوات من مقامه الدامى فيها وبها كتبت مصر ، فى تاريخ النضال البشرى للحرية ، صـــفحة من أروع الصفحات الوطنية ...

ثورة مايو (آيار) عام ١٨٠٥

ومن الثورات الازهرية التاريخية ، ثورة مايو (آيار) لعام ١٨٠٥ .. فقد تمرس المصريون بأعمال النضــال الوطنى وأعبائه ومسئولياته ثلاث سنوات أثناء الاحتلال الفرنسى ، ثم ذاقوا طعم الحرية والنصر بعــد جــلاء الجنود المستعمرين عن وطنهم .. وقد تبينوا قوتهم ، وعجز العثمانيين واحتماءهم بالبريطــانيين المستعمرين لتحقيق الاهداف المشتركة ...

وكان من دوافع الاسى والنقمة على اخوان الاســلام ان العثمانيين بعثوا خسرو باشا ، الطــاغية المستهتر الاخرق ، حاكما لمصر بعد جلاء الفرنسيين عنها ، وان طغيانه وما صحبه من صراع بين المماليك والترك من ناحية ، وبين زعماء كلا الفريقين من ناحية أخرى ، حملت المصريين أشد ألوان العنت حتى ضاقت نفوسهم عن جميع منازع الصبر عليها .. وكان محمد على قائد

الجنود الارناؤود الالبانيين يشارك المصريين النقمة على الحكم العثمانى والحاكم الاخرق خسرو باشا ...

وكان الاعداد لثورة مصرية وطنية بقيـادة شيـوخ الازهر للخروج على الوالى التركى ولتنصيب محمد علي من قبل شعب مصر واليا عليه ، وسـجلت الحركة الوطنية المصرية نصرا مؤزرا فى المجال القومى العربى ، سبق حركة الشريف حسين ملك الحجاز بمائة واثنى عشر عاما ، وكانت له أعظم الآثار فىاحياء الحركة العربية وانتصارها من بعد .. رغم النضـال المتصـل الذى لا تزال تخوضه منذ ستين عاما أو أكثر ..

ففى يوم الاحد ١٢ من مايو (آيار) لعام ١٨٠٥ ، احتشدت جموع الشعب من علماءالازهر وطلابه والتجار والفلاحين والعمـال ، بجوار الازهر يتزعمهم الشـيخ الشرقاوى شيخ الجامع الازهر والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف .. وتعالى لاول مرة هتاف الجماهير المصرية العربية بالانفكاك العربى من الرباط العثمانى فى هـذه العبـارة البسيطة التقية : « يارب يا متجلى ـ اهلك طائفة العثمانلى » ..

وعقد مؤتمر شعبى بجوار الازهر تقرر فيه مطالبـة الوالى التركى باخراج الجنود من القاهرة الى الجيزة ، والا يدخل جندى القاهرة بسـلاحه ، وعدم فرض الضرائب الا بموافقة علمـاء الازهر والاعيان ، واعادة المواصلات المقطوعة بين القاهرة والصعيد ..

وتلـكأ الوالى ، وواصل الثائرون اجتماعهم فى اليوم التالى ، وسارت جموعهم المقـدرة بعشرات الالوف والممثلة لطوائف الشعب ، فى يوم ١٣ من مايو (آيار) عام ١٨٠٥ ، الى منزل محمد على باشا ... وقدم اليه شـيخ الازهر الشرقاوى ونقيب الاشراف عمر مكرم

شروطــا للولاية خلاصتها الحكم بالعدل وفق الشريعة الاســـلامية السمحاء ، وعدم ابرام الامور الا بمشورة زعماء الشعب ، وعزله عند المخالفة للآراء الشعبية ..
ووافق الوالى ، وانتصرت ارادة الحرية ، وان قدر لماركها أن تتصل من بعد دفاعا عن كيانها ، وعن عهودها المنقوضة ...

ثورة مارس عام ١٩١٩

وكانت ثورة ١٩١٩ قمة الثورات الوطنية المصرية ، وبداية الحركة الاستقلالية الفعالة . وقد تمت بارادة شعبية اجماعية ، اشتركت فيها المدن والقرى جميعا ، وشملت الشعب كافة .. وكانت أوامر سلطة الاحتلال البريطانى تتناول جميع المدن والقرى دفعة واحــدة ، مقاومة للحركة الشامله الواحدة ...

لــكن دور الازهر مع ذلك بارز فيها أعظم البروز ، وظاهر أتم الظهور... فزعيمها الاول ســعد زغلول من علمـــاء الازهر الذين تعلموا وتخرجوا فيه ، وزادت استنارتهم بما أضافوا الى ثقافتهم الوطنية من ثقــافة أجنبية ...
والازهر كان الملتقى الدائم للثوار من المســـلمين والمسيحيين على سواء ، يدعمون الوحدة الوطنيـــة النضالية ، ويعملون لتنفيـــذ خطط الثورة فى جميع الاقاليم المصرية ...

والذين يطالعون يوميــات الثورة المصرية كما كتبها المصريون والبريطانيون يتبينون الدور الفعـــال الذى نهض به الازهر فى ثورة ١٩١٩ ...
وقد ظهر الدور الازهرى القيــادى منذ اليوم الاول للثورة : يوم ٩ من مارس (آذار) لعام ١٩١٩ . لقد

تفى فى ذلك اليوم سعد زغلول ومحمد محمود واسماعيل صدقى وحمد الباسل الى مالطه ، على اثر مطالبة الوفد المصرى بانهاء الحماية البريطانية والاعتراف باستقلال مصر وسيادتها ...

وتقول اليوميات المصرية ان طلبـــة الازهر كانوا فى مقدمة الطلاب المصريين فى اليوم الاول والثانى للثورة ، مع طلبة المدارس العليا وبعض المدارس الثانوية ....

وفى يوم ١٢ من مارس كان أول تعرض مسـلح من الجنود البريطانيين لطلبة الازهر ، وكان أول الشـــهداء من طلبة الازهر ...

وفى يوم ١٣ من مارس ظهـــر الازهريون فى قيـــادة مظاهرة المسجد الحسينى بعـــد صـــلاة الجمعة ، التى اطلقت ــ المدرعات البريطانية ــ عليها النار وقتلت منهم ١٢ شخصا ...

وكان العلماء وطلبة الازهر فى مطلع المظاهرة الكبرى فى ١٧ من مارس ...

وكان علماء الازهر فى مقدمة العناصر التى يستشيرها الوفد فى خطواته ، مثلما حدث قبل تقديم تقرير الوفد الى المارشال « اللنبى » فى ٢٦ من مارس ، اذ استشار فيه علمـــــاء الازهر وبطريرك الاقباط وبعض الوزراء والنواب ...

وفى أول ابريل « اشـــــــتدت ثورة الازهر وكثرت اجتماعاته حتى لجأت السلطة العسكرية الى مخاطبـــة شيخ الازهر فى اغلاقه دفعة واحدة ، أو الاكتفاء باغلاقه فى غير أوقات الصلاة فأبى » ...

وتؤكد الوثائق البريطانيـــة الدور الازهرى . ففى التقارير اليومية لرجال بريطانيا فى مصر شواهد كثيرة ، نكتفى بايراد بعض ما تضمنته تقارير سير «م. تشيتام»

الى لورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية ...

ففى تقريره عن يوم ١١ من مارس قال : « انتشرت الثورة فى أماكن عديدة من القاهرة . ففى ساعة مبكرة من صباح اليوم تجمع الثائرون ، ومعظمهم من طلبة الازهر ، وبعض الافراد فى الاماكن الرئيسية بقلب المدينة ، وزحفوا نحو ورش السكك الحديدية لاخراج العاملين فيها ...

وفى يوم ١٣ من مارس يتحدث عن أفراد التنظيم فى حركة الثورة ، وتعذر التغلب على منطقة الازهر ، قائلا : « ان الاضطرابات فى هذه المنطقة يصعب التغلب عليها ، بسبب الرغبة فى منع الجنود البريطانيين من الاقتراب من الجامع الازهر » ...

وفى يوم ١٧ من مارس يقول : « سارت مظاهرة فى القاهرة ضمت نحو ١٠ آلاف شخص بقيادة طلبة الازهر » ...

وفى يوم ٢٠ من مارس يتحدث عن تعاون زعماء الازهر مع البطريركية القبطية بطريقة فعالة وحرص الازهريين على كفالة هذا التعاون ...

وهكذا كان دور علماء الازهر الوطنيين المستنيرين فى بداية القرن العشرين مواجهة للاحتلال البريطانى هو دورهم فى نهاية القرن الثامن عشر مواجهة للاحتلال الفرنسي ... وهو دور لم يستطع اخفاءه مؤرخو الحملة الفرنسية من الفرنسيين ومؤرخو الثورة المصرية من البريطانيين ...

وهو دور يتفق مع قواعد الدين الاسلامى ومبادئه : قواعد العمل والنضال والفداء وضرب أحسن الاسوة وخير المثل ، ومبادىء الحرية والعدل والسلام ، والعمل الجاد المخلص لسيادة سلطانها واعلاء كلمتها ..

رسالة الأزهر

فهى الكاتب الكبير فكرى اباظة جانبا من مرحلة الطفولة يدرس فى الازهر . وهو فى هذا الحديث ، يحدثنا عن ذكرياته وآرائه فى الازهر ورسالته ..

* اعرف انك فى صغرك كنت طالبا أزهريا ، وأظن ان الكثيرين من أبناء هذا الجيل لا يعرفون هذا ، فهل ترسم لنا صورة عن طفولتك ؟ ..

ـ كان المرحوم والدى من طلبة الازهر ، ومن خريجيه ، ولم يكن ذلك غريبا ، فقد كان كل أبناء الاسر يلتحقون بالازهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وربما قبل ذلك بعدة سنين ... لان آباءهم كانوا ينذرون أن « يهبوهم للعلم » ، وكان أخى الاكبر والاخ الذى يليه يتعلمان فى المدارس ، مدرسة « النحاسين » بالتحديد ، ورأى والدى أن أكون « أزهريا » ، والحقنى بكتاب « خان جعفر » من الكتاتيب الملحقة بالازهر ، لأحفظ القرآن ، ومبادىء القراءة والكتابة ...

ولقد واظبت على الحضور الى ذلك الكتاب مع والدى عدة شهور ، وكنا فى ذلك الوقت نسكن بحى « شبرا » حيث كان والدى قد استأجر مزرعة لسيدة « نمساوية » ولم يكن « الترام » قد سار فى شارع

شبرا بعد ، فكنا نمتطى « الحمير » حتى ميـــدان « السكة الحديد » ثم نركب عربات « سوارس » التى تجر الواحدة منها أربع خيول ، الى الازهر ! ..

ولـكن حدث اننى مرضت فى طفولتى مرضا خطيرا بسبب جلوسى على « البلاط » طوال اليوم ، وبسبب الطعـــــام المدمن من الفول المدمس ، والطعمية ، و « الطرشى » ، فاستنجدت بوالدتى وأهلى فى قرية « كفر أبى شحاتة » التابعة لمركز منيا القمح ، وكانت التقاليـد تقضى بأن تبقى الاسرة حيث هى بالريف ، ونعيش نحن الاولاد ، وحدنا أثناء التعليم فى القاهرة .

وأنقذتنى والدتى من كتاب « خان جعفر » والتحقت بمدرسة « النحاسين » المواجهة لذلك الـكتاب ...

ولـكن هل انتهت علاقتى مع الازهر ؟ ..

لا .. فقد كان والدى يحرص كل الحرص على ان أقرأ معه الـكتب « الصفراء » ، وأنسخ منها ما يرى أن يحتفظ به ، وربما كان هـذا هو السبب فى اننى ظللت فى الواقع « أزهريا » رغم التحاقى بمدرســـة « النحاسين » ...

* كيف بدأت علاقتك بالازهر ؟ ..

ـ كنت فى بعض الاحيـــان أذهب مع والدى الى صحن الازهر لاحضر معه الدروس التى يقوم بالقائها علماؤنا الاعلام ، ونحن جلوس على « البلاط » بالحلقات العديدة من مختلف الموضوعات الدينية من دروس اللغة العربية ، والمنطق ، والحديث ، والتفسير ، الى غير ذلك ...

وقد كنت أتمنى أن أتابع دراســتى بالازهر ، وأن أتخرج فيه لاكون من بين كبار العلماء ومن يدرى ؟ .. فربما كنت توليت منصب « المفتى » أو « شيخ الازهر »

من زمن طويل لو اننى واصلت دراستى بالازهر ...

وقد كان علمـــاء الازهر الاعلام من زملاء والدى يتابعون زيارتهم لنا فى قريتنا « كفر أبى شحاتة » وكنت لا أفارق مجالسهم مستمعا الى أحاديثهم الدينيـة ، ومنهم الشيخ « المرصـــفى » والشيخ « البشرى » والشيخ « الخضرى » وغيرهم ، وغيرهم ...

والذى لايعلمه الجيل الجديد ان طائفة من العبقريات المصرية ، ومن الزعماء السياسيين قد تعلموا فى الازهر وتخرجوا فيه ، وأصبحوا من أشـــهر الرجال فى السياسة والمحاماة والقضـاء ، امثال الزعيم الـكبير «سعد زغلول» والمحامى الـكبير « ابراهيم الهلباوى » وزميله المحامى الـكبير « محمد أبو شادى » والمرحوم « حسن صبرى باشـــا » و « محمود أبو النصر » وكثيرين غيرهم ، منهم من كان بين زعماء ثورة ١٩١٩ برياسة سعد زغلول ، ومنهم من ولى الحكم رئيســا للحكومة مثل « سعد زغلول » و « حسن صـبرى » ومنهم من اشتغل بالصحافة مثل المرحوم «أبو شادى» بل ان بعضهم اختارته الدولة فى بعثات دراسـية الى فرنسا وفى مقدمتهم الامام الـكبير « محمـد عبده » والزعيم « سعد زغلول » و « حسن صبرى » رحم الله الجميع ...

وبالطبيعة تأصلت فى نفسى عقيـــدة « الايمان » والتمسك بمبادىء الدين ، وحفظ القرآن مع تفسيره ، وكذلك الاحاديث النبوية ، ثم كان بعد ذلك أن استوعبنا فى نشأتنا الادب العربى القديم من الشعر الجاهلى وما بعده من أشعار العهد الاسلامى ، ولا نزال حتى الآن نستعيد مراجعة المعلقات السبع لامير الشعراء امرىء القيس ، والاعشى ، وعنترة بن شـــداد ، والنابغة

الذبيانى ، الى آخر القائمة ...

* هل لك مآخذ على أبنـــاء الجيل الحاضر من الازهريين ؟ ..

ـ لا أدرى ما حال أبناء الجيل الحاضر فى كليات الطب والهندسة وغيرهما من الجامعة الازهرية ، هل يحفظون قواعـد الدين ، ويتبحرون فى تفسـير آيات الذكر الحكيم ، والمنطق ، وعلم الحديث ، أو شغلتهم الدروس الجامعية العصرية عن دروس الدين المختلفة ؟ وهل حققت الجامعة الازهرية العصرية ، وكليـــاتها الفكرة بأن يكون أساس التعليم هو الدين أولا ، ثم الطب والهندسة وغيرهما ثانيا ؟ ..

أتمنى أن يكون هذا الهدف قد تحقق ، وان كنت قد عارضت الفكرة من أساسها وخشيت على الازهر من أن يجتاحه هــذا التحول الذى يتناقض مع تقليـده القديم ...

* اذن بماذا تنصح الجيل الجديد من الدارسين ؟..

ـ نصيحتى الى الجيل الجديد تتلخص فى النقـاط الآتية :

أولا : أن يعنوا عناية تامة باللغـة العربيـة ، وانى لاجزع أشد الجزع من تدهورها وانحرافها انشاء ونطقا واملاء ، فانها حالة يرثى لها حقا ... خريجو الجامعات لا يتقنون اللغة العربية بجميع قواعدها الاساسية مثل النحو والصرف والفاعل والمفعول ، وان الاخطـــاء مزعجة بدرجة قصوى فيما نقرؤه للخريجين ، وفيما نسمعه منهم ، والواجب أن تعالج هذه الحالة ، لاننا نتزعم العالم العربى بحق ووسيلة التفاهم هى « اللغة العربية الفصحى » حيث تختلف اللهجات فى اللغـات

العامية الدارجة بين قطر عربي وقطر آخر ...
ولا يجوز لنا أن ننسب التقصير الى « الطلبة » وانما يشتد جزعنا أكثر وأكثر اذا علمنا من اجماع المسئولين عن التعليم ان طائفة « المدرسين » الذين يدرسون اللغة فى المدارس الابتدائية ، والثانوية ، هم أيضا فى حالة يرثى لها .. ولا أدرى كيف كان ذلك ، وكيف يكون؟ !
والعلاج يجب أن يتناول الطلبة ، ويتناول فى الوقت نفسه المدرسين الذين لم يتعلموا التعليم العربى الفصيح الكافى لينقلوه الى تلاميذهم ...
وأرى الا يقتصر تعليم اللغة العربية الفصحى على المدارس الابتدائية والثانوية فقط ، بل يجب أن تدرس فى الكليات الجامعية المختلفة .. لانه لا يجوز بحال من الاحوال أن تكون اللغة هزيلة فى «مذكرات» المحامين الناشئين وفى « مرافعاتهم » أمام المحاكم وكذلك الحال فى كليات الهندسة والطب ، وغيرهما ...
ان اللغة العربية الصحيحة الفصيحة يجب أن تكون فى ميسور خريجى هذه الكليات .. والذى يقارن بين ما ينشر من كتب هذه الايام ، وما ينشر فى الصحف والمجلات هذه الايام وما كان ينشر منها فى الايام السابقة ، يجد الفرق شاسعا بين الاجادة فيما مضى والضعف فى أيامنا هذه ...
لغة « القرآن » يجب أن نوفر لها « القدسية » والبقاء فى كياننا العربى المترامى الاطراف ، وفى « مصر العربية » بالذات ...
ثانيا : الإخلاق .. والاخلاق هى كل شىء ، وقد جدت بالذات « أخلاقيات » عديدة فى السنين الاخيرة ، وتنوعت الوان الجرائم الخلقية من مادية وادبية ، وأبشعها « جرائم الطلبة » من المدارس الثانوية والعالية ، وتنشر احداثها بين يوم وآخر فى الصحف ،

ولم يكن هذا التردى الاخلاقى معروفا أيامنا نحن ابناء الاجيال الماضية ، والرقابة على هذه الاخلاق يجب ان تكون رقابة مزدوجة فى البيت والمدرسة حتى الجامعة . ولكنى ألاحظ ــ مع الاسف الشديد ــ ان الاشراف المنزلى ، أو السلطان الابوى لم يعد له وجود فى الاسر، وكذلك ضعف نفوذ المسئولين عن التعليم فى المدارس الثانوية والجامعات ، فان هؤلاء المسئولين لا يستغلون سلطاتهم فى حدود القوانين واللوائح الوزارية والمدرسية والجامعية فى مراقبة الانحراف الاخلاقى ...

وقد شاعت بالمدارس الثانوية والجامعات «التقليعات» المستوردة من الخارج والتى تتنافى مع التقاليد والدين، ولم يستعمل الادارى المدرسى والجامعى الحزم مع المترفين من « الهيبيز » و « الخنافس » والمرتديات « المينى جيب » و « الميكرو جيب » الى آخر هذه التقليعات الفاسدة التى شوهت صورة عدد لايستهان به من الطلبة والطالبات ...

ثالثا : لا أدرى كيف تعالج مشكلة كثرة الزاحفين بالالوف على كليات الجامعة بحيث استعصى على المدرسين والاساتذة أن يعلموهم التعليم الكامل بسبب كثرة العدد فى الفصول وبسبب قلة المدرسين والاساتذة الذين يتنقلون بين محافظة ومحافظة لالقاء دروسهم الخاطفة فى الجامعات الاقليمية ؟ ..

* هل يؤدى الازهر رسالته فى العالم الاسلامى كما يجب ؟ ..

ــ أنا شخصيا اتساءل معك نفس هذا السؤال ، بل واقول : وهل استطاعت البعثات الازهرية الى البلاد الافريقية والآسيوية أن تقوم برسالة كاملة فى هذه البلاد ؟ ..

لا أستطيع الجواب ، لانني لا أستطيع أن أجيب بالايجاب ، بل يرد على خاطرى تساؤل آخر ، هو سبب تخلف « العالم الاسلامى » هذا التخلف الملحوظ فى جميع أقطاره ، وما يصيبه من نكبات محزنة فى اندونيسيا والفيليبين والباكستان وغيرها ...

ان مصدر الشريعة الاسلامية هو « القرآن الكريم » وهو الكتاب المنزل الاوحد الذى لم يقتصر على « الروحانيات » والعبادات وانما وضع أسس سياسة الحكم ، والمعاملات الدينية والعقوبات وكل ما احتوته القوانين « الوضعية » العالمية ، واذكر بهذه المناسبة أن العبقرى العظيم « نابليون بونابرت » قال فى أحد بياناته انه لا يفاخر بالاربعين معركة التى انتصر فيها ، وانما يفاخر « بقانونه المدنى الفرنسى » والمعلوم أن بعض مبادىء هذا القانون مستقاه من أحكام الشريعة الاسلامية فى المعاملات ، وأذكر أيضا انه لما اجتاح المانيا واستقبل رجال الفكر ، قال فى لقائه مع الكاتب الالمانى الخالد « جوتة » : « انك اذا جئت الى باريس ، فسوف تجد على مكتبى كتابين فقط هما : رواياتك الخالدة ، والقرآن الاسلامى العظيم » ...

وقد يكون سر تخلف الدول الاسلامية راجعا الى تزمت علماء الدين وتنافسهم فى التطرف ، مبالغة فى مدى اسلامهم وايمانهم ، مع ان القاعدة الاصيلة فى الدين الاسلامى هى انه : « دين يسر لا عسر » ...

والله أرجو أن يعصمنى من الزلل على قدر امكانى ، وان يغتفر لى بعض ما ذهبت اليه من ملاحظات ومؤاخذات ، متمنيا لامتنا الاسلامية كل تقدم وازدهار ، على يد أبنائها ، بعد أن يتسلحوا بالعلم والايمان ، أقوى وامضى سلاحين يتسلح بهما المؤمن لخوض معترك الحياة

ثورات فكرية فى تاريخ الأزهر

يذكر التاريخ ان الذى بنى الازهر هو جوهر الصقلى قائد جيش المعز لدين الله الفاطمى ، وقد أتم بناءه سنة احدى وستين وثلاثمائة وقد أريد للأزهر فى أول الامر أن يكون مقرا للدعوة الفاطميـــــة القائمة على المذهب الشيعى الاسماعيلى ، وسموه « الازهر » نسبة الى « الزهراء » لقب فاطمة رضى الله عنها التى ينتسب اليها الفاطميون ، ولــكن الله تبارك وتعالى أراد للأزهر بعد ذلك أن يكون معقلا للدراسات الاسلامية والعناية بعلوم الدين واللغة ...

ويذكر التاريخ ان الوزير يعقوب بن كلس الذى وقف على الازهر أوقافا أشار سنة ٣٧٨ هـ على العزيز بالله الخليفة الفاطمى أن يحول الازهر من مسجد شيعى الى جامعة لتدريس العلوم الدينية والعقلية ، وكأن هــذا الرأى قد كان ايذانا بحدوث ثورات فكرية كثيرة فى الازهر ، لا نستطيع هنا أن نرصدها على وجه الاحصاء ولــكنا نستطيع أن نذكر طائفة منهــا قد تكون أقوى أثرا من غيرها فى تاريخ هذه الجامعة الاسلامية التليدة .

لعــل صــلاح الدين الايوبى كان أول من قام بثورة فكرية فى الازهر كان لها أثرها وخطرها فقد كان صلاح الدين سنيا ، فعنى بالقضاء على المذهب الشيعى من

(*) للاستاذ الدكتور احمد الشرباصى

الازهر ليغرس مكانه المذهب السنى ، ومهد لهذه الثورة بأن أنشأ فى سنة ٥٦٦ هـ المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو لتدريس المذهب الشافعى ، كما أنشأ المدرسة القمحية بجوار المدرسة السابقة لتدريس المذهب المالكى ، وعزل صلاح الدين القضاة الشيعيين، وعين بدلهم قضاة شافعيين، وكان صلاح الدين شافعيا ، وبعد حين ضعف المذهب الشيعى وتقلص ، ثم انقرض من مصر وبعد أن كان اسم الخليفة الفاطمى يذكر على منبر الازهر ، صار يذكر اسم الخليفة العباسى ...

ولقد كان سقوط بغداد على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ سببا فى اتجاه كثير من العلماء والفقهاء الى مصر ، والاتصال بالازهر ، والتأثر به أو التأثير فيه ، من أمثال ابن حجر العسقلانى ، والمقريزى ، والعينى، والبلقينى ، وهم من رجال القرن التاسع الهجرى ، ومن أمثال السخاوى والسيوطى من رجال القرن العاشر وصار الازهر — بعد غارات التتار المدمرة — هو الجامع الوحيد الذى يرتفع فيه صوت العلم والدين ، وذلك لاكثر من سبب ، فالتتار قد خربوا غيره من المساجد والمدارس والمعاهد ، والحضارة العربية قد انقرضت من الاندلس — الفردوس المفقود — والازهر يوجد فى مصر التى تتوسط العالم الاسلامى ، والتى لا تبعد عن الحجاز منزل الوحى، ولها أهميتها الاقتصادية وصبغتها العربية ، وهى مفتاح قارة أفريقية ، وفيها بذور من الثقافة العقلية المصرية القديمة ...

ويبدو أن الازهر خلال هذه القرون كان مجتلى الرأى العام فى الشعب ، ولذلك يروى أن قايتباى — وكان أكثر الناس رعاية للأزهر فى القرن التاسع — كان يتخفى فى زى رجل مغربى ، ويذهب الى الازهر ويسمع ما يقوله الناس فيه ...

كما يبدو أن الناس كانوا ينظرون الى الازهر منذ القديم نظرة خاصة قائمة على الاحساس العميق برسالة الازهر وخطير مكانته ، وقد يدل على ذلك ان الامير بهادر استصدر سنة ٧٨٤ هـ مرسوما من السلطان برقوق ينص على أن من مات من مجاورى الازهر عن غير وارث شرعي ، فان تركته توزع على المجاورين فى الازهر ، وقد نقش هذا المرسوم ، وعلق على الباب البحرى الكبير للأزهر ، ومن الممكن أن يقول القائل المعاصر : ان هذا الاجراء يعد — بلغة العصر — ثورة اشتراكية ، قد يعزز معناها ما عرفه تاريخ الازهر — من قبل ومن بعد — من نظام الاروقة والمساكن والجرايات والهبات التى كانت تخصص لأهل الازهر وطلابه ...

مصر منبع العلوم والفضائل

ولقد ظل الازهر قوى الاثر عميق الخطر فى الحياة الاجتماعية والعقلية حتى الفتح العثمانى لمصر سنة ٩٢٢ هـ ، ثم كان هذا الفتح سببا فى ضعف الحياة العلمية فى مصر بعامة ، وفى الازهر بخاصة ، وعلى الرغم من هذا الضعف ظل الازهر يصارع ويقاوم ، حيث لم يكن هناك معهد علمي سواه ، وتألقت فى سمائه نجوم رجال أعلام من أمثال زكريا الانصارى المتوفى سنة ٩٢٦ هـ . وعبد الوهاب الشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ . واحمد الدردير المتوفى سنة ١٧٠١ هـ .

واذا كان للحكم العثماني فى مصر مساوئه الكثيرة ، فان هذا لم يمنع أن نجد أحد الولاة العثمانيين فى مصر ، يفتح الباب أمام ثورة علمية فى الازهر سنة ١١٦١ هـ ، وذلك الوالى هو « أحمد باشا » المعروف بكوروزير ، وكان كما يذكر المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى من أرباب الفضائل . وله رغبة فى العلوم الرياضية ، وكان

الازهر قد أهمل دراسة العلوم الرياضية ، وكان شيخ الازهر حينئذ هو الشيخ عبد الله الشبراوى ...

فلما وصل ذلك الوالى الى القاهرة واستقر بالقلعة. ذهب اليه وفد من علماء الازهر لتهنئته ، فدار بين الوالى والوفد حوار فى مسائل من العلم ، الى أن دخل بهم فى مسائل العلوم الرياضية ، فأمسكوا عن الكلام فيها قائلين : نحن لا نعرف هذه العلوم ، فعجب الوالى من ذلك أشد العجب . وكان الشيخ الشبراوى بين ذلك الوفد ...

وذات يوم اجتمع الوالى بالشيخ الشبراوى وقال له : المسموع عندنا بالديار الرومية (التركية) ان مصر منبع العلوم والفضائل ، ولقد كنت فى غاية الشوق الى المجىء اليها ...

فقال له الشيخ : هى كما سمعتم معدن العلوم والمعارف ...

فقال الوالى : وأين هى وأنتم أعظم علمائها ، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم ، فلم أجد عندكم منها شيئا ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول (مثل علم المنطق والتوحيد) والوسائل (مثل علم النحو والصرف) ونبذتم المقاصد (يعنى العلوم الرياضية) ؟

فأجاب الشيخ : نحن لسنا أعظم علمائها ، وانما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام ، وغالب أهل الازهر لايشتغلون بشىء من العلوم الرياضية ، الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض والمواريث ، وذلك من فروض الكفاية ، اذا قام به البعض سقط عن الباقين ...

فقال الوالى : وأين أجد هذا البعض ؟ ..

فأجابه الشيخ : هم موجودون فى بيوتهم يسعى اليهم

ثم دله الشيخ على حسن الجبرتى ـ والد الجبرتى المؤرخ ...

فطلبه الوالى وسأله عن تلك العلوم ، فوجده يحسن معرفتها ، فسر به سرورا عظيما ، وصـــار يكثر من الاجتماع به ، ليذاكره فيها ، ويناقشه فى مسائلها ...

ولم يكن الشـــيخ حسن الجبرتى هو الوحيـــد من رجال الازهر الذين استوعبوا العلوم المختلفة ، بل كان هناك مثل الشيخ أحمدالدمنهورىالمولود سنة ١١٠١هـ والمتوفى سنة ١١٩٢ والذى تولى مشيخة الازهر ســنة ١١٨٢ وظل فيها ما يقرب من عشر سنوات ، فقد ذكر فى سند العلوم التى تلقاها ودرسها انه درس كتبا فى علوم الحساب والجبر والمقابلة ووضع المزاول ، وأسباب الامراض وعلاجها ، والحدود والدوائر والفلك ، وعلم الهيئة والهندســـــة والمساحة والتكعيب ، والممالك الطبيعية : الحيوان والنبات والمعادن ، وعلم استنباط المياه ، وعلم التشريح ... الخ ...

شعر يتوقد رقة وعذوبة

ونستطيـــع أن نقول ان الشيخ عبـــد الله الشبراوى المتوفى سنة ١١٧١ هـ والذى تولى مشيخة الازهر عقب وفاة الشيخ الفيومى ، قد أحدث فى البيئة الازهرية ثورة ادبية فنية عاطفية ، بما نظمه من شعر غزلى عذب قد يستبعد كثير من الناس أن ينسبه الى عالم أزهرى ، فضلا عن عالم جليل يتولى مشيخة الازهر فى ذلك المعهد السابق القديم ، وحسبنا أن نذكر هنا ان هذا الشيخ هو صاحب تلك القصيدة المشهورة التى تتوقـــد رقة وعذوبة ، والتى مطلعها :

وحقـــــك انت المنى والطلب
وانت المراد ، و انت الارب

ولى فيك يا هاجرى صبوة
تحير فى وصفها كل صب

فهل من السهل على الناس اليوم أن يصدقوا ان هذا الشعر الغزلى قد صاغه منذ قرابة ثلاثة قرون عالم كبير تولى مشيخة الازهر ما يقرب من عشر سنوات ؟

هزة قوية

وممن قاموا بثورة فكرية فى الازهر الشريف الشيخ حسن العطار الذى ولد بالقاهرة سنة ١١٨٠ هـ ، وتعلم فى الازهر كغيره من الطلاب ، وهام بالسياحة والرحلات شرقا وغربا فى البلاد الاسلامية ، وكان يشاهد ويتابع ويحاور ويجمع المعلومات . وحينما جاء الفرنسيون الى مصر فى حملتهم المشهورة اتصل العطار ببعض أفرادها ، وأخذ يتعلم منهم ، وينقل عنهم ، ويتشبه بهم فى البحث والتنقيب العلمى والادبى والاجتماعى ...

وفى سنة ١٢٤٦ هـ تولى الشيخ العطار مشيخة الازهر ، فانتهزها فرصة ذهبية ، وأخذ يهز الازهر هزا عنيفا قويا ليستيقظ ، وتوفى عليه رحمة الله سنة ١٢٥٠ هـ ...

عاب العطار على الازهريين أنهم يعرضون عن كتب المتقدمين وسعة أفقهم .. ولا يستفيدون بتراث السلف القيم العظيم ، فقال :

« ان من تأمل فى علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية ، لهم اطلاع واسع على غيرها من العلوم والكتب التى الفت فيها ، حتى كتب المخالفين فى العقائد والفروع ، وأعجب من ذلك تجاوزهم الى النظر فى كتب غير أهل الاسلام من التوراة

وغيرها من الـكتب السماوية واليهودية والنصرانية ، ثم هم ـ مع ذلك ـ ما أخلوا فى تثقيف ألسنتهم برقائق الاشعار ولطائف المحاضرات ...

ومن نظر فى ذلك ، وفيما انتهى اليه الحال فى زمن وقعنا فيه ، علم انا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم ، فان قصارى أمرنا النقل عنهم ، بدون أن نخترع شيئا من عندنا ، وقد اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم ، نكررها طول العمر ، ولا تطمح نفوسنا الى النظر فى غيرها ، حتى كأن العلم فيها ...

فاذا ورد علينا سؤال من علم الـكلام لا نجده فيها ، تخلصنا بأن هذا كلام الفلاسفة ، أو مسألة أصولية قلنا : لم نرها فى جمع الجوامع ، فلا أصل لها ، أو نكتة أدبية قلنا : هـــــذا من علوم أهل البطالة ، وهكذا » ...

فصار العذر أقبح من الذنب ، وحالنا الآن كما قال ابن الجوزى فى مجلس وعظه ببغداد :

ما فى الديار أخو وجد نطارحه
حديث نجد ، ولا خل نجاريه

وهذه نفثة مصدور ، فنسأل الله السلامة واللطف.

ويعود الشيخ العطار فى حاشيته على كتاب « جمع الجوامع » فيشيد بأمر الـكتب العلمية المترجمة الى اللغة العربية ويوحى بالعناية بها عند علمــاء الأزهر ، فيقول :

« قد عربت كتب فى زماننا من كتب الفرنجة ، وفيها أعمال كثيرة وأفعال رقيقة ، اطلعنا على بعضها ، وقد استخرجت تلك الاعمال بواسطة الاصــول الهندســية والعلوم الطبيعيـــة ، وفى تلك الـكتب تكلم القوم فى

الصناعات الحربية والآلات النارية ، ومهدوا فيها قواعد وأصولا ، حتى صار ذلك علما مستقلا ذا فروع كثيرة ، ومن شمت به همته الى الاطلاع على غرائب المؤلفات .. ظهرت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم ، وتنزهت فكرته ان كانت سليمة فى رياض الفهوم ، فلا تجعل سعيك لغير الحصول على الكمالات العرفانية مصروفا ، ولا تتخذ غير نفائس الكتب أليفا ألوفا :

ولا تك من قوم يديمون سعيهم
لتحصيل أنواع المأكل والشرب

فهذى اذا عدت طباع بهائم
وشتان ما بين البهيم وذى اللب

وهذه نفثة مصدور أيضا والله عاقبة الامور ..

ولقد تكلم المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى عن شخصية الشيخ العطار فى كتابه « تاريخ الاصلاح فى الازهر » ونقل نصوصا له ونصوصا قيلت عنه ، ونوه بشخصيته ، وتوسع الاستاذ محمد عبد الغنى حسن فى كتابه عن الشيخ العطار ، وذكر انه قد امتاز بقراءته الواسعة العميقة للكتب العربية والمعربة فى زمانه ، ولم يختص بعلم معين ، أو بفن بعينه من الفنون ، ولكنه كان حريصا على الافادة من كل علم ، وانه كان من القلة الازهرية التى أدركت ضرورة العلوم العقلية والطبيعية لنهوض البلاد ، وكان صاحب فضل فى التنبيه الى قيمة العلوم الطبيعية ، والى ضرورة ادخال العلوم العصرية فى الازهر ، والى ضرورة الاخذ بالعلوم الطبيعية والاصول الهندسية ، بجوار الرسوخ فى العلوم الشرعية والاصول الفقهية ، وانه لا شك ان تحرر الشيخ العطار الفكرى ، وبعده عن الجمود ، ودعوته الى الاخذ بالعلوم الحديثة ، مع الاهتمام بالعلوم

القديمة ، قد جذب اليه الطلاب من كل فج ...

ويقول الباحث المفضال : « اذا كان حسن العطار لم يوفق فى اصلاح الازهر وبرامجه وخطط الدراسة فيه كما كان يريد ، فانه قد رزق حظا كبيرا من التوفيق فى الدعوة الى اصلاح التعليم بالبلاد كلها ، فالمدارس العالية الفنية التى أنشئت بمصر فى ذلك العهد — كالهندسة والطب والصيدلة والالسن — هى الاستجابة الحقيقية لدعوة الشيخ حسن العطار وتطلعاته ومناداته بحتمية تغيير الاحوال فى البلاد ، والكتب التى ترجمت بالمئات فى عصر محمد على هى الصدى المحقق لأمنية الشيخ حسن العطار حين رأى كتب الفرنسيين فى الرياضة والعلوم والآداب ..

دافع لعوامل الثورة الفكرية

وتأتى ثورة رفاعة رافع الطهطاوى :

ولد رفاعة فى طهطا سنة ١٢١٦ هـ ، وتعلم بالازهر حتى تخرج فيه ، ثم اختير ليكون إماما لأول بعثة مصرية أرسلت الى فرنسا سنة ١٨٢٥م ، وهناك تعلم الفرنسية وأجادها ، ودرس كثيرا من العلوم ومنها التاريخ والجغرافية . ثم عاد الى مصر سنة ١٨٣١ م ، فكان رئيسا لترجمة الكتب الى العربية ، وألف كتبا فى التربية والأخلاق ، وأنشأ جريدة الوقائع المصرية ، وأسس مدرسة الالسن ، وتوفى سنة ١٨٧٣ م — ١٢٩٠ هـ ...

ولقد كان الطهطاوى تلميذا للثائر الازهرى الشيخ حسن العطار ، وممن لازموه بصفة مستمرة ، وحينما هم رفاعة بالسفر الى فرنسا ذهب الى شيخه ليتلقى نصيحته ، فأوصاه بأن يقوم بتدوين كل ما يراه فى

تلك البلاد العجيبة ، وأن يعنى بدراسة العلوم التى نبغوا فيها ، وكانت سبب قوتهم ونهضتهم ، ليقوم بنقلها الى اللغة العربية فيستفيد أهلها منها ، وينهضوا كما نهض أهل أوربا ...

ومع ان الوظائف التى تولاها الطهطاوى بعد عودته من فرنسا كانت خارج الازهر ، ومع أن صلاته الوظيفية أو الرسمية انقطعت عن الازهر ، لم يترك تحريك عوامل الثورة الفكرية بين أبناء الازهر ، بل أخذ يتلمس الوسائل الى بث أفكاره والاخذ بآرائه فى اصلاح الازهر والنهوض به ، لأنه لم ينس انه أحد بنيه ، ولذلك نراه فى كتابه « مناهج الالباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » يتحدث عن فوائد العلوم الحديثة ، ووجوب اغتراف الازهريين من منابعها ، ويقول عن أبناء الازهر : « ان لهم اليد البيضاء فى اتقان الاحكام الشرعية العملية والاعتقادية ، وما يجب من العلوم الآلية ، كعلوم العربية الاثنى عشر ، وكالمنطق وآداب البحث والمقولات وعلم الاصول المعتبر ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون

غير ان هذا وحده لا يفى للوطن بقضاء الوطر ، والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر ، ومدار سلوك جادة الرشاد والاصابة ، منوط — بعد ولى الامر — بهذه العصابة ، التى ينبغى أن تضيف الى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية ، التى لها مدخل فى تقديم الوطنية ، من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الامة المحمدية فانه بانضمامه الى علوم الشريعة والاحكام ، يكون من الاعمال الباقية ، ويقتدى بهم فى اتباعه الخاص والعام

ثم يستحث الطهطـــــاوى همم نجباء أهل الازهر ليتمسكوا بدراســـة العلوم العصرية ، ويقرر أنهم لو فعلوا ذلك « لفازوا بدرجة الـكمال ، وانتظموا فى سلك الاقدمين من فحول الرجال ، وربما يتعللون بالاحتياج الى مساعدة الحكومة ، والحال أن الحكومة انما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد ، فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر ، فترجع المسألة دورية ، والجواب عنها أن الحكومة قد ساعدت بتسهيل الوسائط والوسائل ، ليغتنم فرصـــة ذلك كل طالب وسائل ، وكل من سار على الدرب وصل ، وانما المكافأة على تمام العمل » ...

حدث خطير فى تاريخ الازهر

وممن يمثلون ثورة فـكرية فى تاريخ الازهر المرحوم الشيخ محمد عياد الطنطاوى الذى ولد سنة ١٨١٠ م وكان أبوه من بلدة «محلة مرحوم» فى محافظة الغربية ، وقد حفظ صـــاحبنا القرآن الـكريم فى « الـكتاب » كما حفظ فيه طائفة من المتون ، وفى الثالثة عشرة من عمره دخل الازهر ، وتعلم فيه على أيدى الشيخ ابراهيم الباجورى ، والشيخ حسن العطار ، والشيخ حســـن السقا ، والشيخ محمد الاشمونى ، واستمر فى الازهر سنوات ، ثم مات والده ، فأخذ الابن يجمع بين الدراسة والتدريس ، ليستعين بذلك على مطالب الحياة ، ثم حصل على اجازة التـــدريس فى ٢٠ من المحرم ســـنة ١٢٤٤ هـ ــ ١٨٢٨ م وقام بالتـــدريس فى الازهر ، حيث درس التفسير والمنطق ، وعنى بالشعر والادب ، وظل يقوم بالتدريس عشر سنوات ، وتعلم فى أثناء ذلك اللغة الفرنسية ، ولم يقتصر على جوه الازهرى ، وبيئته الوطنية ، بل خطا خطوة كان لهـــا أثرها وخطـــرها فى

عهده ، حيث قام بتدريس علوم اللغة العربية فى المدرسة الانجليزية بالقاهرة ، وقام بتعليم الفرنجة فى بلاده لغة العرب ، واتصل بالجالية الاوربية بالقاهرة ، وفيها عددكبير من المهندسين والعسكريين والسياسيين ، فأثر فيهم وتأثر بهم ، وكان أستاذا فى اللغة العربية للمستشرق الفرنسى « فرنيل » وقرأ معه ديوان الشاعر الشنفرى ..

وكان من تلاميذ الشيخ الطنطاوى : الاستاذ يوسف الاسير الذى ترك أثرا فى الادب العربى والمجتمع العربى ، والاستاذ ابراهيم مرزوق الاديب الشاعر الذى ترجم « أمثال لافونتين » ، والشيخ عبد الهادى نجا الابيارى ، والشيخ عبد السلام الحلبى ، وغيرهم من أعلام الادباء والعلماء . ومما يدل على مدى الثورة الفكرية التى اوقدها الشيخ الطنطاوى فى بيئته أن نراه فى سنة ١٨٢٧ م يقول وهو يدرس فى الازهر انه لا يعرف أحدا قبله قرأ فى الازهر ماقرأه من مقامات الحريرى والمعلقات مع شرح الزوزنى ..

وفى سنة ١٨٤٠ دعاه قيصر روسيا ليقوم بتعليم اللغة العربية وآدابها فى القسم التعليمى التابع لوزارة الخارجية بروسيا ، فتعلم الشيخ الطنطاوى اللغة الروسية ، وانتقل إلى هناك ، فكان انتقاله حدثا خطيرا فى تاريخ الازهر ، وفى صلة العرب بالروس ، وكان سفره الى روسيا يوم السبت ٢٤ من المحرم سنة ١٢٥٦ هـ ..

وقد وضع المستشرق الروسى « اغناطيوس كراتشوفسكى » كتابا عن حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، وترجمت هذا الكتاب الى العربية سيدة فلسطينية هى « كلثوم عودة » وراجع الترجمة وعلق

عليها الاستاذان عبد الحميد حسن ومحمد عبد الغنى حسن ، ونشر الترجمة المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦٤ م . ويقول « كراتشوفسكى » فى كتابه هذا : « كان رحيل الطنطاوى الى روسيا حدثا كبيرا ، ليس فى حياته فحسب ، بل وفى الاستشراق الروسى أيضا ، حتى ان الصحافة الواسعة أولته انتباها كبيرا » ..

وهذا هو العالم « سافيليف » الذى صار فيما بعد من علماء الآثار المشهورين وأحد مؤسسى جمعية الآثار فى روسيا ، يكتب رسالة الى أحد أصدقائه فى سنة ١٨٤٠ يصور فيها تأثير الشيخ الطنطاوى فى الجو الروسى وغيره فيقول : « أنت تسألني من هذا الرجل الجميل فى لباس شرقى ، وعمامة بيضاء ، وله لحية سوداء كجناح الغراب ، وعينان تشعان باشعاع غريب ، على وجهه سمة الذكاء ، وقد لفحت الشمس بشرته ، وليست بالطبع شمس بلادنا الشمالية الباردة . لقد رأيته مرتين يسير بخطوات وئيدة على بلاط شارع « نفسكى » فى جهته المضاءة بالشمس ، ولقد لفت هذا الرجل نظرى ، كما لفت انظار زائرى هذا الشارع فى أيام الجو الطيب ...

« هو ضيف جديد من ضفة النيل ، انه الشيخ الفاضل محمد عياد الطنطاوى ، وهذا الاسم معروف لدي كل من يدرس اللغة العربية ، وكل السياح الذين انتفعوا بخدماته ، والمدينون له بنجاح بحوثهم ، يذكرونه بالشكر ، ويكنون له المودة ، مذيعين شهرته فى أوربا »

وفى القاهرة ، وفى الجامع الازهر ، مدرسة من أحسن المدارس ، ان لم نقل أحسنها ، وهناك عند الاعمدة التي يقوم عليها سقف غرفة كبيرة ، يجلس

الاساتذة ، ويجلس تلاميذهم بهيئة نصف حلقة حولهم ، وكنت ترى حول أحد الاساتذة حلقة تتألف من شعوب مختلفة ، وعدد تلاميذها أكثر ممن فى الحلقات الاخرى ، بينهم شباب أوربيون من الذين يريدون دراسة اللغة العربية ، هنا كان كرسى الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، من أشهر العلماء الوطنيين وأكثرهم اطلاعا على الآداب الوطنية والتاريخ ...

وقد أذاع شهرته فى أوربا مستشرقان كانا تلميذيه ، يجلسان عند أعمدة الجامع الازهر ، ثم اشتهرا بمعرفة اللغة العربية واللهجات ، أحدهما فولجنس فرنيل القنصل بمدينة جدة فى جزيرة العرب ، وصاحب الرسائل عن تاريخ العرب قبل الاسلام ، والثانى غوستاف فيل أستاذ هيدلبرج السابق ، ومترجم ألف ليلة وليلة ومؤلف شعر العرب قبل محمد ، والفضل لظهور البحثين عن جزيرة العرب قبل محمد يرجع لمساعدة الشيخ للمؤلف ، اذ انه بغير مساعدته ما كان لبحوثهما أن تظهر كما يشهدان ...

أستاذ الآداب الشرقية فى الجامعة الروسية

ومما يدل على روح الثورة عند الشيخ الطنطاوى انه فى طريقه الى روسيا نزل فى ايطاليا ، ولم يتردد ــ وهو الشيخ المعمم فى ذلك الوقت المبكر الذى تتجلى فيه محافظة الازهر على العرف والتقاليد ــ أن يزور دار الاوبرا مرتين ، حيث شاهد فى المرة الاولى رواية « السلطان محمد » ، وفى المرة الثانية رواية « العاشقين » ، ويذكر الطنطاوى انه لم يكن هناك معمم من المشاهدين سواه ...

وكذلك نزل وهو فى طريقه ــ مدينة « كييف » ،

وحرص على أن يزور دير اللافرا وكنيسة القديسة صوفيا ، وكنيسة القديس اندراوس ، وحضر حفل استعراض الجيش يوم الاحد ، وزار مدرسة البنات ، وسمع العزف على البيانو ، وفعل كل هذا وهو بعمامته وثيابه الازهرية ...

وشغل الشيخ الطنطاوى كرسى الآداب الشرقية فى الجامعة الروسية، وكان يجمع ـ كما يذكر كراتشوفسكى ـ بين الطرق النظرية والطرق العملية ، فمن جهة كان يدرس قواعد اللغة ، ويشرح أمثال لقمان ، ويقرأ قطعا من مؤلفات تاريخية من مجموعة « بولدريف » ومقامات الحريرى ، ومن جهة أخرى كان يدرس الترجمة من اللغة الروسية الى العربية ، والخطوط الشرقية ، وقرأ المخطوطات ، والمحادثة باللغة العربية ، وزاد على ذلك من سنة ١٨٥٥ تدريس تاريخ العرب ، وترى من المختصرات المحفوظة بين أوراقه انه كان يشرح فى محاضراته تاريخ الخلافة حتى عهد فتوحات المغول ..

وحاز الشيخ الطنطاوى ألقابا وأوسمة وميداليات وهدايا من القيصر وولى عهده ، وصادف فى روسيا تقديرا وانتباها ، وان الاعجاب به كان يتملك كل من يلتقى به من الواقفين على حقائق الامور ...

وعلى الرغم من النشاط الموصول الذى كان يبذله الطنطاوى فى التدريس والحوار والرحلة فقد ألف مجموعة قيمة من الكتب . ألف فى النحو والصرف ، والفلك ، والجبر ، والميراث ، والحساب ، والعقائد ، والتاريخ ، والبلاغة ، والشعر ، والعروض ، والتوحيد ، كما نظم الشعر ، وكتب الرسائل وكتب القصص ، ووضع القواميس ...

ولقد استفاد من الشيخ الطنطاوى طائفة كبيرة من

المستشرقين ، أمثال نقولا موخين ، وفرين فرانيل ، وبيرون رفيل، وغيرهم من الفرنسيين والالمان والروس، والذى يزور مقبرة التتر فى قرية «فولكوفا» الروسية يجد فيها قبر الشيخ محمد عياد الطنطاوى المصرى الازهرى الذى كانت حياته صورة من صور الثورات الفكرية الملحوظة فى تاريخ الازهر الطويل ...

الدعوة لفتح باب الاجتهاد

ثم جاءت فى تاريخ الازهر ثورة « جمال الدين الافغانى » موقظ الشرق الاسلامى من سباته ...

لقد ولد جمال الدين الافغانى فى سنة ١٢٥٤ هـ ، ودرس فى أفغانستان ، وحصل جملة من العلوم فيها الطب والتشريح والفنون الحربية ، ثم درس فى الهند حيث حصل فيها العلوم العصرية وتعلم اللغة الانجليزية، مع التركية والفارسية ، وجاء الى مصر سنة ١٢٨٦هـ، وكان فى شرخ شبابه ، فأيقظ سبات الازهر ، ودعا الى فتح باب الاجتهاد فى الدين ، ولقى فى سبيل دعوته أهوالا من الاعداء والاولياء ، وعلى سبيل المثال كان الخديو توفيق يؤيد جمال الدين قبل أن يتولى هذا الخديو حكم مصر ، وكان يقول للأفغانى : « أنت موضع آمالى فى مصر أيها السيد » ولكن الخديو انقلب على جمال الدين بسبب السعايات الاجنبية بينهما ، وكانت النتيجة هى نفى جمال الدين من مصر ، بعد أن بذر فى محيط علماء الازهر بذور ثورة فكرية واجتماعية واسعة النطاق ...

وأصدر جمال الدين مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده مجلة « العروة الوثقى » التى كانت أعظم مجلة اسلامية تهز العالم الاسلامى هزا عنيفا ...

ثم جاء الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فحمل مشعل الاصلاح والثورة الفكرية فى الازهر ، بعد أن ضاق بنظام الازهر منذ شبابه ، وأراد اصلاح الادارة ، واصلاح التدريس ، وتغيير الكتب ، واستطاع أن يحقق الامور التالية :

١ ـ انشاء مجلس ادارة للأزهر سنة ١٣١٢ هـ .
٢ ـ ضبط مرتبات العلماء وطريقة توزيعها .
٣ ـ ربط المعاهد الدينية فى مصر بالجامع الازهر .
٤ ـ اصلاح نظام التدريس .
٥ ـ وضع نظم للامتحانات .
٦ ـ اصدار طائفة من القوانين للاصلاح .

ولقد قال الشيخ محمد عبده : « انى بذرت فى الازهر بذرا اما أن ينبت ويثمر ويؤتى أكله المغذى للروح والعقل ، فيحيا به الازهر حياة جديدة ، واما أن يقضى الله على هذا المكان قضاءه الاخير » . وعاد الاستاذ الامام فقال : « اننى ألقيت فى الازهر مشكاة لا تنطفىء ان لم تلتهب اليوم أو غدا ، فستلتهب فى ثلاثين عاما ، وستكون ضراما » وقد حورب الشيخ محمد عبده فى ثورته الفكرية حربا لا هوادة فيها ، وتفاصيل ثورته كثيرة واسعة تكفلت ببيانها مصادر ومراجع كثيرة. ولقد عنيت بالاشارة الى ذلك فى كتابى « مدرسة الاستاذ الامام » وكتابى « رشيد رضا صاحب المنار » ...

ثم جاءت ثورة فكرية أخرى فى عهد الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وهو من تلاميذ الشيخ محمد عبده ، وقد دعا المراغى الى محاربة الجمود فى الازهر ، والى صلة الازهريين بالمجتمع ، والى التجديد فى التدريس والتأليف ، والى ربط الدين بالحياة ، ووضع فى سنة ١٩٢٨ مذكرته التى توضح ملامح ثورته الفكرية فى

الازهر ، وفيها يقول :

« يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة ، وأن تدرس السنة دراسة جيدة ، وأن يفهما على وفق ما تتطلبه اللغة العربية — فقهها وآدابها — من المعانى، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة ، وأن يبتعد فى تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه ، وعن كل ما لايتفق وقواعد اللغة العربية ...

« يجب أن تهذب العقائد والعبادات ، وتنقى مما جد فيها وابتدع ، وتهذب العادات الاسلامية بحيث تتفق وقواعد الاسلام الصحيحة ...

« يجب أن يدرس الفقه الاسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب ، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الادلة ، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالاحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة والاحكام المجمع عليها ، والنظر فى الاحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والامكنة والعرف وأمزجة الامم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء ...

« يجب أن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها ، وكل المسائل العلمية فى النظام الشمسى والمواليد الثلاثة مما يتوقف عليه فهم القرآن فى أصول الآيات التى أشارت الى ذلك ...

« يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الاسلاف ، وأن يضاف الى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث فى بحث اللغات وآدابها ...

« يجب أن توجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة ، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة — فى عصور الاسلام الزاهرة — والطرق الحديثة المعروفة الآن عند

علماء التربية . وعلى الجملة يجب أن يحافظ على جوهر الدين وكل ما هو قطعي فيه محافظة تامة ، وأن تهذب الاساليب ، ويهذب كل ما حدث بالاجتهاد ، بحيث لا يبقى منه الا ما هو صحيح من جهة الدليل ، وكل ما هو موافق لمصلحة العباد » ...

رصيد الثورات الازهرية

ان فى تاريخ الازهر الطويل العريض عشرات وعشرات من الثورات الفكرية وقد ذكرت طائفة منها ، دون أن أدخل فى التفاصيل أو اصدار الاحكام على هذه الثورات فقد تكون هنا بعض الملاحظ ، وقد تكون هناك بعض المآخذ ، وقد تكون هنالك بعض العيوب ، وتبيان ذلك على وجهه الكامل الشامل جهد واسع تضيق به ظروف الزمان ، والمكان ، ومن حق كل ثورة من هذه الثورات أن تنال حقها المستقل من التحليل والتمحيص، ولعل ذلك يتيسر لهذا القلم أو ذاك ، وعلى الله قصد السبيل ...

أعظم الشيوخ في تاريخ الأزهر ومؤلفاتهم

ان تاريخ الازهر طويل عريض ، يستطيع الباحث فيه ان يصول ويجول ، ليستعرض أكثر من ناحية او أكثر من اتجاه ، فهناك النواحى الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية والادبية وغيرها ، وان ألف عام تمر على الازهر — وهو قائم ثابت — لدليل أى دليل على ان الله تبارك وتعالى قد أعطى هذا المعهد الاسلامى الاكبر من عوامل البقاء والخلود شيئا كثيرا ، على الرغم مما عرض له أو حاق به ...

وانى الآن بسبيل ان اتحدث حديث الايجاز عن بعض الشيوخ اللامعين فى تاريخ الازهر وعن كتبهم ومؤلفاتهم التى تصور عقليانهم وجهودهم الثقافية والفكرية ، حتى يكون ذلك الحديث لونا من ألوان التعريف بالتراث الفكرى الضخم الذى يرتبط بتاريخ هذه الجامعة الاسلامية العربية التليدة ...

هذا الحديث لا يستوعب ولا يستقصى ، بل يقوم بمسيرة عاجلة خلال قرون الازهر العشرة ، فيختار منها طائفة من الشيوخ ، منذ فتح الازهر أبوابه ، حتى آخر القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، وأما القرن العشرون فقد حفل بعشرات وعشرات من الازهريين الذين غزر انتاجهم ، وكثرت مؤلفاتهم ، وهؤلاء جديرون بأن يستقلوا بحديث ...

(*) الاستاذ الدكتور احمد الشرباصى

وصاحب هذا البحث لا يستطيع أن يزعم لنفسه ــ فضلا عن أن يزعم لغيره ــ انه قد أحصى مؤلفات كل شيخ من هؤلاء الاعــلام ، وانما الذى كان انه بحث وفتش ، مستعينا بكتب الســابقين وكتب اللاحقين ، وانتخل من هــذا العباب خلاصة تصلح أن تكون علامة بارزة على طريق التعرف المفصل الى تراث الازهر فى مجال التأليف والانتاج الفكرى ...

واذا كان ابن تغرى بردى قد عرفنا فى كتابه «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » بطائفة من أعلام الازهر الذين تألقوا منذ قرون ، فان عبد الرحمن الجبرتى قد عرفنا فى تاريخه بطائفة أخرى منذ قرابة قرنين ، وجاء باحثون معاصرون فعرفوا بطوائف من أعلام الازهر فى القديم والحديث ، فكتب الاستاذ محمد عبد الله عنان كتابه « تاريخ الجامع الازهر » ، وظهر للدكتور عبــد الحميد يونس كتابه « الجامع الازهر » . وظهر للدكتور كامل الفقى كتاابه « الازهر وأثره فى النهضــة الادبيــة الحديثة » . وظهر للدكتور محمد عبد المنعم خفــاجى كتابه « الازهر فى ألف عام » وظهر من وزارة الاوقاف كتاب « الازهر : تاريخه وتطوره » . وظهر للشيخ عبد المتعال الصعيدى كتابه « تاريخ الاصلاح فى الازهر » . وظهر للدكتور أحمد الشرباصى ــ صاحب هذا البحث ــ كتابه « فى عالم المكفوفين » ومنهم طــائفة كبيرة من هؤلاء الاعلام الازهريين ، وظهر كتاب « الاعلام » للاستاذ خير الدين الزركلى ، وهو يضم فى تراجمه أخبارا عن كثير من هؤلاء الاعلام .. الخ ...

وهذه المجموعة من مشهورى الشيوخ اما أن يكونوا قد تعلموا فى الازهر ، أو قاموا بالتدريس فى الازهر ، أو كان للأزهر تأثير فيهم بطريق مباشر أو غير مباشر ،

أو كان لهم تأثير فى مسيرة الازهر الفكرية بطريق مباشر أو غير مباشر ...

ولن يعنينا كثيرا فى هذا المجال أن نطيل عنان الحديث عن تراجم هؤلاء وأحداث حياتهم ، فهى معروفة يسهل على اليد أن تتناول تفاصيلها من المراجع التى ذكرتها أو من سواها ، وانما يعنينا أن نذكر لكل واحد منهم ما نعرفه من مؤلفاته ، ليكون ذلك رصدا تاريخيا للاتجاهات التي سيطرت على هؤلاء فى مجال العلم والفكر والثقافة ...

وينبغى أن نلاحظ هنا جملة ملاحظات :

فلنلاحظ أولا ان بعض هذه المؤلفات قد طبع ، ولكن نسخه نادرة أو قليلة ، وان بعضها مفقود أو مجهول المصير ، وان الكثير منها ما زال مخطوطا ينتظر اليد الامينة النشيطة لاخراجه من الظلمات الى النور ، وانه أكثرها لم يطلع عليه أبناء الجيل الحاضر ، حتى من الازهريين المعاصرين ...

ولنلاحظ ثانيا ان الكثير من هذه المؤلفات تدور حول موضوعات دينية أو لغوية ، وبعضها يدور حول موضوعات يظن الكثيرون من الناس أن لا علاقة لها بالازهر ، كموضوعات الطب والهندسة والفلك والحساب والجبر ...

ولنلاحظ ثالثا ان كثيرا من هذه الكتب كانت كتبا مقررة للتدريس فى الازهر ، أو شرحا لهذه الكتب المقررة ، وذلك أمر طبيعى ما دمنا نتذكر أن العلوم التى كانت تدرس فى الماضى بالازهر كانت كثيرة متنوعة ..

ولنلاحظ رابعا أن مجموعة هذه المؤلفات تسير فى الغالب على طريقة أزهرية خاصة معروفة بين أبناء الازهر ، أو كانت معروفة بينهم الى عهد قريب ، اذا

حرصنا على الدقة فى التعبير ، وهى طريقة « المتن ، فالشرح ، فالحاشية ، فالتعليق ، فالتقرير .... » الخ ، وفى سنة ١٩٦٦ شرحت فى كتابى « رسالة المسجد فى نشر الثقافة والحضارة » هذه الطريقة ...

ولنلاحظ خامسا شيوع السجع فى عناوين هـذه المؤلفات ، ولم يقل السجع فى عناوين الكتب الا أخيرا ، وسنجد بين مئات المؤلفات أمثال هذه العناوين : « دعائم الاسلام فى الحلال والحرام ـ البرهان فى تفسير القرآن ـ المختار فى ذكر الخطط والآثار ـ منهج السلوك الى نصيحة الملوك ـ دقائق الاخبار وحدائق الاعتبار ـ الايضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير ـ البحر المورود فى المواثيق والعهود » ... الخ .

ولنلاحظ سادسا ان هؤلاء الاعلام من أصحاب المؤلفات لم يكونوا من مصر وحدها ، بل من اقطار كثيرة ، قد تكون من العالم العربى ، وقد تكون من العالم الاسلامى ، وهذا أمر طبيعى ، لأن الازهر ليس جامعة مصرية ، وليس جامعة عربية ، وانما هو جامعة اسلامية لكل المسلمين فى سائر أنحاء العالم الاسلامى .

اتجاهات علمية واسعة

وأول شخصية تبدو أمامنا من مشهورى الازهريين أصحاب المؤلفات والكتب هو أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله بن محمد القيروانى ، قاضى المعز لدين الله الفاطمى ، وقد كان القيروانى من أعلام الدعاة الى المذهب الفاطمى الشيعى ، وقد توفى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، وكان كتابه « الاقتصار فى فقه آل البيت » هو أول كتاب درس فى الازهر ، والى جوار هذا الكتاب توجد للقيروانى كتب أخرى ، منها :

١ ــ مختصر الآثار فيما روى الائمة الاطهار .
٢ ــ الدعائم ، فى المذهب الاسماعيلى .
٣ ــ دعائم الاسلام فى الحلال والحرام .
٤ ــ الينبوع .
٥ ــ المجالس والمسايرات .
٦ ــ اختلاف أصول المذاهب .
٧ ــ الاخبار .

والصبغة الغالبة على هذه المؤلفات انها كتب فقهية واعتقادية ، وانها تصور نتاج عالم شيعى اسماعيلى ، يحاول بالكلمة المكتوبة ، كما حاول بالكلمة المنطوقة أن يدعو الى مذهب الفاطميين الذى شاع فى مصر خلال ذلك العهد .

ويأتى بعد ذلك أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن ابراهيم بن هارون بن كلس ، الذى ولد فى بغداد ، ورحل الى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، وكان يهوديا فأسلم فى شعبان سنة ٣٥٦ هـ ، ثم رحل الى المغرب ، وهناك تعرف الى المعز لدين الله الفاطمى ، وحظى عنده ، حتى صار رائدا لجيش المعز فى حملته على مصر ، وحضر يعقوب مع المعز الى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، وقام بالتدريس فى الازهر ، وكان بارع الحديث والمحاضرة ، وكان ثريا معطاء ، وتولى الوزارة للمعز ، ولقبه المعز بلقب الوزير الاجل ، وتوفى فى ذى الحجة سنة ٣٨٠هـ.

وله طائفة من الكتب والمؤلفات ، منها :

١ ــ الرسالة الوزيرية فى الفقه الشيعى .
٢ ــ كتاب فى القراءات .
٣ ــ كتاب فى آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
٤ ــ كتاب فى علم الابدان والصحة .

ونلاحظ أن الدعوة الى المذهب الشيعى ظاهرة فى

عنوان الكتاب الاول ، وان الناحية الدينية تستحوذ على معظم المؤلفات ، ولكن اضيف اليها التأليف فى العلوم الطبية ، وقد يدلنا هذا على ان الازهر لم يقتصر رجاله على البحث فى العلوم الشرعية ، بل طرقوا ابوابا غيرها من العلوم والمعارف .

وممن تألقت أسماؤهم فى تاريخ الازهر من ناحية العلم والتأليف فيه : أبو الحسن على بن ابراهيم بن سعيد الحوفى ، الذى كان اماما علامة فى النحو وعلوم العربية ، وقد توفى سنة ٤٣٠ هـ . ومن مؤلفاته :

١ ـ البرهان فى تفسير القرآن .
٢ ـ الموضح فى النحو .
٣ ـ اعراب القرآن .
٤ ـ مختصر كتاب العين للخليل (فى اللغة) .

واذا كان بعض هذه الكتب يشير الى العناية بأمر تفسير القرآن الكريم ، لأن فهم كتاب الله تبارك وتعالى يأتى فى الصدر بالنسبة الى علماء الاسلام ، فان بقية الكتب تشير الى العناية بالنحو واللغة ، وللأزهر الشريف منذ أقدم العهود شهرة عالمية بالعكوف على قواعد النحو والصرف ، والعناية بمفردات اللغة وتراكيبها ، ولعل هذه الكتب التى ألفها الحوفى تشير ايضا الى اتساع الاتجاه العلمى داخل الازهر ، فبعد أن كنا نرى الدعوة المذهبية الشيعية غالبة عليه ، أخذنا نرى من رجاله عناية بعلوم القرآن وعلوم العربية

ويأتى الفقيه المفسر المحدث المؤرخ : أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى المولود بمصر ، والذى تولى القضاء فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وأرسله الخليفة الى قيصرة قسطنطينية (تيودورا) سنة ٤٤٧ هـ لمحاولة الصلح بينها وبين

مصر ، والذى تأثر بالازهر واثر فيه ، وتوفى بمصر سنة ٤٥٤ هـ . وكانت له مجموعة مؤلفات ضخمة منها :

١ ـ تفسير القرآن (عشرون مجلدا)
٢ ـ تواريخ الخلفاء .
٣ ـ خطط مصر .
٤ ـ درة الواعظين ، وذخر العابدين .
٥ ـ نزهة الالباب .
٦ ـ دقائق الاخبار وحدائق الاعتبار .
٧ ـ دستور معالم الحكم .
٨ ـ ألف ومائتا كلمة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .
٩ ـ الشهاب فى المواعظ والآداب .
١٠ ـ مسند الصحاب .
١١ ـ انباء الانبياء .
١٢ ـ مناقب الامام الشافعى .
١٣ ـ عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف .
١٤ ـ المختار فى ذكر الخطط والآثار .

ونلاحظ ان الصبغة الغالبة على هـذه المؤلفات هى الميل الى التاريخ والوعظ ، ولـكن لا يفوتنـا التنويه بأحد هذه الـكتب وهو « دستور معالم الحكم » فعنوانه قد يفهمنا ان من علمـاء الازهر من اخـذ يكتب عن السياسة الشرعية وعن الامور التى تتصـل بالحكم والمجتمع ، وهذا اسهام شخصى من القضاعى وأمثـاله فى توسيع دائرة الدراسات التى شهدها الأزهر الشريف خلال تاريخه الطويل .

ويأتى اللغوى النحوى ابو الحسن طاهر بن احمـد المصرى ، المعروف بابن باب شاذ ، الذى كان أمام عصره فى النحو واللغة ، وتأثر بالازهر واثر فيه ، وكان تاجرا

فى الجواهر ، وتولى اصلاح ما يصــدر من كتابات عن « ديوان الانشاء » فى مصر ، وتزهد فى آخر حياته ، وتوفى سنة ٤٦٥ هـ ، وقد ألف عدة كتب منها :

١ ـ المقدمة فى النحو ، وتســمى : المقدمة المحسنية فى فن العربية .

٢ ـ شرح الجمل للزجاجى .

٣ ـ شرح الاصول لابن السراج .

٤ ـ شرح النخبة .

٥ ـ التعليق فى النحو (خمسة عشر مجلدا) .

٦ ـ المحتسب فى النحو .

ومن الجلى أن المجرى الرئيسى لكتب ابن باب شاذ هو مجرى الدراسات النحوية ، وكأن هــــذه المؤلفات امتداد للاتجاه الذى سار فيه الحوفى وأمثاله ، كما أن هذه المؤلفــات تمثل ما نســتطيع أن نسميه بالـكتب الدراسية فى الأزهر حينئذ .

ويأتى أبو نصر المؤيد فى الدين : هبــة الله بن موسى ابن داود الشــيرازى ، الذى لقبوه بداعى الدعاة وباب الابواب ، وأصله من شيراز ، ورحل الى الاهواز ، ثم رحل الى مصر ، ودعا الى مذهب الفــاطميين ، وكان يلقى دروسه فى الأزهر ، وكان شاعرا مناظرا ، ناظــر أبا العلاء المعرى بالمراسلة فى موضوع « أكل النبات » ، وتوفى بمصر سنة ٤٧٠ هـ وعمره ثمانون عاما ، وترك من ورائه مجموعة كتب ومؤلفات نذكر منها :

١ ـ المجالس المؤيدية .

٢ ـ السيرة المؤيدية .

٣ ـ ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة .

٤ ـ أساس التأويل (بالفارسية) .

٥ ـ مراسلات مع أبى العلاء المعرى .

٦ ـ تأويل الارواح .
٧ ـ المرشد الى أدب الاسماعيلية .
٨ ـ كتاب الابتداء والانتهاء .
٩ ـ كتاب المسألة والجواب .
١٠ ـ المسائل السبعون .
١١ ـ نهج الهداية للمهتدين .
١٢ ـ نهج العباد وشرح المعاد .
١٣ ـ الايضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير .

ونشاهد أن الميل الى الدراسات المذهبية الشيعية يبدو جليا فى هذه القائمة من المؤلفات فى الوقت الذى كان أبناء الاسلام يأملون فيه أن ينفسح رحاب الازهر المعمور لدراسات فقهية واسلامية أوسع وأشمل، حتى لايقتصر البحث على مذهب بعينه ، أو اتجاه بذاته .

ولكننا لا يطول بنا الانتظار فى تاريخ الازهر الشريف حتى يأخذ أبصارنا ضوء علم من الاعلام ، تأثر بالازهر وأثر فيه ، وهو الشيخ العلامة الامام شيخ الاسلام : عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب السلمى الدمشقى الشافعى ، المشهور باسم « العز بن عبد السلام » أو « عز الدين بن عبد السلام » والملقب بلقب « سلطان العلماء » . وقد ولد بدمشق سنة ٥٨٧ هـ ، وتألق فى العلم والفقه ، فأفتى وألف وصنف ، وبلغ مرتبة الاجتهاد ، وقصده الطلاب وتخرج على يديه أئمة ، وتولى قضاء مصر القديمة مدة من الزمن ، وقام بالتدريس فى عدة بلاد ، وتوفى بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ . وقد خلف لنا العز بن عبد السلام مؤلفات كثيرة منها :

١ ـ الالمام فى أدلة الاحكام .
٢ ـ التفسير الكبير .

٣ ــ الالمام فى ادلة الاحكام .
٤ ــ قواعد الشريعة .
٥ ــ ترغيب أهل الاسلام فى سكنى الشام .
٦ ــ بداية السول فى تفضيل الرسول .
٧ ــ الفرق بين الايمان والاسلام .
٨ ــ قواعد الاحكام فى اصلاح الانام .
٩ ــ رسالة فى التصوف .
١٠ ــ الاشارة الى الايجاز فى بعض انواع المجاز .
١١ ــ الغاية فى اختصار النهاية .
١٢ ــ الفوائد فى مشكل القرآن .
١٣ ــ حل الرموز (تصوف) .
١٤ ــ مسائل الطريقة (تصوف) .
١٥ ــ شجرة المعارف والاحوال ، وصالح الاعمال والاقوال .
١٦ ــ مقاصد الصلاة .
١٧ ــ مناسك الحج .

ونلاحظ فى كتب العز بن عبد السلام تنوعا وتناولا لموضوعات ومواد مختلفة ، فهو قد كتب فى التفسير والاصول والفقه والتاريخ والاجتماع والتصوف ، وقد كانت للدراسات الصوفية بين علماء الأزهر منزلة ملحوظة ، واذا كان العز قد أسهم فى ذلك بنصيب ، فان غيره قد توسع فى هذا الجانب الروحى من الدراسات الاسلامية ، كما سنرى فى موطن آخر ، وهذا التنوع الواضح فى كتب العز بن عبد السلام ينهض دليلا آخر على ان رحاب الأزهر اتسعت لمختلف العلوم والفنون .

ثم نمضى مع الزمن سراعا حتى نلمح من بين أعلام الأزهر شخص أبي يحيى زكريا بن محمد بن محمود الانصارى ، الحافظ شيخ الاسلام ، والذى كان يراجع

السلطان وينصحه ، وقد ولد سـنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ، وتعلم فى الازهر ، ودرس فيـه كثيرا من العلوم الدينيـة كالهندسـة والميقات والجبر ، وتولى منصب قاضى القضاة ، وتوفى سنة ٩٢٦ هـ ، وتروى سيرته انه صنف فى كثير من العلوم كالفقه والتفسـير والحديث واللغة والتصريف والبـلاغة والمنطق والطب والجبر والمقابلة والهندسة والهيئة وغيرها . ومن كتبه :

١ ــ فتح الرحمن فى تفسير القرآن .
٢ ــ تحفة البارى على صحيح البخارى .
٣ ــ شرح الفية العراقى فى مصطلح الحديث .
٤ ــ فتح الوهاب فى شرح الآداب .
٥ ــ غاية الوصول فى الاصول .
٦ ــ شرح ايساغوص فى المنطق .
٧ ــ منهج الطلاب فى الفقه .
٨ ــ تحفة نجباء العصر فى التجويد .
٩ ــ شرح شذور الذهب فى النحو .
١٠ ــ اللؤلؤ النظيم فى روح التعلم والتعليم .

ولم أرد أن أذكر هنا اسم جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر السيوطى المولود سـنة ٨٤٩ هـ والمتوفى سنة ٩١١ هـ والذى كان اماما مفسرا حافظـا مؤرخا اديبا ، لأن مؤلفاته أعظم من أن نشـير اليهـا بكلمات عاجلة وسط هذه المسيرة ، فقد ألف السيوطى مايقرب من ستمائة مؤلف فى التفسير والحديث والفتـاوى والتاريخ واللغة والادب والمقامات والنحـو والتراجم وغيرها ، وهـذا القدر الضخم من المؤلفات يحتاج الى دراسة واسعة لا الى اشارة عابرة .

وجاء الصوفى الـكبير عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعرانى المصرى ، الذى ولد فى بلدة « قلقشـندة »

بمصر سنة ٨٩٨ هـ ونشأ فى قرية «ساقية أبى شعرة» بالمنوفية واليها ينسب ، ودخل الازهر وقضى فيه سنواته ، وتعلم على يد شيخه «على الشونى» وغيره ، واتصل بالاعلام من شيوخ الازهر ، من أمثال السيوطى والانصارى واللقانى والرملى والسمنودى ، ويصور الشعرانى بعبارته جانبا من العلوم والكتب التى درسها بعد أن ترك قريته وتوجه الى القاهرة ليدرس فى الازهر ، فيقول : « ثم لما جئت الى مصر حفظت كتاب المنهاج للنووى ، ثم ألفية ابن مالك ، ثم التوضيح لابن هشام ، ثم جمع الجوامع ، ثم الفية العراقى ، ثم تلخيص المفتاح ، ثم الشاطبية ، ثم قواعد ابن هشام ، وغير ذلك من المختصرات ، وحفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابهاتها كالقرآن من جودة الحفظ .

ثم ارتفعت الهمة الى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة ، لكونه أجمع كتاب فى مذهب الشافعى ، فحفظت منه الى باب القضاء على الغائب ، وهو فى أواخر الكتاب ، فلقينى بعض أرباب الاحوال بباب الخرق (باب الخلق) خارج باب زويلة فقال لى مكاشفا : قف على باب القضاء على الغائب ، ولا تقض على غائب بشىء .

فما قدرت بعد ذلك على حفظ شىء منه ، لكننى طالعت الكتاب ودرسته نحو مائة مرة ، وكنت اقرأ محفوظى للمتن فى الشرح ، وأنظر كل شىء توقفت فى فهمه ، حتى صار شرحه للشيخ زكريا (الانصارى) عندى نصب عينى .

ثم لقينى الشيخ أحمد البهلول رضى الله عنه ، فقال لى مكاشفا : أقبل على الاشتغال بالله ، ويكفيك من العلم ما قد تعلمته ، فشاورت فى ذلك مشايخى ،

فقالوا : لا تدخل طريق القوم الا بعد شرح محفوظاتك كلها على الاشياخ ، فاذا فهمتها وتبحرت فيها فعليك بطريق القوم » .

وانما سقت هذا النص من كلام الشعرانى لأبين أن هذا التوجيه كان له أثر كبير فى مؤلفات الشعرانى الذى توفى سنة ٩٧٣ بالقاهرة ، فقد استجاب الشعرانى لتوجيه أساتذته ، وقرأ محفوظاته على خمسين شيخا وسمع شرحها ، ثم انصرف بجل عنايته الى الدراسات الصوفية والتأليف فيها ، وترك من ورائه ما يقرب من ستين كتابا ، أغلبها فى التصوف والحكم والتوجيه الروحى ، ومنها :

١ ــ لطائف المنن .
٢ ــ مختصر تذكرة القرطبى .
٣ ــ مشارق الانوار .
٤ ــ اليواقيت والجواهر .
٥ ــ مدارك السالكين .
٦ ــ منح المنة فى التلبس بالسنة .
٧ ــ بهجة النفوس .
٨ ــ تنبيه المفترين .
٩ ــ الاجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء الصوفية .
١٠ ــ البحر المورود فى المواثيق والعهود .
١١ ــ الانوار القدسية ... الخ .

وقد كانت هذه الكتب سببا فى صراع عنيف وقع بين الشعرانى وطائفة من علماء الازهر حول آرائه الصوفية ، وحديثه عن الشريعة والحقيقة ، وهذا الصراع يصلح أن يكون موضوعا لمقال مستقل عن « الشعرانى والازهر » ، ولكنا نلاحظ أن موضوع التصوف أخذ يشغل علماء الازهر فى هذه المدة ، تأييدا

او تفنيدا ، فكان هناك مثلا من أيد الشعرانى ودافع عنه ، وكان هناك من عارضه وهاجمه ، بل وافترى عليه ...

ثم جاء أول رجل تولى مشيخة الازهر ، بعد انشاء هذا المنصب ، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخراشي المالكي ، الذى ينسب الى قرية « أبو خراش » فى البحيرة ، وقد ولد بالقاهرة سنة ١٠١٠ هـ وأخذ العلوم عن طائفة من شيوخ الازهر ، وكان فقيها فاضلا ورعا ، وقد توفى بالقاهرة سنة ١١٠١ هـ ، ومن كتبه :

١ ــ الفرائد السنية فى شرح المقدمة السنوسية .
٢ ــ الشرح الكبير على متن خليل فى الفقه المالكى .
٣ ــ جزء فى الكلام على البسملة .
٤ ــ الشرح الصغير على متن خليل .

ونلاحظ أن مؤلفاته يغلب عليها الاتجاه الى الفقه المالكى ، لانه كان مالكيا ، ونستطيع أن نقول أن هذه المؤلفات كانت ــ فى الغالب ــ لا تتخطى نطاق الكتب الازهرية الدينية التى يدرسها العلماء لطلابهم فى الجامع الازهر ...

ثم جاء العالم الشاعر الشيخ عبد الله بن محمد بن عامر الشبراوى الذى تولى مشيخة الازهر ايضا ، وولد سنة ١٠٩١ هـ وتعلم فى الازهر ، وبرز وتألق فى العلم والشعر ، وكان صاحب جاه ومنزلة ، ومن كتبه :

١ ــ منائح الالطاف فى مدائح الاشراف .
٢ ــ عنوان البيان .
٣ ــ شرح الصدر فى غزوة بدر .
٤ ــ ديوان شعر الشبراوى .

والظاهرة اللافتة للنظر هنا هى غلبة الشعر على أحد

اقطاب الازهر ، بل وأحد الاعلام الذين تولوا مشيخة الازهر ، مع ان الذي كان شائعا فى الازهر الى عهد قريب ، أن الازهرى الذى يشتغل بالادب أو الشعر لا يفلح فى تكوين نفسه علميا وفكريا ، ولكن يظهر أن الشيخ الشبراوى قد هدم هذا الزعم منذ أكثر من ثلاثة قرون ، ثم انتقل الازهر ـ وخاصة فى عهده الحديث ـ الى عناية واسعة بالادب والشعر ، وتألق فى سمائه عشرات وعشرات من الادباء والشعراء يحتاج الحديث عنهم الى مئات من الصفحات ...

وفى السنة التى لحق فيها الشعرانى بربه تبارك وتعالى ، وهى سنه ١١٠١ هـ ، ولد الشيخ شمس الدين محمد بن سالم بن أحمد الحفنى ـ أو الحفناوى ـ الشافعى ، وقد ولد فى بلدة « حفنة » بالشرقية ، وتعلم فى الازهر الشريف ، وصار فقيها فى مذهب الشافعية ، وبرع فى علم العروض ، وقال الشعر أيضا على قلة ، وهو صاحب الزجل الشعبى :

« أحدتك حدوتة ، بالزيت ملتوتة حلفت ما اكلها ، حتى يجى تاجرها » ... الخ .

وقد تولى الشيخ الحفنى مشيخة الازهر كذلك ، وخلف لنا كتبا كثيرة منها :

١ ــ حاشية على شرح الاشمونى فى النحو .
٢ ــ أنفس نفائس الدرر .
٣ ــ فوائد عوائد جبرية .
٤ ــ رسالة فى التقليد (فى الحساب) .
٥ ــ حاشية على شرح السمرقندى للياسمينية فى الجبر والمقابلة .
٦ ــ حاشية على شرح العزيزى للجامع الصغير .
٧ ــ حاشية على الشنشورى فى الفرائض والمواريث .

٨ ـ الثمرة البهية فى أسماء الصحابة البدرية .
٩ ـ حاشية على شرح العضد للسعد (فى البلاغة) .
١٠ ـ حاشية على مختصر السعد فى البلاغة .

ونلاحظ هنا أن عالما تولى مشيخة الازهر ، وكان له باعه فى الدراســـات الازهرية ، ومع ذلك كان يقول الشعر ، وكان يؤلف فى الجبر والحساب ، وكان يقول الزجل العامى كما رأينا ...

ثم نجد الشيخ أحمــد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهورى ، المولود فى دمنهور سنة ١١٠١ هـ ، والذى تلقى العلوم العقلية والطبية فى الازهر ، وتولى مشيخة الازهر ، وكان مهيبا عند الامراء ، قوالا لـكلمة الحق ، آمرا بالمعروف ، وكان يعرف باسم «المذاهبى» لعلمه بالمذاهب الفقهية الاربعة ، وله تآليف كثيرة ، وقد توفى سنة ١١٩٢ هـ . ومن كتبه ما يلى :

١ ـ الفيض العميم فى معنى القرآن العظيم .
٢ ـ ايضاح المبهم من معانى السلم .
٣ ـ سبيل الرشاد الى نفع العباد .
٤ ـ حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون .
٥ ـ منتهى الارادات فى تحقيق الاستعارات .
٦ ـ القول الصريح فى علم التشريح .
٧ ـ الزهر الباسم فى علم الطلاسم .
٨ ـ طريق الاهتداء بأحكام الامة والابتداء .
٩ ـ الفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى .
١٠ ـ نهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف .
١١ ـ منهج السلوك الى نصيحة الملوك .
١٢ ـ احياء الفؤاد بمعرفة ظواهر الاعداد .
١٣ ـ عين الحياة فى استنباط المياه .
١٤ ـ الرقائق الالمفية على الرسالة الوضعية .

ونلاحظ فى مؤلفات الدمنهورى هذا التوسع الفسيح فى مختلف العلوم والفنون ، فهو لايقتصر علي الموضوعات الدينيـــة واللغوية فحسب ، بل يكتب فى التشريح والحساب واستنباط المياه وشئون المجتمع وسياسة الحكم ... الخ .

ويأتى الشيخ احمد بن أحمد بن محمد السجاعى البدراوى الازهرى المتوفى سنة ١١٩٧ هـ . وهو من قرية (السجاعة) بالغربية ، وهو فقيه شافعي المذهب، درس وأفتى وألف ... ومن كتبه :

١ ــ الدرر فى اعراب السور .
٢ ــ حاشية على شرح الفطر لابن هشام .
٣ ــ شرح معلقة امرىء القيس .
٤ ــ شرح لامية السموءل .
٥ ــ حاشية على شرح ابن عقيل للألفية .
٦ ــ منظومة فى الاستعارات .

ثم جاء الشيخ أبو البركات أحمد بن محمد بن أحمد العدوى المشهور بالشيخ الدردير ، الذى ولد فى بنى عدى بمحافظة أسيوط سنة ١١٢٧ هـ ، ورحل الى الازهر فتعلم فيه ، وبخاصة عن الشيخين على الصعيدى والحفنى ، وتألق نجمه ، وتصوف وأفتى ، وكان مثلا فى التعفف ، وتولى مشيخة المالكية ونظارة وقف الصعايدة ، ومشيخة رواقهم ، وكان لا يهاب سطوة المماليك ، بل يقف بجوار الشعب يقاوم مظالم الحاكمين الذين كانوا يهابونه ويعرفون مكانته الشعبية . وقد توفى الشيخ الدردير بالقاهرة سنة ١٢٠١ هـ ، ومن مؤلفاته ما يلى :

١ ــ أقرب المسالك لمذهب مالك .
٢ ــ تحفة الاخوان فى آداب أهل العرفان .

٣ ـ رسالة فى المعانى والبيان .
٤ ـ رسالة فى طريقة حفص فى القراءات .
٥ ـ رسالة فى متشابهات القرآن .

وللشيخ الدردير أشعار كثيرة أغلبها فى التصوف وعلم التوحيد ، مثل قصيدته « الخريدة السنية » وقصيدته « الخريدة البهية » .

ومن الاعلام المشهورين فى تاريخ الازهر الشيخ عبد الله بن حجازى بن ابراهيم الشرقاوى ، المولود فى بلدة « الطويلة » بالشرقية سنة ١١٥٠ هـ ، وتعلم فى الازهر ، وتولى مشيخة الازهر سنة ١٢٠٨ هـ ، وفى عهده أنشىء رواق « الشراقوة » . وكان الشيخ الشرقاوى عالما جليلا ، وزعيما سياسيا ، ومجاهدا مضحيا ، وله مواقفه المشرفة فى الدفاع عن حرية الشعب وكرامة الوطن ، وقد توفى فى القاهرة سنة ١٢٢٧ هـ . ومن مؤلفاته هذه الكتب :

١ ـ مختصر مغنى اللبيب فى النحو .
٢ ـ التحفة البهية فى طبقات الشافعية ، من سنة ٩٠٠ الى سنة ١١٢١ ـ ٣ ـ تاريخ مصر .
٤ ـ متن العقائد المشرقية وشرحها .
٥ ـ تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من السلاطين .
٦ ـ حاشية على شرح التحرير .
٧ ـ شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى .
٨ ـ شرح الوصايا الكردية .
٩ ـ فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى .
١٠ ـ مختصر الشمائل مع شرحه .

ومن المشهورين فى تاريخ الازهر ، الشيخ أبو العرفان محمد بن على الصبان الشافعى النحوى ، الذى تعلم فى الازهر ، وبرع فى النحو ، وتوفى فى القاهرة سنة ١٢٠٦ هـ . ومن كتبه :

١ ـ الكافية الشافعية فى علمى العروض والقافية.
٢ ـ اتحاف أهل الاسلام بما يتعلق بالمصطفى وأهله الكرام ـ ٣ ـ أرجوزة فى الفروض وشرحها .
٤ ـ حاشية على شرح الاشمونى للألفية .
٥ ـ الرسالة الكبرى فى البسملة .
٦ ـ اسعاف الراغبين .
٧ ـ حاشية على شرح الملوى للسلم .
٨ ـ تقرير على مقدمة جمع الجوامع .
٩ ـ حاشية على شرح الرسالة العضدية .
١٠ ـ علم الهيئة ـ ١١ ـ رسالة فى الاستعارات .

ثم جاء الازهرى الواسع الافق ، العميق الثقافة ، الجامع بين علم الدين وعلم الدنيا ، الشيخ حسن بن محمد بن محمود العطار المولود بالقاهرة سنة ١١٩٠ هـ وأصله من المغرب ، واتصل برجال الحملة الفرنسية ، وتعلم منهم ، وتولى مشيخة الازهر سنة ١٢٤٦ هـ ، وحاول ربط الازهريين بالعلوم الحديثة والمعارف المختلفة ، وكان شعاره : « ان بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها » . وكان يجيد عمل المزاول الليلية والنهارية ، وله رسائل فى الطب والتشريح ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية ، وله أشعار رقيقة ، منها قصائد فى الغزل ، وقد توفى الشيخ العطار بالقاهرة سنة ١٢٥٠ . وله كتب كثيرة منها :

١ ـ حاشية على جمع الجوامع .
٢ ـ حاشية على مقولات الشيخ السجاعى .
٣ ـ رسالة فى كيفية العمل بالاسطرلاب ، والربعين المقنطر والمجيب والبسائط .
٤ ـ رسائل فى الطب والرمل والزابرجة والتشريح .
٥ ـ رسالة فى البسملة والحمدلة .

٦ ــ انشاء الشيخ العطار .
٧ ــ حاشية شرح قواعد الاعراب .
٨ ــ حاشية الازهرية فى النحو .
٩ ــ حاشية العصام على الوضعية للايجى .
١٠ ــ شرح المنظومة فى اداب البحث .
١١ ــ شرح منظومة التشريح .
١٢ ــ شرح نزهة الشيخ داود فى الطب .
١٣ ــ حاشية شرح أشكال التأسيس فى علم الهندسة
١٤ ــ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس .
١٥ ــ ديوان الشيخ العطار .

وجاء الازهرى العبقرى المكفوف الشيخ حسين أحمد المرصفى ، المولود فى قرية « مرصفا » بالقليوبية سنة ١٨١٥ هـ ، وأصيب بكف البصر وهو فى الثالثة من عمره ، وتعلم فى الازهر ، وكان صاحب حافظة قوية وعقلية ممتازة ، وقام بالتدريس فى الازهر ، ثم تعلم اللغة الفرنسية فى ثلاثة أشهر ، وانتفع بمطالعاته فى الفرنسية ، وقام بالتدريس فى دار العلوم ومدرسة العميان وهى أول مدرسة من نوعها فى مصر ، واختير عضوا بالمجلس الاعلى للتعليم ، وكان صديقا للشاعر محمود سامى البارودى ، وكانت بينهما مراسلات ومساجلات ، وقد توفى المرصفى بالقاهرة سنة ١٢٧٠ هـ ، وقد ترجمت له ترجمة واسعة فى كتابى « فى عالم المكفوفين » بالجزء الثانى . ومن كتب المرصفى مايلى :

١ ــ الوسيلة الادبية الى العلوم العربية .
٢ ــ دليل المسترشد الى فن الانشاء .
٣ ــ رسالة الكلم الثمان .

ولا ننسى أن المرصفى كان أستاذا للشاعرين الكبيرين أحمد شوقى وحافظ ابراهيم .

ثم جاء الازهرى النابغ الجامع بين ثقافتى الشرق

والغرب : رفاعة رافع الطهطاوى ، المولود بطهطا سنة ١٢١٦ هـ ، وتعلم فى الازهر ، واستكمل تعليمه فى فرنسا ، حينما كان اماما للبعثة الموفدة من مصر فى عهد محمد على ، وكان له اثر كبير فى النهضة العلمية والفكرية ، وهو الذى أسس مدرسة الالسن ، وانشأ جريدة الوقائع ، وترجم كتبا كثيرة مؤلفة ومترجمة . وتوفى بالقاهرة سنة ١٢٩٠ ، ومن كتبه :

١ ـ قلائد المفاخر فى غرائب عادات الاوائل والاواخر (مترجم) ـ ٢ ـ المعادن النافعة (مترجم) .

٣ ـ مبادىء الهندسة .

٤ ـ المرشد الامين فى تربية البنات والبنين .

٥ ـ نهاية الايجاز فى السيرة النبوية .

٦ ـ أنوار توفيق الجليل فى تاريخ مصر .

٧ ـ تعريب القانون المدنى الفرنسى .

٨ ـ بداية القدماء ـ ٩ ـ تاريخ قدماء المصريين .

١٠ ـ التعريبات الشافية لمريد الجغرافية .

١١ ـ خلاصة الابريز فى رحلة باريز .

١٢ـ جغرافية بلاد الشام ـ١٣ـ جغرافية ملطبرون .

وفى ختام هذه الجولة بين المشهورين فى تاريخ الازهر الشريف يأتى الاستاذ الامام محمد عبده ، صاحب الجهد الكبير الضخم فى احياء النهضة الادبية والفكرية فى مصر ، وقد صارت سيرته أشهر من أن تكرر هنا ، وقد توفى سنة ١٣٢٣ هـ ـ ١٩٠٥ م ـ ومن كتبه ما يلى :

١ ـ رسالة التوحيد ـ ٢ ـ شرح نهج البلاغة .

٣ ـ الواردات فى التوحيد على طريقة الصوفية .

٤ ـ فلسفة الاجتماع والتاريخ .

٥ ــ تفسير القرآن (تفسير المنار) الى أواخر سورة النساء .
٦ ــ شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى .
٧ ــ تفسير جزء عم .
٨ ــ نظام التربية والتعليم بمصر .
٩ ــ الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .
١٠ ــ شرح البصائر النصيرية فى المنطق .

وانما ختمنا مسيرتنا هذه بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، لأن حياته انتهت بانتهاء القرن التاسع عشر ومبادىء القرن العشرين ، وأما أعلام الازهر فى القرن العشرين بعد الاستاذ الامام فانهم كثيرون، ولم احاول فى مسيرتى هذه أن أستوعب الأشخاص ، ولو أردت لما استطعت ، فهناك غير هؤلاء المذكورين هنا كثيرون لهم مكانتهم ومؤلفاتهم ، وكان لابد من الاكتفاء بجانب منهم ...

وكم اتمنى أن توضع دائرة معارف تحت عنوان : « أعلام الازهر الشريف » تضم تراجم لالوف الازهريين الذين تألقوا فى تاريخ الازهر خلال ألف عام ، وتحصى أعمالهم ومؤلفاتهم بقدر الامكان . ان هذه أمنية تاريخية علمية ، لو تحققت على وجهها لكانت خير تحية نقدمها الى الازهر المعمور والى أرواح هؤلاء الذين توالوا على هذا المعهد الاسلامى الاكبر خلال هذه القرون العشرة

وانى أضع هذا الاقتراح أمانة بين أيدى المسئولين عن الازهر، راجيا أن يمتد العمر بالانسان حتى تشهد عينه هذا الامل حقيقة واقعة . وعلى الله قصد السبيل ...

الأزهر كما يصوره الجبرتي

الجامع الازهر ، قلعة حصينة من قلاع الاسلام ، على كل من الحقيقة والمجاز .. وفى تاريخه الطويل صفحات ناصعة البياض فى سجل الصمود .. الصمود فى وجه العدوان المادى بمحاولة تقويضه وهدمه من حيث هو بناء شامخ وأرض طيبة يتنزل عليها من رحمات الله ما يشاء والصمود فى وجه الحرب المعلنة أو الخفية على ما يرمز له الازهر من الثبات على الدين الحق .. وان حاقت برجال الدين محن وآلام يريد الله بها أن يميز بين الخبيث والطيب ليكون للصابرين المجاهدين أجرهم ضعفين : ضعف على الطاعة والعمل على رفع كلمة الله ، وضعف على مغالبة المكابرين من حزب الشيطان ، وما خلا منهم زمان ولا مكان ، سنة الله فى أرضه ولن تجد لسنة الله تبديلا ..

عرفت الامة الاسلامية للأزهر الشريف هذه المكانة ، وكسبت مصر باحتوائها له مكانة خاصة فى العالم الاسلامى .. وحرصت الامة الاسلامية على أن يظل الازهر ـ كما بدأ ـ حصن الدفاع عن العقيدة ومنارة الهداية ، لا تسبقه بقعة فى الارض الا ثلاث تشد اليها الرحال ..

وكما عرفت الامة الاسلامية لهذا الجامع مكانته ،

(*) الاستاذ الدكتور عيسى عبده

كذلك كانت الحال عند خصوم الاسلام ، فما هادنوه .
ومن السذاجة أن يطمع المرء فى المهادنة عن قريب أو عن بعيد ، فالحاقدون على الاسلام لا يزيدون على مر الايام الا غلوا فى اثارة الحرب عليه .. معلنة أو خفية ، ظاهرة أو مطوية فى ثنايا السلوك ، حتى السلوك العلمى الصادر عن علماء مشهورين (فى عرف الناس وحسب.. اذ لا قيمة لأى علم لا يهدى صاحبه الى التوحيد) وفى هذه العجالة سأضرب مثلين ، وفيهما اشارة كافية...

فى دوائر المعارف

انظر الى دائرة المعارف البريطانية ، ولها من الصيت ما لا يغيب عن المثقفين .. ثم ابحث عن الازهر فى كل المظان ، ابحث فى كل مادة لغوية وثيقة الصلة بقلعة الاسلام : تحت كلمة معبد او مسجد أو جامع او بيت من بيوت الله . أو تحت الحروف الدالة على الازهر بالذات ، وستجد ان هذا المرجع الذى يطمئن اليه بعض الناس قد خلا من النص ومن الاشارة جميعا !..

ومن غريب الامر أن تجد هيئة التحرير فى هذه الموسوعة لم تجهل مكانة « الازهرى » الزعيم السودانى الراحل ، ثم تقول : الازهرى اسماعيل .. وتذكر عن مولده ونشاطه ومكانته ما يطيب لها أن تقوله . وبهذا تنتهى مادة الأزهر والازهريين — فى عرف هيئة التحرير بدائرة المعارف البريطانية ! !

وقد يقول قائل : ان دائرة المعارف البريطانية لا تذهب فى ذكر التفصيلات الى حد يسمح لها بوزن « الجامع الازهر » فى التاريخ الاسلامى ، وفى العالم الاسلامى على تتابع ادوار القوة والتراجع فى صفوف المسلمين — قد يقول قائل حسن الظن بمثل ما تقدم..

فنقول : انظر الى دائرة اخرى مختصة بالدين والملل والنحل ، وابحث عن الازهر ، بل ابحث عن الاسلام ، وستجد ذكر الاسلام وحسب فى خمس صفحات . جاء الكاتب فيها على كل ما يظنه من الاسلام ، أو من تاريخه ، أو من شئون الامة التى اختارها الله جل شأنه لحمل الامانة الى يوم البعث .. ثم وازن بين هذا التقتير الشديد (بصرف النظر مؤقتا عن سطحية المادة واخطائها) وبين الوفرة والغنى فى تفصيلات الاحداث والاحكام التى تنسب الى سيدنا موسى أو الى سيدنا عيسى عليهما السلام وانك لتجد الكلام المستفيض عن « اليهود » وعن « اليهودية » وعن « المسيحية » ثم انك واجده أيضا عن اسرائيل والصهيونية باسهاب ، بحيث تبلغ صفحات هذه البحوث مجتمعة بضع مئات .. تقابلها عن الاسلام خمس صفحات خاويات جاهلات آثمات ! !

قالوا فى لغة السياسة : ان السكوت وسيلة من وسائل الدفاع ، وهو ايضا وسيلة هدم . ولهذا حفل التاريخ بتفصيلات جمة عن حملات السكوت من النوعين وما كان اغفال الازهر من المراجع التى يقال عنها علمية الا مثلا على السلوك الحاقد على الاسلام . « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

مع الجبرتى

هذا المؤرخ العظيم « الجبرتى » عرض للازهر الشريف فى عهده ، من زاوية الاحداث التى جرت وسجلها بقلمه الرصين .. وكان الجبرتى على طريقته ، موضوعيا وحسب .. بمعنى انه يعرض الاحداث تباعا دون أن

يعقب من عنده بالرأى أو التقدير .. وهـذا أسلوب خاص منأساليب التاريخ المعروف باليوميات ، وهو أسلوب صادق أمين.. وللدارس أن يعمق النظر فيما جرى به قلم الجبرتى ، وانه ليجد بين ثنايا السطور اشارات غيرمعلنة ، تتكفل بها الاحداث وما بينها من ترابط وثيق ثم ان لكل حادثة دلالة ..

وقدآثرنا أننورد النص كما انتهى الينا ثم نقف فى آخر المقال وقفة قصيرة ، لعلنا نستشف من وراء الزمان الذى انقضى على حملة الفرنسيين الى يومنا هذا بعض العظات والعبر .. وهذا فرض على المؤمنين الى يوم يبعثون .. اذ جاء فى كتاب الله جـل شـأنه فيض من النور عن القصص وما فيه من علم نافع ، قال تعالى مخاطبـا رسوله صـلى الله عليه وسـلم ــ وعلينا أن نتبع ــ قال : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » . وقال جل شأنه « تلك القرى نقص عليك من أنبـائها » وقال أيضا « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ..

يقول الجبرتى فى الجزء الثالث من الطبعة الاميرية من صفحة ٢٥ ــ ٤٧ تحت عنوان (اطـلاق المـدافع من الفرنسيين على الأزهر) :

« لما ظهرت غلبة الفرنساويين فى القرن الثالث عشر الهجرى على مصر وملكوا القلعة وغيرها ، أرسل كبيرهم الى مشـايخ الازهر مراسـلة فلم يجيبوه ، فعند ذلك ضربوا بالمـدافع على البيوت والحـارات ، وتعمدوا بالخصوص الجـامع الازهر ، وحرروا عليـه المدافع والبنـادق ، وعلى ما جاوره من الأماكن كالفورية ، والفحامين ، فضج أهل تلك الجهة . ونادوا : « يا خفى الالطاف نجنا مما نخاف » .

وتتابع الرمى من القلعة وتلال البرقية حتى تزعزعت الأركان وهدمت حيطان الدور ، فركب المشايخ الى كبير

الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل فيكف عسكره عن الرمى ، فعاتبهم فى التقصير ، فاعتذروا اليه ، فقبل عذرهم ورفع عنهم الرمى ، وقاموا من عنده ينادون بالأمان فى المسالك والطرقات واطمأنت القلوب .

« ثم بعد الحادثة السابقة ثارت فتنة بين أهل الحسينية والعطوف ، وبين الأفرنج وتراموا ، ولم يزل الرمى بين الطائفتين حتى فرغ من الطائفة الأولى البارود ، فأثخنهم الفرنج بالرمى المتتابع .

« وبعد هجعة من الليل دخل الفرنج المدينة ، ومروا فى الأزقة والشوارع . وهدموا ما وجدوا من المتاريس وانتشروا فى الطرقات وتراسلوا رجالا وركبانا ، ثم دخلوا الجامع الأزهر راكبين على خيولهم ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وقبلته ، وعاثوا بالاروقة وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا أمتعتهم ودشتوا الكتب والمصاحف وطرحوها على الأرض وداسوها ، وجردوا كل من وجدوه به وأخرجوه ، وأصبحوا مصطفين بباب الجامع ، وكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعا . ونهبوا بعض الدور التى بالقرب من الجامع ، وخرج سكان تلك الجهة يهرعون للنجاة بأنفسهم .

« وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع ، وبقى الامر كذلك يومين قتل فيهما خلائق لا تحصى ، ونهبت أموال لا تستقصى ، فركب المشايخ بأجمعهم وذهبوا الى بيت سر عسكر الفرنساوية ، وطلبوا منه الأمان فوعدهم مع التسويف ، وطلب منهم بيان من تسبب فى اثارة الفتنة من المتعممين فغالطوه ، فقال لهم على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد فترجوا عنده فى اخراج العسكر من الجامع الأزهر ، فأجابهم لذلك

وامر بخروجهم ، واسكن منهم نحو السبعين فى الخطة(١) كالضابطين ، ثم فحصـوا عن المتهمين فطلبوا الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصـيلحى ، والشيخ اسماعيل البراوى ، وحبسوهم ببيت البكرى (٢) .

« ثم ركب الشيخ السادات والمشـايخ الى بيت سر عسكر وتشـفعوا فى المسجونين فقيل لهم لا تتعجلوا ، وبعد أيام حضر جماعة من عسكر الفرنسيس الى بيت البكرى نصف الليل وطلبوا المشايخ المحبوسين عند سر عسكر ليتحدث معهم .. فذهبوا الى بيت قائمقام بدرب الجماميز ، وهنـاك عروهم من ثيـابهم وطلعوا بهم الى القلعة فسجنوهم الى الصبـاح ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبنادق والقوهم خلف القلعة .

رفع البيارق على منارة الأزهر

« لما توجه بونابرت الى الشام بعد استيلائه على مصر استولى على مدينة العريش وغـزة وخان يونس ، ورد الخبر الى مصر فعمل الفرنساوية شنكا(٣) وضربوا عدة مدافع من القلعـة والازبكية وحضر عدد منهم راكبين الخيول وبعضهم مشاة وعلى بعضهم عمائم بيض وعلى جمـاعة برانيط ، ومعهم نفير ينفخون فيـه ، وبيدهم بيارق كانت عند المسلمين بقلعة العريش الى أن وصلوا الى الأزهر واصـطفوا ببابه رجالا وركبـانا ، وطلبـوا الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر وأمروه برفع تلك

(١) الخطة : مثل « الحى »
(٢) بيت البكرى بالخرنفش
(٣) الشنك : صواريخ الاعياد والمناسبات للاحتفاء أو لاظهار الفرح .

البيارق على منارات الجامع الازهر فنصبوا بيرقين على المنارة الكبيرة ذات الهلالين ، وعلى منارة أخرى بيرقا ، وضربوا عدة مدافع بهجة وسرورا ، وكان ذلك ليلة عيد الفطر ، وعند الغروب ضربوا مدافع أعلاما بالعيد .

قتل المجاورين وغلق الازهر

« وفى افتتاح محرم سنة ١٢١٥ هـ وقعت حادثة عجيبة وهى أن سر عسكر الفرنساوية « كليبر » كان واقفا فى بستان داره بالأزبكية وصحبته أحد خواصه ، فدخل شخص يوهم أن له حاجة وضربه بخنجر فشق بطنه وفر هاربا ، ففتشوا عليه حتى أخرجوه من بئر فوجدوه شاميا ، فسألوه فأخلط فى كلامه فعاقبوه وحرقوا يديه بالنار ، فقال لهم لا تظلموا أهل مصر ، فأنا من جملة جماعة بعنا أنفسنا للموت واتفقنا على رؤسائكم ، فقيل له أين كنت تأوى ، فقال عند فلان وفلان برواق الشوام بالأزهر ولا يدرون حالى .

« فأحضروا الشيخ الشرقاوى (شيخ الأزهر) والعريشي وألزموهما باحضار الذين كان يأوى اليهم وهم أربعة ، ثم ركبوا الى الأزهر وصحبتهم أغوات الانكشارية وقبضوا على ثلاثة ولم يجدوا الرابع ، ثم صبروا المقتول وألبسوه برنيطة ، ثم وضعوا معه الخنجر الذى قتل به وحملوه على عربة الى تل العقارب حيث القلعة التى بنوها هناك وضربوا له المدافع ، وأحضروا القاتل وخوزقوه وضربوا رقاب الثلاثة الشوام المظلومين وحرقوا جثثهم ورفعوا رءوسهم على خوازيق بجانب المخوزق ، ثم وضعوا قتيلهم فى تخشيبة ووضعوا عندها عسكرا يتناوبون ليلا ونهارا ، ثم ولوا عوضه سر عسكر يسمى (منو) كان بثغر رشيد وأظهر أنه أسلم ويسمى بعبدالله ،

وحضر مع قائمقام والاغا الى الازهر ، وشقوا فيه وفى أروقته وأرادوا نبش اماكن للتفتيش على السلاح .

« وأخـذ المجاورون فى نقل أمتعتهم واخلاء الأروقة ونقلوا كتب الوقف ، ثم أنهم كتبوا أسماء المجاورين فى قائمة وأمروهم ألا يؤووا أفاقيا مطلقا ، وأخرجوا منه الاتراك بالكلية ، وفى عصريتها توجه الشـيخ الشرقاوى والمهدى والصاوى الى سر عسكر « منو » واستأذنوه فى قفل الجامع وتسميره منعا للريبة فربمـا دس فيه من يبيت به ويفعـل ما أراد ولا يمكن الاحتراس من ذلك لكثرة دخانيق الجامع واتساع زواياه ، فأذن لهم بذلك .

« وسـمروا أبوابه وكذا سمروا مدرسـة محمد بك (أبو الذهب) المقـابلة له وأخرجوا منهـا الاتراك ، واستمرت الشدة والانزعاج الى أن أخذ الفرنساوية فى الانجلاء عن الديار المصرية .

« وفى محرم سنة ١٢١٦ فتح الجامع الازهر ، وكذلك المدرسة ، وفرح النـاس فرحا شـديدا وهنأ بعضـهم بعضا ... »

عبرة الدهر ..

أية عبرة بالغة فى أحداث الحملة الفرنسية على مصر وموقفها من الأزهر الشريف ؟ .. بل أية عظات وعبر تلك التى تطاول الزمان وتعلو بصـوتها الجهير على كل مستحدث من الدعوات الى الفصل بين الدين وبين مسيرة الأمة الاسلامية نحو المكانة التى أرادها الله سبحانه لعباده المتقين ، اذ يخاطبهم بالقول الصريح : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسـول عليكم شهيدا » .

يقولون فى الامثال : « ما أشبه الليلة بالبارحة » وأن ما فعله المعتــدون بالازهر من مائة وســبعين عاما ، هو بعينه ما فعلته اسرائيل بالمســجد الاقصى من عامين ، لا جديد .

بل ان اسرائيل زادت جرأة بما عمدت من طبع آيات القرآن الكريم محرفة أو منقوصة ، فى كتب دراســية فرضتها على الاجيال الناشئة من العرب ، حيثما رزئت دار الاسلام بوجود اسرائيل ، هذا بالاضافة الى تحريف المصحف وترويج ما حرفوه .

أما اقتحام المسجد بالخيول أو بالمدرعات ، وأما قتل الابرياء وقصف بيوت الله ، فقد كان من فعل المشاة ، بقدر ما وسعهم البغى والعدوان .. ولكن أدوات العصر تفوقت بالقصف من الجو ومن الارض على المدى البعيد ، ثم زادت من وسائل الدمار ما هو معلن وما لا يزال على الكتمان .. والهدف باق على ما كان عليه : هو المسجد وما يتلى فيه من قرآن .

لقد فرح المسلمون حين أعيد فتح الازهر ، كما يقول الجبرتى فيما تقــدم من تاريخه ... ولــكن هل تنبه المسلمون الى الخطر المحدق بكل مسجد ، لا بالاقصى وحده ، ولا الازهر وحــده ؟ وهل عرف المســلمون أن مخطط اسرائيل يسير الهوينى ، ولكن فى ثبات وهدفه خيبر ؟ ..

ولقد حذرنا الله كثيرا والنــاس فى غفلة .. فاذا لم يؤمنوا بالقصص الحق « فبأى حديث بعــد الله وآياته يؤمنون » .

دار العلوم قبس من الأزهر

من الكلمات الاثيرة عنـد ابناء دار العلوم تلك الكلمة الخالدة التى حفظوها عن الاستاذ الامام الشـيخ محمد عبده ، وهى قوله :

« ان باحثا مدققا لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية ، وأين تحيا : لوجدها تموت فى كل مكان ، وتحيا فى دار العلوم » !

وقد أعظم من شأن هذه الكلمة ، أو من شأن هـذه الشـهادة ، منزلة صاحبها بين العلمـاء والحكماء ، وما عرف به من صدق الرأى ؛ وشجاعة القلب ، وصحة الحكم ، وسلامة التقدير .

ولنا أن نتصور ذلك العهد الذى قال فيه الاسـتاذ الامام هذه الكلمة ، وهو عهد فسدت فيه اللغة العربية ، وهبطت الى أدنى منازلها ، فقد اختلطت فيه فصـاحة العربية ، بهجنة العامية ، وبعجمة التركية ، مع رطانات شتى من اللغات الاجنبية .

وذلك فى وقت اشتدت فيه وطأة الاستعمار، وضراوته فى حرب اللغة العربية ، ومحاولة القضاء عليها ، اذ كان يعلم أنها فى مقدمة مقومات هذه الامة ، وأبرز مظاهر وحدتها واتصال شعوبها . وامتحنت هذه الامة بعدد من الذين ينتسبون اليهـا من الذين ظاهروا الاسـتعمار ،

(*) للاستاذ الدكتور بدوى طبانه

ومالأوا الاعداء فتنكروا لعروبتهم ، وأثروا لغة الغريب ، استعلاء على اخوانهم وبنى جلدتهم ، فأصبحوا يتشدقون بألفاظها ومصطلحاتها،احساسا بالضعة التى طبعوا عليها، والنقص الذى ركب فيهم ، ثم سنة المجتمعات المغلوبة فى تملق المغلوب للغالب ، ومحاكاة الضعيف للقوى فى سلوكه ، واصطناع أدابه ومظاهر حياته عن غير وعى أو بصيرة .

حتى لقد أصبحت القومية فى نظر هؤلاء تعصبا ، والوطنية دعوة الى الانتكاس ، والدعوة الى التحرر والاستقلال تمردا على الطاعة الواجبة لولى الامر ، من غير بحث فى أحقيته لملك البلاد ، واسترقاق العباد .. وعلى هذا القياس أصبح التمسك بحبال العقيدة أو بأهداب الفضيلة جمودا ، والحفاظ على اللغة ، والإلتزام بأصولها ، وسنن أصحابها فى التعبير عن المقاصد والاغراض ، رجعية وتخلفا ، أو تقليدا وتكلفا ...

جامعة حرة للجميع

وبعد ، فما هى « دار العلوم » التى حيت فيها لغة العرب ، وكانت تموت فى كل مكان ـ كما قال الاستاذ الامام ، أو اللغة العربية التى أصبحت تحيا فى كل مكان بفضل أبناء دار العلوم ـ كما قال ذلك الدكتور السعيد مصطفى السعيد المدير الاسبق لجامعة القاهرة ؟

دار العلوم هى هذه الكلية العريقة التى تربض فى مكانها المعروف بحى « المنيرة » من أحياء مدينة القاهرة ، وقد استقرت فى هذا الموضع منذ سنة (١٩٠٠ م) بعد رحلة استمرت ثلاثين عاما بين حى « الجماميز » وحى « الناصرية » موضع المدرسة السنية الثانوية الان . وكان البدء فى القاء الدروس والمحاضرات على طلبة دار

العلوم فى « سراى الجماميز » فى اليوم الخامس عشر من شهر صفر سنة ١٢٨٨ هـ (٦ من مايو سنة ١٨٧١ م) .

وعلى ذلك تكون هذه الكلية قد قضت من حياتها المباركة أكثر من مائة عام ، وهى تؤدى فى صمت ووقار رسالتها الخالدة فى خدمة اللغة العربية وادابها والدراسات الاسلامية ، وتصل ما غبر من أمجاد هذه الامة فى ميادين المعرفة بما جد من أصول البحث ومناهج التفكير فى دراسة علوم العقيدة وعلوم اللسان .

وكان انشاء دار العلوم فى ذلك الوقت المبكر رمزا الى تطلع هذه الامة الى النهضة والى تجديد المعرفة فى ربوع هذه البلاد ، اذ كانت فى مبدأ أمرها تمثل صورة الجامعة كما ارتسمت فى ذهن المصلح الكبير على مبارك الذى كان مديرا لديوان المدارس والاوقاف اذ ذاك ، وكان من أول ما عناه سوء حالة الكتب فى مساجد الاوقاف ، وهى فى عهدة الجهلة من خدمة تلك المساجد ، وعن طريقهم تسللت نفائس المخطوطات الى أوربا اذ كانوا يبيعونها بأبخس الاثمان لزوار مصر من الاجانب ، ويضعون أثمانها فى جيوبهم ، بالاضافة الى ما كانوا يبيعونه من أوراقها للباعة والبقالين ليلفوا فيها سلعهم .. واستطاع على مبارك أن ينقذ من هذه النفائس ما نجا من أيدى هؤلاء الجهلة وجشعهم ، ويغرس بها نواة « المكتبة الخديوية » التى أصبحت فيما بعد « دار الكتب المصرية » واتخذ لها مكانا فى سراى درب الجماميز المجاورة لمسجد مصطفى فاضل باشا ، وانشأ الى جانبها أماكن للآلات والادوات اللازمة لدراسة العلوم الطبيعية ، ثم أنشأ بجوارهما ردهة مدرجة « انفيتاتر » ليحتفل فيها بالامتحانات التى كانت تعقد فى كل سنة ، ويحضرها كبار رجال الدولة تشجيعا للمتعلمين .

ويعد المؤرخون دار الكتب ودار العلوم أختين أو توءمين ، فقد اقترنت نشأة كل منهما ، ويشير ذلك الاقتران الى العلاقة الوثقى بين العلم والكتاب .

فقد عز على ذلك المصلح الكبير أن تخلو هذه الردهة المدرجة من طلاب العلم بعد أيام الامتحان ، فأراد أن يعيد الى مصر مفخرة من مفاخرها التى درست ، وهى « دار الحكمة » أو « دار العلم » التى أنشأها العزيز بالله الخليفة الفاطمى ، وجعل منها مكتبة ومدرسة يقصد اليها طلاب العلم فى هذه البلاد ليجدوا فى استقبالهم نفائس الكتب وكبار الاساتذة . ولم يبق أمام على مبارك بعد انشاء دار الكتب واعداد المكان الصالح للدرس الا أن يجمع الاساتذة والمدرسين ، ويعد الطلبة الذين يتلقون عنهم العلوم والمعارف ، وقد أعانه الله على ما أراد ، وتحقق حلمه بانشاء دار الكتب و « دار العلوم » التى أطلق اسمها على ذلك المدرج منذ بدأ القاء المحاضرات به، وما زالت تحمل هذا الاسم حتى يومنا ، وأن كان هذا الاسم قد زايلها فى بعض الفترات فى الاوراق الرسمية ليصبح « قسم المعلمين العربى » مرة ، و « مدرسة المعلمين الناصرية » مرة أخرى ، ولكن الاسم الاصلى « دار العلوم » بقى على ألسنة الناس كما بقى فى قلوبهم .

وقد كان الطلبة الذين هرعوا الى مدرج «دار العلوم» فى أول عهدها يمثلون مزاجا عجيبا من طلاب العلم . وهذا يدلنا على ما كان يحس به المصريون اذ ذاك من الظمأ والشوق الى ارتياد مناهل العلم ، والسعى اليه ، واغتنام كل فرصة لتحصيله ، ولم يقتصر ذلك على طبقة من الناس دون غيرها من الطبقات .

وكانت دار العلوم اذ ذاك أشبه بالجامعة الحرة التى تفتح أبوابها لكل طارق ، فلم يكن فى قانون هذه الكلية

ما يحدد نوع الطالب الذى يتلقى العلم فيها أو سنه او نوع ثقافته او درجة هذه الثقافة ، ولم يكن فى قانونها ما يحجب أحدا من أبناء الامة عن شهود تلك المحاضرات، والافادة مما يلقيه الاساتذة فى شتى فروع الثقافة .

وقد يأخذك العجب اذا عرفت انه كان من شهود تلك المحاضرات طائفة من أكابر العلماء ، وكبار رجال المعارف أو « ديوان المدارس » والقائمين بأمر التعليم ، وكبار موظفى الحكومة ، وفى مقدمتهم « على مبارك باشا » .. كما كان منهم طلبة من الازهر الشريف ، ومن الفرق العالية من مدرسة الهندسة « المهندسخانة » ومدرسة المساحة ومدرسة الادارة « الحقوق » .. وقد جمع بينهم حب العلم والتنافس فى طلبه والاستزادة منه ، يجلسون جنبا الى جنب ، وقد أزال طلب العلم ما بينهم من فوارق المناصب والجاه والثراء .

وكذلك اختلفت ثقافات الاساتذة كما اختلفت موضوعات محاضراتهم اختلافا بينا ، اذ كان فيها محاضرات فى الموضوعات اللغوية والادبية يلقيها كبار علماء الازهر ، كما كان فيها محاضرات فى أحدث العلوم والفنون يلقيها علماء أجانب أو علماء مصريون ثقفوا هذه العلوم والفنون فى أوربا . وقد تبع ذلك اختلاف لغات الحاضرين بين العربية الفصحى وما يقاربها واللغة الفرنسية مع ترجمة ما يلقى بها الى اللغة العربيّة حتى يستطيع جمهور الطلاب الافادة مما يسمعون .

وكان من أولئك الاساتذة الكبار :

الشيخ أحمد شرف الدين المرصفى الذى كان يحاضر فى التفسير والحديث .

والشيخ عبد الرحمن البحراوى الذى كان يحاضر فى فقه أبى حنيفة النعمان .

، والشيخ حسين المرصفي الذي كان يحاضر فى علوم الادب
وكان من المحاضرين الاجانب :
هنرى بروكس باشا ناظر مدرسة اللسان القديم ، وكان يحاضر فى التاريخ العام .
وفيدال باشا ناظر مدرسة الادارة والالسن ، وكان يحاضر فى فن السكك الحديدية .
وفرانس باشا المدرس بمدرسة المهندسخانة ، وكان يحاضر فى فن الابنية أو العمارة .
وجيجون بك ناظر مدرسة العمليات ، وكان يحاضر في فن الآلات · ومسيو بكتيت ، وكان يحاضر فى علوم الطبيعيات مع شرح الآلات التى استحضرها من أوربا .

وكذلك كانت هناك محاضرات باللغة العربية :
فى علم الفلك يلقيها اسماعيل الفلكى باشا ناظر مدرسة المهندسخانة · وفى علم الطبيعيات مع التجارب يلقيها منصور أحمد أفندى المدرس بالمهندسخانة .
وفى علم النبات مع استحضار النماذج يلقيها أحمد ندى بك مدرس النبات بالمدرسة الحربية ومدرسة الطب

اهداف العلم ونظام التعليم

ذلك هو النظام الفريد الذى ابتدأت به دار العلوم حياتها العلمية ، ووجودها التاريخى .
ويبدو أن على باشا مبارك رأى ان هذا اللون من التثقيف العام للكبار قد يكون نافلة من العمل ، قد قد يكون أوجب منها بالعناية وبذل الجهود معالجة الفقر الذى تعانيه الامة فى تربية ابنائها وتعليمهم ، وأحس بحاجة هؤلاء الابناء الى المهرة المختصين من المربين والمعلمين الذين ينشرون أنوار المعرفة فى ربوع البلاد ، ويتعهدون الجيل الناشىء بالتربية والتعليم والتثقيف ،

وراى ان البدء بهذه الجهود ينبغى أن يبـدأ من حيث يكون البدء ، أى من الادنى الى الاعلى .
ولذلك راى على باشا مبارك أن يغير فى هدفه ، وان يغير كذلك فى خطتـــه ، فقد قرر أن تتحول قاعة المحاضرات الى كلية لاعداد المعلمين الصالحين ، فـكتب على الفور الى شـيخ الجامع الازهر اذ ذاك « الشـيخ محمد العباسى المهدى » يطلب اليه اختيار بعض العلماء الاعلام للتدريس بدار العلوم على حساب ديوان الاوقاف وانتخاب عشرة من نجباء الطلبة بالازهر لحضور الدروس العربية والشرعية بدار العلوم ، يربط لـكل طالب منهم « خمسة وعشرون قرشا فى كل شهر » اعانة لهم من ديوان الاوقاف ، ولهم الحق فى أن يحضروا ـ باختيارهم ـ الدروس الاخرى ، كما جاء فى كتاب على مبارك الى الشيخ العباسى المهدى ، ونص كلامه :
« . . . وأما الطلبة المراد تعيينهم كما سبق تحريره لسعادتكم ، فبما أن الذى يطلب منهم هو حضـور دروس العلوم العربية والشرعية ، وهـذا مقدار ساعة ونصف فى كل يوم ، والحالة هذه لا يكون فى ذلك تعطيل عن دروسهم بالازهر ولا معايشهم . وانما اذا أرادوا من تلقاء انفسهم حضور دروس أخرى بهذا الطرف ـ أى بدار العلوم ـ كدرس الفلك أو الطبيعة مثلا فيكون ذلك باختيـارهم ورغبتهم .. كما أن كل سـائر آحاد الناس ، من أراد حضور أى درس من الدروس العامة التى صار الاعلان عنها فى الوقائع المصرية ، فلا يمنع . ومبلغ الخمسة والعشرين قرشا الذى تقرر ترتيبه لكل من العشرة المطلوبين ليس هو من قبيل الماهية ، وانما المراد منه مجرد الاعانة فقط . لا سيما والقصـد من تعيين العشرة المذكورين هو انه عند لزوم (خوجات) فى بعض المـكاتب ينتخب منهم عند الاقتضاء ، وبوقت

ذلك كل من صار انتخابه منهم تقرر له الماهية اللازمة .
وظل ديوان الاوقاف ينفق على دار العلوم وطلبتها وأساتذتها وخدمتها من ميزانية « المكتبة الخديوية » حتى شهر مارس سنة ١٨٨١ م . وفيه ضمت دار العلوم الى ديوان المدارس (وزارة المعارف) ليقوم بتدبير أمورها ، ويتولى الانفاق عليها . وكان عدد المدرسين بها اذ ذاك ثمانية تتراوح مرتباتهم بين ثلاثة جنيهات وخمسة عشر جنيها ، وكان ناظرها اذ ذاك يتقاضى مرتبا شهريا قدره خمسة وعشرون جنيها . أما طلبتها فقد بلغ عددهم فى تلك السنة ٣٢ طالبا يتقاضى كل واحد منهم جنيها واحدا فى الشهر .

وكان على مبارك قد عنى عناية فائقة بتجديد المكاتب الاهلية التى كانت تقوم بتربية النشء فى مدن مصر وقراها ، وعمل على تنظيمها وتعميمها ، ورأى أن ذلك يحتاج بالضرورة الى كثير من مهرة المعلمين الذين يقومون بواجبات حسن التربية والتعليم على الوجه الاتم .. وقد لاحظ أن المشتغلين بوظيفة التعليم فى اللغة العربية والتركية ليس فيهم الكفاية لذلك ..
ولذلك تابع جهوده المخلصة فى دعم دار العلوم . والعمل على استقلالها ، فوضع الانظمة والقوانين التى حدد بها نظام الكلية ، وأهداف التعليم فيها ، ونظام القبول بها ، فقرر :

١ ــ أن يكون عدد الذين يقبلون بهذه الكلية خمسين طالبا . ٢ ــ ألا تقل سن الطالب عن العشرين سنة ، ولا تتجاوز الثلاثين . ٣ ــ يتم اختيار الطلبة المقبولين عن طريق الامتحان التحريرى والشفهى .
٤ ــ يجرى للناجحين فى الإمتحان « اختبار شخصي » للوثوق من أهليتهم ولياقتهم ..

٥ ـ يلزم الطلبة المقبولون بحضور جميع الدروس والمحاضرات المقررة ، وكانوا قبل ذلك يحضرون ساعة ونصف الساعة فى كل يوم . وكانت لهم الحرية فى حضور دروس المواد الحديثة بارادتهم .

٦ ـ يدرس لهم فى « دار العلوم » الملحقة « بالكتبخانة العامرة » ما يلزم لتكميل معلوماتهم واستعدادهم لاداء وظيفة التعليم ، وحسن التربية على الوجه المطلوب ، والاسلوب المرغوب .

٧ ـ يربط لكل طالب مدة اقامته « تحت التعليم » مائة قرش شهريا ، من ضمن المتحصل للكتبخانة من الرسوم بديوان الاوقاف .

وعند تعيين أحد من الخريجين فى وظيفة بمكتب من المكاتب «بعد تمام تعليمه ، وظهور براعته فى الامتحان» يربط له بدل المائة قرش المذكورة على الجهة التى يعين لها الماهية اللازمة على حسب الوظيفة التى ينتخب لها.

ورأى على مبارك انه بهذه الوسيلة يمكن الحصول على مافيه الكفاية من المعلمين للغة العربية واللغة التركية ، ويؤخذ منهم لجهات الاقتضاء على حسب اللزوم ، وبذلك يتقدم ويستقيم أمر العلم والتعليم » .

وكان رحمه الله ينظر الى المدرسين الذين يتولون تربية النشء وتهذيبه وتعليمه فى زمنه فيراهم فريقين : فريق من الازهر الشريف يعلمون لغة البلاد وما لابد منه من أمور الدين الحنيف ، ومعظم هؤلاء يرون أن كل علم ليس فى الكتب التى تلقوها فى الازهر الشريف ضلال وكفر ، وان الاشتغال به اشتغال بما لايجدى ، ويرون ان شركاءهم فى التدريس الذين يدرسون الجغرافية والكيمياء والطبيعة والفلك وغير ذلك من العلوم الكونية ، هم ملاحدة كفار .

اما الفريق الآخر ، وهم اخوانهم الذين زاولوا دراسة العلوم الكونية وعرفوا صحة نظرياتها بالبرهان القاطع والقياس المنطقى ، فيرون فى معلمى اللغة العربية والدين جهلا فاضحا ، وضلالا واضحا ، قد يدعو الى الشك فى الدين الذى يعتمدون عليه ، ويدعون الاضطلاع به .

وقد أدرك على مبارك تلك الهوة العميقة ، وذلك البون الشاسع بين الفريقين ، وأراد أن يتلافى ذلك الخلل ، وأن يقرب مسافة الخلف بينهما ، فعمل على تأسيس « دار العلوم » ليتلقى فيهـا طلبتها العلوم الكونية التى لا تتيسر لهم دراستها بالازهر الشريف ، حتى لا تكون غريبة عنهم ، ويزول اعتقادهم بكفر العالمين بها ، ويزدادوا نورا على نور ، وينزل الفريق الآخر عن اعتقاده الجهل فيهم .

هذا الى ما يستفيده الاولون من أساليب دراسة العلوم المختلفة وطرق القائها وتلقيها ، حتى يكون لهم ذلك نبراسا يضىء لهم سبيل التعليم ، وهاديا يهديهم طريق الصواب فى كيفية افادتهم تلاميذهم المواد التى يزاولونها .. وقد تم له بدار العلوم ما أراد (١) .

أعلام فى تاريخنا الجامعى

هذه كلمات عن النشأة الاولى لدار العلوم ، يتضح منها كيف كانت رسالتها تثقيفية عامة يحتشد لها الراغبون فى ألوان من الثقافات العالية من كل الطبقات لينهلوا من علم أساتذتها الكبار ، وكيف تحولت الى كلية نظامية تحرص على مستوى أساتذتها ومستوى طلبتها ، وتحدد ما يتلقون من الدروس وما يلقى عليهم

(١) من كلمة المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فى العيد الخمسينى لدار العلوم سنة ١٩٢٧ م . وانظر تقويم دار العلوم للمرحوم الاستاذ محمد عبد الجواد ص ١٨ .

من المحاضرات ، وتحدد مستقبلهم ودورهم فى النهوض بالوطن ، وهو القيام بتربية أبناء البلاد وتعليمهم .

ومن الطبيعى ان مهمة الخريجين فى دار العلوم لم تقتصر على تعليم تلاميذ المرحلة الاولى التى ظهرت الحاجة الملحة اليها أولا ، وانما صار خريجوها يعدون أجيال الشباب فى المرحلة الثانوية وفى دور المعلمين والمعلمات ، وما فى هذا المستوى من مدارس المرحلة المتوسطة ، ثم كان منهم خيرة الاساتذة فى المعاهد العليا والجامعات ، منذ تأسست الجامعة المصرية الاولى سنة ١٩٠٨ م ، ومنذ أصبحت جامعة رسمية سنة ١٩٢٥ م .. ومنذ تعددت الجامعات المصرية ، فيما بعد ، ولا يزالون يؤدون واجبهم الى الآن ، فقد كانوا أساتذة علوم العربية وادابها فى كليات الاداب ، واساتذة الشريعة الاسلامية فى كليات الحقوق ، وشاركوا فى ارساء دعائم الحياة الجامعية فى هذه البلاد محاضرة وتدريسا وتأليفا ، وتخرجت على أيديهم أجيال من العلماء المختصين يعترفون بفضل هؤلاء الاساتذة ، ومدى ما نهلوا من أفضالهم ، وما أفاذوا من علمهم .

ومن هؤلاء الاساتذة :

محمد المهدى ، ومحمد الخضرى ، ومحمد زيد الابيانى ، وطنطاوى جوهرى ، وعبد الوهاب النجار ، وأحمد ضيف ، وعلى العنانى ، وأحمد الاسكندرى ، وحفنى ناصف ، وأحمد ابراهيم ، وأحمد أبو الفتح ، وأحمد الشايب ، ومصطفى السقا ، وعبد الوهاب حمودة ، وعلى عبد الواحد ، ومهدى علام ، وابراهيم سلامة ، وأبو العلا عفيفى ، ومحمد خلف الله ، وطه أحمد ابراهيم ، وسلطان محمد ، وابراهيم مصطفى ، وأحمد عبده خير الدين .. وكثير غيرهم .

ومن الذين لم تقتصر خدماتهم التعليمية على جامعات

مصر وحدها ، وانما تجاوزتها الى جامعـــات اوربا كثيرون ، وفى مقدمتهم الاساتذة الاجلاء :
عبد الرحيم أحمد الذى كان أستاذا للغة العربيــة بمدرسة اللغات الشرقيــة بباريس .
حسن توفيق العدل : الذى كان أستاذا بالمدرســة الشرقية فى برلين ، ثم أستاذا فى جامعة كمبريدج .
عبد العزيز جاويش : الذى كان أســتاذا بجامعــة أكسفورد . محمد حسنين الغمراوى : الذى كان أستاذا بجامعة اكسفورد . محمدعلى‌مصطفى : الذى‌كان أستاذا بجامعة كمبريدج . محمــد أحمد جاد المولى : الذى كان أستاذا بجامعة أكسبفورد . أبو العــلا عفيفى : الذى كان أستاذا بجامعة كمبريدج .
منصورسليمان : الذى‌كان أستاذا بجامعة أكسفورد .
أحمد عبده خير الدين : الذى كان أستاذا بجامعة كمبريدج . محمد محمود جمعــة : الذى كان أســـتاذا بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ،

مهدى علام : الذى كان أستاذا بجامعة مانشستر .
أما أبناء دار العلوم الذين شاركوا فى ارساء دعائم التعليم الجامعى فى البلاد العربيـــــة فهم أكثر من أن يحصوا ، بالاضافة الى عدد كبير يشاركون فى النهضــة العلمية فى تلك البلاد مدرسين ومديرين وموجهين منــذ اكثر من أربعين سنة حتى الآن فى مراحل‌التعليم العام .

ويذكر التاريخ الجامعى المعاصر ان ثلاثة من أبنــاء دار العلوم كانوا يشغلون منــاصب العمــادة فى كليات الآداب الثلاث بالجامعات المصرية فى وقت واحد ، فكان المرحوم الدكتور ابراهيم سلامة عميدا لآداب القاهرة ، والدكتور مهدى علام عميـــــدا لآداب عين شمس ، والاستاذ محمد خلف الله عميدا لآداب الاسكندرية .

وفي الوقت نفسه كان الاستاذ ابراهيم اللبان عميـــدا لـكلية دار العلوم بجامعة القاهرة .

واذا كنا قد أشرنا الى شىء مما قام به أبنـاء دار العلوم فى ميدان التعليم العام والتعليم الجامعى فى مصر وفى غيرها من البلاد العربية والبـلاد الاوربيـة ، فلن تفوتنا الاشارة الى شىء من جهودهم فى الكتابة والتأليف العلمى والادبى ، وقد فاقت ما كان مقـدرا لها ، بما جددوا وابتكروا وبما ترجموا من اثار الفكر الانسـانى فى اللغة والادب ، وفى المنطق والفلسفة ، وفى التـاريخ وعلم الاجتماع ، وفى التربية وعلم النفس ، وبما حققوا من تراث العرب ، وأحيوا من دارسه ، فأعادوا العربية الى عصورها الذهبية ، وأثروا المكتبة العربيـــــة بالدراسـات الاصيـلة والبحوث النـافعة العميقـة . واستطاعوا أن يرجعوا الى متون اللغـة ليتخيروا منهـا لـكتاباتهم ، وما يلقنونه لتلاميذهم ، فنهضوا بأساليب التعبير ، وقووا فى تلاميذهم ملـكة الانشاء والقدرة على التعبير . وعكفوا على أصـــول النحو والصرف فحلوا مشكلاتها ، وجلوا غوامضها ، وصاغوها صياغة جديدة قربتها الى أفهام التلاميذ ، وتدرجوا بها مع النمو العقلى لتلاميذهم ، وجاروا بها تنقلهم فى مراحـــل التعليم المختلفة ، وعمدوا الى كتب البلاغة فاستخرجوا زبدتها وقربوها الى الاذواق ، بما يسروا من غامضها ، وخففوا من مصطلحاتها ، وحببوا الى تلاميـذهم قراءة الادب وتذوقه ، واستخلاص ما حوى من الخصائص الفنيـة والجمالية ، وأعانوهم على نقده وتقويمه .

تجديد منهج الدرس الادبى

ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نذكر صنيع رجل من خير من خرجت دار العلوم ، ومن أبر من حملوا رسالتها فى

خدمة اللغة والادب فى صمت الحكماء ، وفى تواضع العلماء ، وفى بعد عن الجلبة والدعوى التى يصطنعها الادعياء فى هذا الزمان .

ولعل أكثر المعاصرين لا يعرفون ان دراسة التاريخ الادبى للأمة العربية على هذا النحو الذى يدرسونه به فى هذا الزمان فى المدارس والجامعات مدين بوضعه وابتكاره لرجل من أبناء دار العلوم الاوفياء ، وهو المرحوم « حسن توفيق العدل » .

فقد كان درس الادب يقوم على المنهج التقليدى المألوف فى الآثار القديمة كالذى نجده فى كتاب «الكامل» لابى العباس المبرد ، وهو منهج يقوم على الاستطراد فى رواية النصوص الادبية ، وشرح غوامضها ، وتوضيح ما حوت من الاشارات التاريخية ، والفوائد اللغوية ، والقواعد النحوية ، والنكت البلاغية ... وكان فى ذلك ما فيه من المشقة على الدارسين الذين يعز على أكثرهم تخليص الحقائق وتحديدها ، ويصعب عليهم تجميع عناصر موضوعاتها .. وعلى هذا النحو او ما يقرب منه الف الشيخ حمزة فتح الله كتابه « المواهب الفتحية » وألف الشيخ حسين المرصفى كتابه «الوسيلة الادبية» .
ولكن المرحوم حسن توفيق العدل نهج نهجا جديدا هو النهج الذى لايزال يدرس الادب على أساسه .
وذلك انه عمد الى الحياة الادبية عند الامة العربية فقسمها الى فترات أو عصور زمنية حددها بكبريات الاحداث فى تاريخ هذه الامة ، وجعلها خمسة عصور تبتدىء بالعصر الجاهلى ، وتنتهى بعصر النهضة الحديثة ، ثم درس الحياة الادبية فى كل عصر مقدما لها بدراسة العوامل المؤثرة فى حياة الادب ومعرفا بأشهر اعلامه وعارضا نماذج من أدبهم المنظوم أو المنثور .
وتتابعت الدراسات الادبية على هذا النحو الذى وضع

اساسه حسن توفيق ، وحذا حذوه كثير من المؤلفين ، وكان ذلك ثمرة من ثمرات عكوفه على الآداب الاوربية ومناهج دراستها فى الفترة التى قضاها فى أوربا .

تسمية المسميات الحديثة

ومما يتصل بجهود أبناء دار العلوم ونشاطهم فى خدمة اللغة العربية والنهوض بها « نادى دار العلوم » الذى أنشأوه ليكون ملتقى لهم ، ومعرضا لآرائهم الحرة فى موضوعات تتصل برسالتهم ، وقد لا تتسع لها حجرات الدروس وقاعات المحاضرات . وقد افتتح ذلك النادى فى شهر نوفمبر سنة ١٩٠٧ م ، وكان اول رئيس له هو المرحوم حفنى ناصف ، وكان اذ ذاك قاضيا بمحكمة الازبكية ، وكان ذلك النادى أشبه بمجمع لغوى . وقد قال فيه جرجى زيدان : « كانت تلقى فيه الخطب ، وأكثر بحوثه فى اللغة ومصطلحاتها . وقد وضع أعضاؤه بضعة آلاف لفظة اصطلاحية جديدة نشر بعضها فى مجلة كانت تصدر باسم النادى (١) ...

وقد عرض رجال ذلك النادى فى جملة ما عرضوا له من الموضوعات ذات الخطر فى حياة اللغة العربية لموضوع (التعريب) وقد دارت حول هذا الموضوع مناقشات علمية رائعة تدل على الوعى الصحيح ، والتقدير لظروف اللغة ، ووسائل نمائها ، وقدرتها على مواجهة مطالب الحياة المتجددة . وانتهت تلك المناقشات الجادة بالقرار الاجماعى الذى أعلن نصه الآتى :

« فى الساعة العاشرة من مساء يوم الخميس ٢٠ من فبراير سنة ١٩٠٨ م . وبعد سماع ما قاله جميع الخطباء فى موضوع « تسمية المسميات الحديثة » قرر

(١) انظر « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان ٨٢/٤ .

« نادى دار العلوم » ان يكون العمل على النحو الآتى :
يبحث فى اللغة العربية عن أسماء للمسميات الحديثة بأى طريقة من الطرق الجائزة لغة ، فاذا لم يتيسر ذلك ، بعد البحث الشديد ، يستعار اللفظ الاعجمى بعد صقله ووضعه على مناهج اللغة العربية ، ويستعمل فى اللغة الفصحى ، بعد أن يعتمده « المجمع اللغوى » الذى سيؤلف لهذا الغرض » .

كان هذا فى فبراير سنة ١٩٠٨ م وكان هذا تفكير ابناء دار العلوم .. أما المجمع اللغوى ـ وكانوا يسمونه مجمع فؤاد الاول للغة العربية ـ فانه لم ينشأ الا بعد أكثر من عشرين سنة ، ولم ينظر فى هذا الموضوع الا فى ١٢ مارس سنة ١٩٣٤ م ، وكان قرار المجمع سنة ١٩٣٤ هو نص قرار النادى سنة ١٩٠٨ م ! !

فاذا عدونا خدمة اللغة والادب ، وخدمة التربية والتعليم التى أجاد فيها أبناء دار العلوم وأفادوا وكان لهم فيها القدح المعلى ، حتى أصبحوا علما عليها ، واذا عدونا كذلك من خرجت دار العلوم من فحول الشعراء والخطباء وأصحاب الاقلام ، ومن رجال الوطنية والاصلاح الاجتماعى ممن لا تتسع لهم هذه السطور ـ اذا عدونا هؤلاء وهؤلاء ألفينا عددا من خريجيها يبرعون فى الثقافة القانونية ، ويصلون بجدهم واخلاصهم وكفايتهم الى أرفع مناصب القضاء الاهلى والشرعى ، ومنهم المرحومون حسن جلال المصرى (باشا) الذى كان مستشارا بمحكمة الاستئناف ، ومحمد عبد الفتاح (بك) الذى عين وكيلا للنيابة ثم قاضيا ، ومحمد صالح (باشا) الذى رأس كثيرا من المحاكم الاهلية ثم عين مستشارا بمحكمة الاستئناف ، وعبد الرحمن ابراهيم (باشا) الذى كان وكيلا لمحكمة النقض والابرام ، وحفنى ناصف (بك) ، وعبد الرحيم أحمد (بك) ومصطفى الخولى

(بك) ، وغيرهم ، بالاضافة الى أبنـائها الذين شغلوا مناصب القضاء الشرعى ، وزاولوا صـناعة المحاماة ، وفى طليعتهم النقيبان محمد عز العرب (بك) وعبد الرازق القاضى (بك) ...

هذه دار العلوم التى أسهمت بنصيب واضح فى بناء نهضة مصر ولغتها وأدبها ، وتجاوزت رسـالتها هـذه الحدود الى تلك الآفاق البعيـدة مع صعوبة المسلك ووعورة الطريق .

فقد قاست هـذه الكلية طوال حيـاتها الوانا من الصراع العجيب ، وكانت لا تخرج ظافرة من معركة الا ابتلتها الاقدار بمعركة أخرى . وقد كتب الله لها البقاء والنصر على جميع القوى التى تصـدت لها ، فكانت بذلك آية الآيات فى مجالدة الزمن ومقارعة الخطوب ، ومن المعارك الرهيبة التى خاضتها دار العلوم :

❊ معركة مع الرجعية والتخلف . فقد دعا انصارهما الى مناهضة هذه الكلية ، وهى لم تزل تستقبل حياتها العلمية بدعوى انها تعلم طلابها علوم الطبيعة والحيـاة وسائر العلوم الحديثة ، وكان تلقى هذه العلوم اذ ذاك كبيرة من الكبائر ، اذ كانوا يعدون ذلك خروجا على الدين ، وضربا من الزندقة والالحاد . واضطر أساتذتها وطلابها للدفاع عن كيانهم بتبصير الناس بمزايا هـذه العلوم التى تعين على الايمان ، والتعرف على آيات الله .

ويدل على ذلك تلك الكلمة التى ألقـاها الشـيخ حمزة فتح الله عنـدما وكل اليه الدرس العـام للغـة العربية ، فقال فى كلمته الافتتاحية (فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٨ م) مخاطبا دار العلوم :

« . . . انكم فى مكان تحصى فيه الاخلاق فى صكوك وأوراق ، ولا ينبغى أن يريبكم ما عسى أن يهجس بخلد البعض فى شأن هذه المدرسة ، فان فنون الطبيعيـات

لكونها أنما تبحث عن الجثمانيات ، وما يعتورها من أنواع التغيرات ، فانما هىَ ضرب من النظر الذى أمر به الكتاب الكريم فى غير ما موضع ، ونتيجتها زيادة الايمان لمشاهدة بعض ما أودع فى الكائنات من الاسرار الالهية ، وعجائب القدرة الباهرة ، اللهم الا من تحتم عليه الشقاء ، ولم يكن فيه استعداد للخير ، فانه شقى حيث كان ، ولو فى الملأ الاعلى :

واذا الفساد عرا المزاج فانه
يجد الدواء لديه عين الداء (١)

* معركة مع الاستعمار وأعوانه الذين نظروا الى هذه الكلية نظرة توجس وحذر ، باعتبارها حصنا للعربية ، ومنارا للقومية ، ولأن أبناءها ينتشرون فى طول البلاد وعرضها ، وينشرون العلم والنور بين أبناء الامة فى جد وصدق . ومن هنا بدأ التضييق على خريجيها ، فحيل بينهم وبين المناصب الرفيعة فى وزارة المعارف . وسن « دنلوب » المستشار الانجليزى والمصرف الحقيقى لشئون التربية والتعليم سنة الفصل بين أبناء دار العلوم ونظرائهم من خريجى المعاهد الاخرى فى المناصب والدرجات، فشبت بذلك نار الفتنة بين أبناء البلد الواحد الذين يتعاونون على أداء خدمة وطنية واحدة .

ولكن هذه الخطوب كانت من أهم العوامل فى تطوير دار العلوم وتجديد نشاطها العلمى على مر الزمان ولا سلاح لها الا العمل المؤمن الجاد .

وبعد ، فهذه كلية دار العلوم التى صمدت فى وجه الخطوب وكتب الله لها الحياة والبقاء كما تعهد رسالتها بالبركة والنماء حتى أصبحت احدى مفاخر جامعة

---

(١) المواهب الفتحية ١/٩ .

القاهرة ، وواسطة العقد بين كلياتها العاملة تتابع دورها فى أداء رسالتها الخالدة .

وقد كانت ولا تزال جديرة بتحية أمير الشعراء احمد شوقى لها فى عيد من أعيادها الماضية سنة ١٩٢٧ بقصيدة من قصائده الجياد منها قوله مشيدا بجهودها العربية والاسلامية وبآثارها فى الحفاظ علىاللغة العربية الفصحى :

وجمعت السعادتين فباتت
فيك دنيا الصلاح للدين خدنا
لو تسترت كنت كالكعبة الفر
اء ذيلا من الجلال وردنا
ان تكن للثواب والبر دارا
أنت للحق والمراشد مفنى
يا عكاظا حوى الشباب فصاحا
قرشيين فى المجامع لسنا
فتية محسنون لم يخلفوا العلـ
ـم رجاء ولا المعلم ظنا
كلما سار للكهولة شعرى
أنشدوه فعاد أمرد لدنا

أديب من الأزهر
"مصطفى لطفى المنفلوطى"

كان امتدادا كريما لهذه السلسلة المباركة من رجالات الازهر ، الذين أسهموا بجهود ميمونة فى صنع تاريخنا الحديث ، من أمثال رفاعة الطهطاوى الذى تألق اسمه منذ فجر النهضة ، ومحمد عبده الذى حمل الراية من بعده .. ومثــل الشيخين الرائدين المصلحين حــرص المنفلوطى على ألا تقتصر جهوده على الميــدان الثقــافى وحــده ، بل أبى الا أن يسهم فى الميــدان السيــاسى والاصــلاحى أيضا ، ولذا نراه قد وظف أدبه بالتزام مبكر لخدمة وطنه وترقية أمته ، أو بتعبير أشــمل : للنضال من أجل شعبه ...

كانت البلاد فى تلك السنوات ترزح تحت نير الاحتلال البريطانى ، الذى جثم على صدر مصر سنة ١٨٨٢ ، والمنفلوطى صبى قد بلغ من العمر نحو خمس سنوات ، فعاش بقية صــــباه وكل شبابه وجل كهولته يتجرع مرارة هذا الاحتلال الــكريه ..

وكان يساند الاحتلال فى تلك السنوات خديو مصر، الذى أخذ يتغير اقبه فأصبح سلطانا ثم ملــكا ، ولــكن حقيقته لم تتغير ، كحاكم غريب عن تلك البلاد ، كل همه أن يعيش سيدا ، وأن يؤازر من يساندون عرشــه الذى تزعزعه دائما حركات الوطنيين الشرفاء .. وهكذا

(*) للاستاذ الدكتور احمد هيكل

كان هناك اتفاق مصالح بين قوى الاحتــــلال وقوى القصر ، وبخاصة بعد أن ثبت استدعاء الخديو توفيق للانجليز وضربه بهم لقوى الشـعب الممثـلة فى الثورة العرابية . وظل هذا الاتفاق يتضح حينا ويخفى حينا آخر ، ولـكنه بقى حقيقة لا يمكن انكارها لانها موجودة أبدا ..

وقد كان من الفترات التى شهدت خفاء هذا التآمر بين الاحتلال والقصر ، تلك السنوات الاولى من عهـد عباس حلمى الملقب بعباس الثانى . وذلك ان هـــذا الخديو حين جلس على العرش بعد توفيق ، أراد ان يكسب المواطنين بايهامهم أنه غير سلفه ، وأنه فى جانب الوطنيين لا فى صف المحتلين . ولتأكيد هــذا الايهام أخــذ يقرب بعض الزعماء ، كما راح يزور البـلاد ، ويبذل كثيرا من المحاولات لـكسب ثقة أبناء الشعب ، لـكنه ما لبث أن ظهر على حقيقتــه فعــادى الحركة الوطنية ، ونفذ رغبات الاحتلال ، ووقف نهائيا فى صف أعداء الشعب ..

ثم تتابعت الاحداث ، واشـــتدت حركة المقــاومة الوطنية حتى تمثلت فى ثورة سنة ١٩١٩ ، التى قادها سعد زغلول مكملا رسالة مصطفى كامل ، الذى قاد الحركة الوطنية فى أول شبوبها عقب الاحتلال ..

وانتهت ثورة سنة ١٩١٩ ببعض المكاسب التى تعتبر خطوة على طريق العمل الوطنى ، والتى فى مقدمتها : صدور الدستور ، وافتتاح البرلمــان ، وتأليف حكومة وطنية برياسة ســعد زغلول سنة ١٩٢٤ ، وان كانت الفرحة بهذه المـكاسب لم تطل ، نظرا لتــآمر الانجليز والقصر على كل ما ربحه الشعب من ثورته .. وهــذا التآمر لا يتسع له هــذا الحديث الذى قصــدنا من

التمهيد به مجرد تحديد للعصر الذي عاش فيه المنفلوطي وتأثر به وأسهم في النضال بأدبه فيه .. وهذا العصر الذي ينتمي اليه المنفلوطي ينتهي بهذه المرحلة من تاريخ مصر ، لان الرجل انتقل الى جوار الله سنة ١٩٢٤ ..

ولد المنفلوطي بمنفلوط – احدى بلدان صعيد مصر – سنة ١٨٧٦ – وحين بلغ سن التعلم تردد على الكتاب فحفظ القرآن الكريم وتعلم ما يؤهله للالتحاق بالازهر ، ثم انتقل الى القاهرة ، ودخل الازهر ، وحضر دروس الشيخ محمد عبده . ولكنه اهتم بصفة خاصة بالادب ، فأخذ يقرأ روائع كتب التراث ، وجيد مراجع الادب العربي شعره ونثره ، حتى غلبه حب الادب على نفسه ، فترك الازهر بعد دراسة فيه استمرت نحو عشر سنين ..

وكان المنفلوطي قد اتجه الى الكتابة في الصحف متأثرا بأستاذه محمد عبده ، ومستفيدا من توجيهه وتشجيعه . وبرز اسمه حين أخذ يكتب في صحيفة المؤيد ، التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف منذ سنة ١٨٨٩ ، والتي كانت من كبريات الصحف الوطنية والاصلاحية ذات النزعة العربية الاسلامية ..

وفي أول عهده بالادب ، كان المنفلوطي يكتب الشعر ، وكان يسهم بهذا الشعر كما يسهم بالنثر في النضال . وقد بلغت به الشجاعة أن هاجم بقصيدة من قصائده الخديو عباس الثاني ، بعد أن اتضح للمنفلوطي موقف هذا الخديو وخداعه للشعب ..

وقد وزعت هذه القصيدة في منشور يحمل اسم « الصاعقة » بمناسبة حضور الخديو الى القاهرة قادما من الاسكندرية ، بعد رحلة داخلية كانت جريدة المؤيد تعني برصدها ووصف الاحتفالات بها . وتاريخ توزيع

هذه القصيدة فى منشور هو ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٧ ، وهو اليوم التالى لعودة الخديو ، وهذه هى القصيدة :

قدوم ولـكن لا أقول سعيـــد
وملك وان طـال المدى سيبيد
بعدت وثغر الناس بالبشر باسم
وعدت وحزن فى الفؤاد شـديد
تمر بنـا لا طرف نحوك ناظر
ولا قلب من تلك القلوب ودود
علام التهانى ؟ هل هناك مآثر
فنفرح ؟ أو سعى لديك حميد ؟
اذا لم يكن أمر ففيم مواكب ؟ !
وان لم يكن نهى ففيم جنود ؟ !
تذكـــرنا رؤياك أيام أنزلت
علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم . « مقدونيــا » فأصابنا
مصوب سهم بالبلاء ســـديد
فلمـا توليتم طغيتم ، وهـكذا
اذا أصبح . التركى وهو عميـد
فـكم سـفكت منا دماء بريئـة
وكم ضـمنت تلك الدماء لحود
وكم ضـم بطن البحر اشـلاء جمـة
تمزق أحشــاء لها وكبود ! !
وكم صار شمل للبـلاد مشتتا
وخرب قصر فى البـلاد مشيـد
وسـيق عظيم القوم منا مكبلا
له تحت أثقـال القيـود وئيـد
فما قام منكم بالعدالة طـارف
ولا سـار منكم بالسداد تليـد

كانى بقصر الملك أصــــبح بائدا
من الظلم ، والظلم المبين مبيد
ويندب فى اطــلاله اليوم ناعيــا
له عند ترديد الرثاء نشـــيد
اعبــاس ترجو أن تكون خليفــة
كما ود آباء ورام جــدود ؟ !
فياليت دنيـــانا تزول وليتنـــا
نكون ببطن الارض حين تســود

وقــد حوكم المنفلوطى ـ وهو فى نحو العشرين ـ بسبب تلك القصيدة التى لا يقولها الا فنان فدائى . وحكم عليه بالسجن اثنى عشر شهرا . وحين اسثأنف الاديب الحكم ونظرت القضية من جديد ، خفف السجن الى ستة أشهر ..

تطوير النثر الحديث

وقد عانى المنفلوطى كثيرا بسبب هذه العقوبة ، وظل بعد تنفيذها مبعدا عن أى عمل حكومى ، باعتباره غير متمتع بالصلاحية للوظائف لما فى تاريخه من سابقة ! !

ولــكن مسعى كريما من الشيخ محمد عبــده أعاد الى الرجل بعد حين حقوقه الشخصية . وحين تولى سعد زغلول نظارة المعارف سنة ١٩٠٦ عين المنفلوطى فى وظيفة تتفق ومواهبه الادبية ، وهى وظيفة المحرر العربى بوزارة المعارف ..

وكان سعد يعتز بالمنفلوطى ويعرف قدره فى المجال الوطنى والادبى على السواء . ولذا نراه يتمســك به ويتصدى للمستشــار الانجليزى « دنلوب » .. حين حاول هذا الطاغية فصل المنفلوطى من وزارة المعارف ، عقوبة له على هجومه على « روزفلت » الذى كان قد

زار مصر ، وانكر — فى حديث له — حق المصريين فى الاستقلال ، فرد عليه المنفلوطى بمقال تحت عنوان « محاكمة روزفلت أمام محكمة العدل » .. وقد كان مما قاله سعد « لدنلوب » وهو يدافع عن المنفلوطى : « ان الحكومة فى حاجة الى مثل السيد مصطفى ، وليس هو فى حاجة اليها ، والوظائف قبور للأدباء ، وخير للحكومة أن يكون مثله داخلها » ..

وبلغ من اعتزاز سعد بالمنفلوطى انه كان ينقله الى حيث يعمل ، فحين عين وزيرا للحقانية سنة ١٩١٠ ، نقل المنفلوطى معه ، وأنشأ له تلك الوظيفة التى انشأها له من قبل فى وزارة المعارف ..

وحين انتخب سعد وكيلا للجمعية التشريعية سنة ١٩١٢ ، أخذ المنفلوطى ضمن هيئة الامانة . وبقى فى الجمعية التشريعية حتى تأججت الثورة ، وكتب مقالاته فى القضية المصرية سنة ١٩٢١ مدافعا عن سعد باشا ومنتصفا له من خصومه السياسيين ، وحينئذ فصله ثروت باشا من وظيفته ، ثم صودر كتابه « النظرات » الذى كان يضم مجموعة من تلك المقالات ..

وبعد نحو ستة أشهر رؤى استدراج الرجل وكسبه فى صف القصر وأعوانه ، من مناوئى الحركة الثورية أو المتاجرين بها ، فعين فى (سكرتارية) الديوان الملكى على أمل أن يكف عن الكتابة الوطنية والنضال بالكلمة الشريفة . ولكن الرجل ظل على ما كان عليه من قبل ، فأخرج من وظيفته بالديوان بعد قليل ، والحق بوظيفته بالجمعية التشريعية المعطلة . وظل فى هذه الوظيفة التى هى أشبه بالتعطل الى أن جنى الشعب بعض ثمرات ثورته ، واسندت رياسة الوزارة الى سعد زغلول ، وافتتح البرلمان ، وتولت قوى الشعب الوطنية

الحكم ، فحينئـذ عين المنفلوطى رئيس فرقة فى أمانة مجلس الشيوخ . وبقى فى هذا المنصب الى أن مات سنة ١٩٢٤ ..

وقد قام المنفلوطى بأعظم دور فى تطوير النثر العربى الحديث ، واليه يرجع تخليص هذا النثر نهائيا مما كان يتردى فيه من تفاهة وركاكة رانت عليه طيلة عصور التخلف ، وبخاصة فى العهد التركى ، الذى امتد نحو ثلاثة قرون . فقد أفاد المنفلوطى من روح الفترة التى عاشها ، ومن اتجاه الفترة السابقة على فترته ، حيث كانت هناك حركة احياء لروائع التراث العربى الذى خلفته عصور الازدهار ، وكانت تلك الحركة نتيجة لهذا الوعى العميق بالماضى العربى المجيد الذى يمكن أن يكون ركيزة لمستقبل رائع جديد ..

كذلك أفاد المنفلوطى من توجيهات أستاذه محمد عبده ، الذى دعا باخلاص الى تخليص النثر العربى من الزخارف والصنعة ، وطالب الكتاب وبخاصة من كانوا تلاميذه أو عاملين معه ، أن يترسلوا فيما يكتبون ، وأن يتجهوا وجهة فنية جادة فيما يسطرون ..

اصالة وطابع خاص

ومن استيعاب المنفلوطى لروائع التراث النثرى المترسل الذى سطره كبار الكتاب فى عصور الازدهار ، ومن توجيهات الاستاذ الامام ، ومن موهبة الرجل واصالته .. خرج بطريقة فى الكتابة تعتبر المدرسة الام لكل المدارس الفنية الاسلوبية فى الكتابة العربية الحديثة ..

وأهم معالم هذه المدرسة الام : البعد عن التكلف ، والنأى عن التقليد ، والقصد الى الصدق ، والاهتمام

بالصياغة ، وجمال الايقاع ، ورعاية الجانب العاطفى ، ثم الميل الى السهولة والترسل ، وترك التمقيد والمحسنات ، فيما عدا بعض السجع المطبوع الذى يأتى بين الحين والحين للاسهام فى موسيقى الصياغة ..

وقدكانت طريقة المنفلوطى ـ برغم محافظتها واتخاذها النثر الجيد القديم مثلا أعلى ـ طريقة ابداعية فى كثير من جوانبها ، ففيها اصالة المنفلوطى وعليها طابعه ، وكل ما كتب بها موضوعات حية هى من تجارب الكاتب المرتبطة بنفسه وقومه وعصره ، فهى طريقة فى النثر أشبه بطريقة شوقى فى الشعر ، فيها محافظة من حيث اتخاذ القديم الجيد مثلا أعلى فى الصياغة ، وفيها تجديد من حيث تطوير الاديب واضافاته ، واتخاذ الاطار البيانى المحافظ وسيلة للتعبير عن مشاعره هو ، وتجاربه هو ، وعصره هو ، بحيث تتضح شخصيته كأجلى ما تكون ، وتظهر المعاصرة فى أسلوبه فلا تخطئها الا عيون المكابرين ..

وأهم آثار المنفلوطى التى تتمثل فيها طريقته : مقالاته التى جمع كثيرا منها فى كتابه «النظرات» والتى تعالج موضوعات سياسية واجتماعية وأدبية ، ثم كتاباته القصصية ، التى بعضها موضوع وبعضها معرب ، وبعضها أعمال قصيرة كتلك التى جاءت فى «العبرات» ، وبعضها أعمال طويلة مثل « الفضيلة » و «مجدولين» و « الشاعر » و « فى سبيل التاج » .. وهذه الكتابات القصصية كانت تترجم أولا بأقلام بعض المترجمين، ثم يأخذها المنفلوطى فيعيد صياغتها بطريقته مع الوان من التصرف تكاد تجعلها جديدة ..

وهكذا عرف المنفلوطى ـ بعد أن وجد طريقه ـ كناثر صاحب طريقة ، وأهمل الشعر مكتفيا بريادته لتلك

الطريقة الفنية التى عرفت به واحدث بها فى تاريخ النثر العربى وثبة كبرى ..

وكانت مقالاته وكتاباته الروائية والقصصية موضع حفاوة الجيل التالى لجيله ، ممن كانوا على أول طريق الادب أيام كان هو ذائع الصيت واضح الطريقة ، حتى لقد قرر الاستاذ الزيات ، انه هو وصاحبه طه حسين ورفيقهما زناتى ، كانوا ينتظرون مقال المنفلوطى بشوق شديد ، كما كانوا يقبلون على قراءته بشغف بالغ ..

ومن هنا راينا كلا من الكاتبين الكبيرين يأخذ وجهة اسلوبية جمالية فيما يكتب . وهما وان انفرد كل منهما بطريقة خاصة نتيجة لاصالته وثقافته ، فقد خرجا قبل كل شيء من جبة المنفلوطى الذى وجههما وجهة أسلوبية جمالية ، حتى كانا – آخر الامر – من كبار الكتاب الاسلوبيين ...

مدرسة المرحلة الاولى

وقد عيب على طريقة المنفلوطى : الاهتمام الشديد بالاسلوب ، والفقر فى الجانب الفكرى ، والمبالغة فى اصطناع الاسى واثارة العاطفة ، ثم عدم الدقة فى الاستعمال اللغوى أحيانا ، والميل الى حشد المترادفات ، والعبارات المكملة ، والكلمات المؤكدة .. وربما كان الكثير من ذلك حقا . ولكن الحق أيضا ان الكتابات التى خلفها هذا الكاتب بطريقتها الفنية ، كانت أول اتجاه أسلوبى فنى حديث ، رد الى النثر اعتباره ، وجعل ينافس الشعر ، وخرج آخر الامر اعلام الكتاب الاسلوبيين ، الذين يفخر بهم تاريخ أدبنا الحديث ، كالزيات وطه حسين وغيرهما ..

ولا يزال المنفلوطى يعيش بفنه الى اليوم ، برغم ما

طرأ على ادبنا من تطورات وما جد فيه من اتجاهات . ولا يكاد يشذ أديب ـ بعد جيل المنفلوطى ـ عن التلمذة على هذا المعلم الرائد ..

حقيقة لايكتفى أى أديب بالوقوف عند مرحلة كتابات المنفلوطى وهو يتعلم الادب ، ولكنه لا يمكن أن يتخطى تلك المرحلة دون أن يقف عندها .. فكتابات المنفلوطى ـ فى أقل تقدير ـ بمثابة مدرسة المرحلة الاولى لكل من يريد أن يتعلم فن الكتابة ، ولا بد من أن يعيش المتعلم حينا على عطائها الرائع السذاجة ، الطفلى الروح ، ثم يعبر منها الى مراحل أخرى أكثر نضجا وأبعد عمقا .

***

وان من الوفاء لأدبنا الحديث أن نذكر رواده الذين عبدوا الطريق ، كالمنفلوطى . وان من مظاهر هذا الوفاء المسعد أن يلتفت بعض شبابنا الجامعى الواعى الى دراسة المنفلوطى والعناية بأدبه .. وفى هذا الميدان يطيب لى أن أنوه بالباحث الجاد « الدكتور محمد أبو الانوار » الذى جعل المنفلوطى وأدبه موضوع رسالته للماجستير ، والذى جمع بعد ذلك من نصوص أدبه كثيرا مما لم ينشر ، وبخاصة هذا الشعر الذى خلفه المنفلوطى متناثرا بين صحف عهده .. وقد أفدت كثيرا مما جمع هذا الباحث الدقيق ، الذى قدم الى طائفة من النصوص والحقائق بسخاء نفس يستحق أطيب الثناء ..

رحم الله المنفلوطى ، وجزاه عن لغتنا وأدبنا ووطننا وتاريخنا الحضارى الحديث أكرم الجزاء ..

شاعر من الأزهر
« حسن العطار »

لم يتح لى ان أقف بنفسى على الظواهر الادبية والفنية فى مصر عبر القرنين السابع عشر والثامن عشر، وربما النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وانما كنت أكتفى بالاحكام التى انتهى اليها الدارسون من قبلى ، وأردد أقوالهم عن شعراء هذه الفترة وأدبائها ، وكانت فى أغلبها أحكاما قاسية ، تتسم بطابع التعميم ، فالادب فى هذه الفترة أدب متخلف منحط ، والادباء والشعراء نظامون ، أسلوبهم ركيك ولغتهم رديئة وصورهم الشعرية باردة لا ماء فيها ولا رواء ... الى آخر هذه الاحكام التى ظللت أرددها ، حتى طلب الى الصديق الشاعر صالح جودت أن أكتب عن شاعر من الازهر ، واختار لى الشاعر « حسن العطار » .. وبدأت أتعرف على تاريخ الرجل وخلفيته الثقافية ، قبل أن ألج عالمه الفنى ..

عجائب وغرائب

وهالنى أن أجد تاريخ الرجل حافلا بالعجائب والغرائب ، فهو أستاذ رفاعة الطهطاوى رائد الفكر الحديث فى مصر ، وهو الذى اختاره اماما لاول بعثة أرسلها محمد على الى فرنسا ، ويحدثنا رفاعة الطهطاوى : أن أستاذه العطار هو الذى طلب اليه قبل

(*) للاستاذ عبد العزيز الدسوقى .

رحيله الى فرنسا أن يدون انطباعاته ومشاهداته فى تلك البلاد ، فسجلها فى كتابه « تخليص الابريز » ..

ويقول عنه : « كان للشيخ حسن العطار حظ فى العلوم العصرية حتى العلوم الجغرافية ، وانه وجد بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لابى الفداء ، وهوامش أخرى على أكثر كتب التاريخ وطبقات الاطباء وغيرها ، وكان يطلع على الكتب المعربة ، وله ولع شديد بسائر المعارف البشرية ، وله بعض تآليف فى الطب وغيره (١) » ..

وبدأت أتشكك فى الاحكام السابقة التى كونتها بصفة خاصة عن « حسن العطار » فرجل بمثل هذه التجارب الثقافية الواسعة لا يمكن أن يكون متخلف التفكير، ولا يمكن أن يكون أدبه بهذا الوصف الظالم الذى كنت أنعته به ..

ويبدو أننا نرتكب أكبر الاخطاء ، عندما نعزل الظواهر الادبية والفنية عن سياقها التاريخى ونحكم عليها أحكاما مطلقة مجردة ولهذا فقد تجردت من كل أحكامى السابقة وبدأت أعيش فى عالم العطار ..

حياة متعددة الجوانب

وقبل التعرف على عالمه العلمى والفنى لابد من وقفة قصيرة لنتعرف على حياته ، ويحدثنا صاحب « كنز الجوهر فى تاريخ الازهر » أنه ولد فى القاهرة عام (١١٨٠ هـ) وكان والده الشيخ محمد عطارا فقيرا له المام بالعلم ، وكان يستعين بولده حسن فى البيع والشراء ويستخدمه فى صغار شئونه ... ثم حفظ القرآن والتحق بالازهر وجد فى التحصيل على كبار المشايخ

---

(١) مناهج الالباب المصرية ٣٧٦ طبعة ثانية (الطهطاوى) .

كالشيخ الامير والشيخ الصبان وغيرهما حتى بلغ من العلوم فى زمن قليل مبلغا تميز به واستحق التصدى للتدريس لكنه مال الى الاستكمال فاشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها ، ولما دخل الفرنسيون الى مصر فر الى الصعيد كما فعل بعض العلماء ، لكنه عاد بعد ذلك واتصل بهم وتعلم من معارفهم ووقف على بعض علومهم وعلمهم اللغة العربية . ثم ارتحل فى تلك المدة الى الشام وأقام بدمشق زمنا واتصل بعلمائها وشعرائها

وقد تولى مشيخة الازهر بعد وفاة الشيخ الدمهوجى (١٢٤٦ هـ) وظل شيخا للأزهر حتى آخر عام (١٢٥٠ هـ) حيث انتقل الى رحاب الله ..

ويقول عنه صاحب « كنز الجوهر » ص ١٤٠ : « وساح فى بلاد كثيرة ولم يزل مشتغلا بالافادة والاستفادة حتى عاد الى مصر بعلوم كثيرة وأقر له علماء مصر بالانفراد ... وله تآليف عديدة ، منها : حاشية على جمع الجوامع فى الاصول ، وحاشية على الازهرية فى النحو ، وحاشية على مقولات السجاعى ، وحاشية على السمرقندية ، ورسالة ، فى كيفية العمل بالاسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والسائط ، وله رسائل فى الطب والتشريح وغير ذلك » (١) ..

ونحن نلاحظ أن حياة الرجل كانت غنية متعددة الجوانب فهذا العطار الفقير الذى كان يشتغل فى دكان والده تمكن من أن يصل الى قمة الحياة السياسية والعلمية ، فكان شيخا للأزهر وكان محمدعلى يستشيره فى الشئون العلمية ، وهو الذى رشح له « رفاعة الطهطاوى » ليكون اماما لاول بعثة علمية أرسلها الى فرنسا ..

---

(١) سليمان رصد الحنفى ـ كنز الجوهر فى تاريخ الازهر ص ١٤٠

ثم هو الى جانب تضلعه فى علوم اللغة والدين ، عالم بالطب والتشريح والصناعات الحديثة فى ذلك الزمان ، وله ولع شديد بالاطلاع على الكتب المترجمة ، ومن خلالها ألم بالحضارة الغربية والثقافة الفرنسية ، وبذلك يكون العطار من ألمع مثقفينا فى ذلك الزمان . وهو بهذا وحده جدير بأن يتبوأ منزلة رفيعة بين رواد نهضتنا ، ولكن العطار لم يقف عند هذا الحد بل كان له تصور جديدفى الثقافة والحياة ، لخصه فى قوله : « ان بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها» (١)

ثم يتعجب بعد ذلك كيف وصلت فرنسا الى تلك المعارف والعلوم ، ويتعجب بكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة !.. ولا شك ان هذا التصور كان يعتبر ثورة فى تلك الايام ، فالرجل يدعو الى تغيير الحياة والثقافة والحضارة ، والاستفادة من التيارات الثقافية والعلمية التي عند الامم الناهضة ..

الروح المصرية العذبة

فلا عجب أن يكون هذا الشيخ الجليل ، وهو شيخ للأزهر وامام للمسلمين ، شاعرا ، يكتب فى كل الاغراض حتى فى الحب ... ولهذا لابد من الوقوف عند تجربته الفنية طويلا ودراستها على ضوء جديد فى سياقعصرها بعيدا عن التعميمات الظالمة المسرفة ، وقد عشت فى ديوانه المطبوع عدة أيام وتمكنت من الوقوف على بعض الخصائص التى تميزه عن غيره من شعراء ذلك الزمان.

* فشعره يتمتع بتلك الروح المصرية العذبة .
* وله ولع بوصف الطبيعة بكل مظاهرها .
* ثم هو يلجأ فى بعض الاحيان الى التصوير البيانى الرشيق .

(١) على مبارك ـ الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٣٨

* وقد تخفف الى حد ما من الاعيب الصنعة .
* وقد صور شعره كثيرا من خبراته العلميــــة ورحلاته المتعددة وبطبيعــة الحال لم يخل شـعره من الاغراض التقليدية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، ولم يصل معظم شعره الى تلك الاساليب الرائعة التى وصلت اليها مدرسة البعث ، والتى أعادت الى الشعر العربى ماءه ورواءه ، ولـكنه لم ينحـط الى المحاكاة الباردة التى وصلت بالشعر الى نوع سخيف من الحيل والاعيب الصناعة ، وفى رأيى أن العطار حاول ـ قدر طاقته الفنية ـ أن يجدد فى موضــوعات الشعر ، وأن يتمرد على السابقين ، فهو لا يريد أن يبكى « بسقط اللوى بين الدخول وحومل » كما بكى امرؤ القيس ، ولـكنه يصف رياض الشام ومنتزهاتها فيقول :

بوادى دمشق الشام جزبى أخا البسط
وعرج على باب الســلام ولا تخط
ولا تبك ما بكى امرؤ القيس حوملا
ولا منزلا أودى بمنعرج الســقط
فان على باب الســلام من البها
ملابس حسن قـد حفظن من العط
هنـــالك تلقى ما يروقك منظـرا
ويسلى عن الاخوان والصحب والرهط
عرائس أشــجار اذا الريح هزها
تميل سـكارى وهى تخطر فى مرط
كســاها الحيــا أثواب خطر فدثرت
بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط

واذا كان العطار لم يتوصل الى تجديد حقيقى فى شكل القصــيدة أو مضمونها فانه قـد أحس الحاجة الملحة الى التجديد ودعا الى مخالفــة الاقدمين وعدم السير على نهجهم . وليس هذا بالشىء القليــل .. فقد

ظلت دعوات التجديد فى الشعر العربى فى مصر حتى وقت قريب مجرد تصورات نظـرية ولم تتحقق بصورة فنية الا فى ثلاثينات هذا القرن .

رؤية شعرية متقدمة

وقد كان العطار كلفا بكتابة المطولات فى شتى الاغراض

ومن قصيدة له يمدح فيها صديقه « أبا القاسم المغربى» شيخ رواق المغاربة :

انهض فقد ولت جيوش الظلام
وأقبـــل الصبح سفير اللثام
وغنت الورق على أيكهـــا
تنبـــه الشراب لشرب المدام
والزهر أضحى فى الربا ناعسا
لمـــا بكت بالطل عين الغمـام
والغصـــن قد ماس بأزهاره
لمـــا غدت كالدر فى الانتظـــام

كأنما الورقاء لمــا شـــدت
تتلو علينا فضل هـــذا الامام

ولم يقتصر شعره على هذا النمط الملون ، بل كان له شعر بعيد عن الصنعة يحاول فيه أن يصـك بعض الحكم ... يقول فى تهنئة صـديق له أبعد عن نقـابة الاشراف ثم عاد اليها :

الحمـــد لله على فضـــله
قـــد رجع الحق الى أهـــله
واض روض الفضـــل ذا بهجة
من بعـــد ما أشـــفق من محله
قد يطلب الحسناء من لم يكن
كفؤا لهـــا .. للحمق فى عقـــله

ومنها :

قد يتســاوى اثنــان فى منصب
وانما التفــريق فى ســـــبله
ويفخـــــر المرء بأفعـــــــاله
لا بالذى قــد مات من أهــله
وقــد يســود الشــخص آباءه
ويشرف الفرع على أصــــــله
وقــــد نرى فرعين من دوحــة
تخالفــا فى الحكم ، مع بطــله
فالخل والخمر عصــير وقـــد
باين هـــــذا ذاك فى فعـــــله

وفى هــذه القصيدة رؤية شعرية متقدمة تنظر الى الناس من خلال أفعالهم وسلوكهم لا من خلال طبقاتهم واحسابهم وأنسابهم .

وديوان العطار حافل بتصوير الطبيعة ومباهجها ، وقد صور بركة الازبكية وما حولها من قصور وأشجار ومسرات فى قصيدة منها :

بالازبكيـــــة طــــابت لى مسرات
ولذ لى فى بديع الانس أوقات

حيث الميــاه بها والفلك سابحة
كأنها الزهر تحويها الســــــموات
وقــــد أدير بهــا دور مشيــدة
كأنها لبــــــدور الحسن هالات
والمــــاء حين سرى رطب النسيم به
وحل فيه من الادواح زهرات
كسابغات دروع فوقهــــا نقــــط
من فضة واحمرار الورد طعنات

منارة تهتدى بها الاجيال

ثم هو بعد ذلك كله يصور نوازع قلبه وأشواق روحه

دون أن يضع فى اعتباره منصبه الدينى الكبير كشيخ للأزهر ، وقد نظم أكثر من قصيدة فى الغزل ومنها :

أعن المحب ثنـاك عنه وجيبـه
أم قد دعاك الى البعاد رقيبـه
هجر الـكرى لمـا هجرت وواصلتـ
ـه شجونه وازداد فيه نحيبه
لم يجن ذنبـا فى هواك وانما
قد كان بالهجران منك نصيبه
أفقرته من حسن وصلك بعدما
جادت عليك دموعه ونسـيبه
أفلا رثيت لعاشـق لعبت به
أيدى المنون ونازعتـه خطـوبه
أنت النعيم له ومن عجب تعذ
به وتمرضـه وأنت طبيبـه

والذى يطرق هذه المعانى ويتذلل للحبيب كل هذا التذلل ويطلب وصاله ورحمته ، ويشكو صده وهجره دون أن يخشى قالة السوء ، أو أن يضع فى حسبانه ما يجب لامثاله من الشيوخ الاجلاء من التوقر والبعد عن الريب والظنون ، لجدير أن يكون أعجوبة الاعاجيب، وخليق أن نعاود النظر فى شعره من جديد وفى ضـوء ظروفه وتجاربه وظروف عصره ، لا أن نكتـفى بتلك الاحكام الجاهزة التى نرددها فى كل المناسبات .

وأعتقـد أن القرنين الثامن عشر والتاسـع عشر فى حاجة الى مثل هذه المعاودة المتأنية فى الدراسة والحكم .

ولـكن ـ مع ذلك ، وبعد ذلك ـ سيبقى العطـار أكبر من شعره وستظل أفكاره وآراؤه فى الثقـافة والحضارة منارة تهتدى بها الاجيال ...

الأزهر ومــدارس الشعــر المعــاصر

ليس من شــك فى ان « الازهر » اصــبح من اكبر القسمات المميزة لحياتنا الثقافية والادبية والروحية ، على امتداد الارض العربية ، والعالم الاسلامى ، منـذ أكثر من ألف عام .. بل لعلى لا أغلو كثيرا اذا قررت أن « الازهر » لعب دورا هاما فى تاريخ الحضــــارة الانسانية . ومنح التاريخ الانسانى أنضر الصفحات ، وأعطى الحياة الفكرية والروحية أعظم الرجال ..

لن استطرد الى المجالات المتعددة التى أسهم الازهر فيها اسهاما كبيرا وسأقصر هــذه الدراســة على أثر الازهر فى اتجاهات الشعر بصفة عامة ومدارس الشعر المعاصر بصفة خاصة . فقد أصبح من البدهيات التى لا يمارى فيها أحد أن من بين أبناء الازهر كثيرين ممن أسهموا فى صنع نهضتنا الحديثة ، فمن بين جدرانه ومن أروقته امتلأت المدارس الحديثة والمعاهــد التى أنشئت منذ مطالع القرن التاسع عشر كمدرسة الطب والهندسة والالسن ودار العلوم والقضاء الشرعى وغيرها من المعاهد التى طورت الحياة فى مصر وانتقلت بها الى ركب الحضارة الانسانية .

ومن بين أبنائه شكلت البعثات العلمية التى وصلت الشرق بالغرب وتفتحت على المعــارف الحديثة وعادت

(*) للاستاذ عبد العزيز الدسوقى .

الى البلاد تفرس فيها تلك البذور التى أثمرت فيما بعد أشهى الثمرات ..

وفى مجال الزعامة العلميـــــة والقومية والسياسية والتشريعية تجد أشهر الاسماء التى تخرجت فى هـذا المعهد العتيد ..

كوكبة الشعراء الاعلام

على أن الازهر كان له دور كبير فيمـا يتعلق بالادب والثقافة وبصفة خاصة ما يتعلق بالشعر . وذلك بفضل التكوين الثقافى والاعداد العلمى الذى كان يتوافر لابنائه بصورة كبيرة فى مجال العلوم العربية . الى جانب الفقه والتفسير وبقية العلوم الشرعية .

وكانت طريقة التدريس فى ذلك المعهد ــ مهما شابها من عيوب ــ تكون العقل العربى تكوينا متينا ، وتربى فى الطـالب ملـكة مقتـدرة يستطيـع من خلالهـا أن يستوعب كل المعارف الانســانية مهما كانت . وكانت هذه الطريقة تصقل الطالب وتعوده الصــبر والمثـابرة والجلد وحسن التلقى والقدرة على التحصــــــيل والاستيعاب . وعندما كان يتاح لهذه العقول أن تتفتح على ثقافة حديثة أو تتصل بالحضارة الانسانية ، كانت تفيد أكبر الافادة ، وتؤثر بعد ذلك أكبر التأثير .

وكانت دراسة الشعر والعروض وتاريخ الادب ، من الدراسات التى احتفظ بها الازهر فى مختلف مراحله ، وكان الطلاب يلوذون بهذه العلوم فرارا من متون الفقه والاصول والمنطق وشروحها وحواشيها وتقاريرها .

وقد كان هؤلاء الطلاب يحفظون كثيرا من الشعر بكل أنواعه وفى كل عصوره ، جاهليا واســـلاميا وامويا وعباسيا ، ومن هنـا كانت تتكون لهم ملـكة النظم .

ويمكن ان نقول ان شعراء القرن التاسع عشر ـ كلهم أو معظمهم ـ كانوا من الازهر ، ولقد عشت فترة من الزمان فى تاريخ الجبرتى ، حتى أتبين ملامح هؤلاء الشعراء ، فهالنى أن أجد تلك الكوكبة الكبيرة من شعراء الازهر الاعلام ، ومهما قيل حول شعرهم الآن ، فانه كان متلائما مع المرحلة الحضارية التى كانوا يعيشون فيها . ونخطىء كل الخطأ ، لو حاسبناهم بتلك المعايير الفنية التى نقيس بها شعرنا المعاصر الآن ، فهذا ـ فوق كونه خطأ منهجيا ـ يفصل الظاهرة الفنية عن سياقها الحضارى ويتجاهل ظروفها وبيئتها ...

ومع ذلك فهناك عدد كبير من هؤلاء الشعراء يمكن أن نلتمس فى بعض أشعارهم اشعاعات نافذة تعبق بعطور القدم ، وتثير فى العقول والنفوس لذة ومتاعا .

((المارسيلييز)) بالعربية

ولن نستطيع أن نتتبع كل شعراء الازهر وآثرهم فى النهضة الادبية الحديثة ، والا تحولت هذه الدراسة الى مجرد سرد أسماء ، ويكفى أن نشير الى انهم طوروا ما نسميه الآن تجوزا ـ مدارس الشعر الحديث ـ أو بمعنى أدق ، أسهموا فى تطوير اتجاهات الشعر العربى عبر قرنين من الزمان . ولقد كانت لهم قيادة فكرية وروحية فى المجتمع العربى فى مصر ، ومن هنا كان يجىء تأثيرهم القوى فى الرأى العام .

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر ، كان هؤلاء الشعراء الازهريون يستخدمون الشعر سلاحا وطنيا وقوميا ، ويكفى أن نشير الى عبد الله النديم الثائر العظيم الذى كان يستخدم الشعر والزجل والكلمة ـ بصورة عامة ـ سلاحا فى معركته التى خاضها طوال حياته المثيرة

المشعة ، حتى ثوى فى أرض الغربة ، وقبل عبد الله النديم ، ترجم رفاعة الطهطاوى « المارسلييز » نشيد الثورة الفرنسية شعرا الى العربية ، ونظم بعد ذلك عدة أناشيد وطنية وثورية .

فى هذا الوقت المبكر من الزمان ظهر من شعراء الازهر الاعلام ، الخشاب وحسن العطار (١٨٣٤) وعبد الله الشبراوى ، وعلى الدرويش (١٨٥٣) ومحمد شهاب الدين المصرى ، ومصطفى الصاوى ، وعلى أبو النصر (١٨٨٠) وعلى الليثى (١٨٩٦) ، وحسن قويدر الخليل (١٨٤٥) وعبد الهادى نجا الابيارى (١٨٨٨) وغيرهم ، وغيرهم ..

طرائف وغرائب

ومن الغريب اننا نجد فى هذه الفترة المبكرة من الزمان تحررا وجرأة من هؤلاء الشعراء الاعلام من رجال الازهر ، فبعضهم وصل الى مشيخة الازهر ، وهى اكبر منصب دينى كان له سطوة كبيرة ، وتأثير جليل ، ومع ذلك وجدت لهم شعرا فى الغزل ، وبعضهم نظم ما يمكن أن نسميه الآن بشعر المجون أو الشعر المكشوف.

وقد أثار دهشتى أن أجد فى القرن الثامن عشر شاعرا من شعراء الازهر يسمى حسن البدرى (١٧١٨ م) يكتب الشعر فى مجالات مختلفة فى النقد الاجتماعى والاخلاقى الى جانب أراجيزه فى التصوف ، ثم يكتب مع هذا شعرا فى الغزل المكشوف أو بمعنى أدق يكتب « شعر المجون » ومع ذلك فقد كان هذا الرجل ورعا متصوفا كثير الانتقاد لاهل عصره وعاداتهم الفاسدة وتظاهرهم بالورع والتقوى ، وكان خفيف الظل ، بارع الفكاهة . يقول عن أدعياء التصوف :

ليتنا لم نعش الى ان رأينا
كل ذى جنة لدى الناس قطبا

ويقول عن بعض أصحاب اللحى الزائفة :

رب قصير فى الورى لحيته
طولها الله بلا فائدة !..
كأنها بعض ليالى الشتا
طويلة مظلمة باردة !..

وجهة نظر متقدمة

وهناك شاعر آخر من شعراء الازهر فى القرن الثامن عشر (١٧٧٠ م) أسمه « عبد الله سلامة الادكاوى »

وهو علم من أعلام الفكاهة والمجون ، ويحدثنا الجبرتى أن له مقامة فى المجون اسمها « المقامة القملية » ، وفيها هزل كثير .

ولكن الذى يلفت النظر فى الشاعر (الادكاوى) انه كان واسع الافق متفتح النفس ، له وجهة نظر متقدمة فى القديم والجديد ، وكان حسه المعاصر يدفعه الى تقبل كل جيد وعدم رفض أى شىء بحجة أنه لا يلتزم الصورة القديمة وقد صاغ هذه الرؤية المتقدمة فى أبيات واضحة يقول فيها :

كن للمعاصر خير ناصر
كم للأواخر من مفاخر
لا تحقرن جديدهم
كم فى جديدهم جواهر
ودع التعصب للأوا
ئل ، يا فتى ، أو للأواخر
من كان منهم مبدعا
فاعقد عليه من الخناصر

هـــــذه المرحلة المتقدمة يمكن أن نسميها المرحلة التقليدية على الرغم مما فيها من بعض اللمحات الذكية والنقدات الاجتماعية الواعية ، وبعض الشعراء المتقدمين ولقد امتدت هذه المرحلة فشملت مجموعة من شعراء القرن التاسع عشر وبعض شعراء القرن العشرين ومنهم عبد الله فكرى ، وعبد الرحمن قراعة ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وأحمد محمد الحملاوى ، وغيرهم .

الشعر والوحدة الوطنية

ومن هؤلاء الشـــعراء من هو فى حاجة الى دراســة خاصـــة تعرف به وتكشف أسرار فنه ، فقـــد ابتلع طوفان الزمان كثيرا من هؤلاء الشعراء ظلما وعدوانا . وكان يجب أن تظل أسماؤهم فى دائرة الضوء ، أو على الاقل تأخذ حظها من التألق والبريق .

ومن هؤلاء الشاعر الازهرى أحمد محمد الحملاوى (١٨٥٦ — ١٩٣٢) وهو عالم لغوى حجة وله مؤلفات ذائعة فى الصرف والبلاغة ، أخذت شهرة أكثر من اسمه منها : « زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع » ، و « شذا العرف فى فن الصرف » ..
ولـكن شهرته كشاعر عفى عليها الزمان ، على الرغم من شـــاعريته الناضجة ، وفى ديوانه المطبـــوع كثير من الشعر السياسى والقومى وشـــعر التصـــوف وشكوى الزمان، وله قصيدة يناجى فيها مصر نداء عاطفيا حارا تحس فيها بمعاصرة شديدة . يقول فيها :

يا مصر لا تقنطى فالنصر قد حانا
سبحان من أرغم الاعداء سبحانا
ولا تخافى فعين الـكل ســاهرة
فالدهر أدبنـــا جمعـــا وربانا

ولقنتنا الليالى من تصرفها
ما شان من حالة الدنيا وما زانا

وهى قصيدة طويلة حافلة بالنظرات السياسية التى تكاد تلامس همومنا المعاصرة فهو يتحدث عن الوحدة الوطنية بين أبناء الامة ، ويرفض وصاية الاعداء وحمايتهم ... يقول :

فالكل بالروح يفديها وينصرها
وان هم اختلفوا رسلا وأديانا
القلب مؤتلف والدين مختلف
لكن تراهم ــ أمام الام ــ اخوانا

ثم يقول :

فلا وربك لا نرضى حمايتهم
وان هم رفعوا للعدل ميزانا
وكيف والغدر والعدوان ديدنهم
وقد أسالوا دماء العزل خلجانا

***

وهناك شاعر آخر متين النسج قوى الديباجة هو عبد الرحمن قراعة ، وقد سبب له الشعر كثيرا من المتاعب ، فقد كتب قصيدة بعد أن ترك الشيخ المهدى مشيخة الازهر ، واصبح الشيخ الامبابى شيخا له ، يقول فى مطلعها :

خذوا حذركم فالامر قد جاء بالضد
لقد ظهر الدجال واختبأ المهدى

فنكل به الشيخ الامبابى ، وظل ينقله فترة طويلة ، وقد كتب قصيدة بعد زمان طويل يستعطف الشيخ الامبابى ، قال فيها :

أما آن أن تنسى الرباب وزينبا
وتقلع عما كان فى زمن الصبا

الم تعتبر اذ كنت أجرد أمردا
ودهم الليالى قد تركتك أشيبا

وهو استعطاف عجيب يدل على اباء الشيخ قراعة واعتداده بنفسه ...

بعد ذلك لا أبغى المضى فى استعراض أسماء الشعراء من الازهر على هذا النحو بطريقة غير منهجية ، بل لابد من تأصيل نظرى يجمع كل هذه الاسماء فيما يشبه أن يكون مدارس شعرية أو اتجاهات ... وهنا لا يمكن فصل هؤلاء الشعراء عن مدارس الشعر التى سادت فى الامة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الآن، وهى :

مدرسة البعث .
ومدرسة التجديد .
ومدرسة أبوللو .
وجيل الشعر الحديث أو جيل الشعر الحر .

وقد أمد الازهر كل هذه المدارس بأبرز ابنائها وروادها .

فكرة جديدة

وقبل أن أتعرف على أبناء كل مدرسة من هذه المدارس ، أحب أن اعرض فكرة جديدة اقتنعت بها بعد سياحة طويلة فى اتجاهات الثقافة العربية الحديثة وهى اننى أعتبر أبناء الازهر ودار العلوم والقضاء الشرعى أبناء ثقافة واحدة ، وفى مجال الظاهرة الادبية والفنية اعتبرهم جميعا أزهريين ، وأنا أعلم أن هذه الفكرة ستغضب بعض أشقائنا الدراعمة الذين يعتبرون أنفسهم الآن أبناء جامعة القاهرة ، ولكن فليغفروا لى هذا التصور الذى برز بصورة واضحة

أمامى وأنا أكتب هـذه الدراسـة عن شـعراء الازهر وأثرهم فى مدارس الشعر المعاصر .

والفـكرة على كل حال تستنـد الى أسس علميـة موضوعية ، فلا شك ان « دار العلوم » تلك المدرسـة العتيدة منـذ قامت فى عام ١٨٧١ كانت رافدا عميقـا أو فرعا من فروع الازهر ، والفرع الثانى هو مدرسة القضاء الشرعى التى أنشأها سـعد زغلول عندما كان وزيرا للمعارف فى عام ١٩٠٧ ، واذا مضينا فى التشبيه واعتبرنا الازهر هو النيل ، وهذين المعهدين هما فرعاه فاننى أعتقد أن هذين الفرعين اكتسبا حيوية وشـبابا جددت شباب النهر الام ...

فاذا بعدنا عن التشبيهات وعمدنا الى الحقائق وجدنا ان مدرسة دار العلوم منذ قامت تستمد تلاميـذها من الازهر وكذلك مدرسة القضاء الشرعى . بل ان الرعيل الاول من أساتذة دار العلوم كان من الازهر .

نذكر على سبيل المثال الحسين المرصفى ، ومحمد عبده ، وحسن الطويل ، وحمزة فتح الله ، وحسـونة النواوى ، وسليمان العبد ...

وكذلك أمد الازهر مدرسة القضاء الشرعى بصفوة من أبنائه الاعلام قاموا بالتدريس فيها منذ انشائها نذكر منهم : عبد المجيد سليم ، وابراهيم حمروش ، ومحمد بخيت المطيعى ، ومحمد طموم ، وحسين والى ..

حتى الجامعة المصرية منـــذ قامت فى عام ١٩٠٨ استضافت بين أساتذتها من رجال الازهر محمد المهدى، ومحمد الخضر ، والسيد بن على المرصفى ، وغيرهم .. لهذا اعتبر الشعراء الذين تخرجوا فى دارالعلوم والقضاء الشرعى شعراء أزهريين .

وعلى كل حال هناك سبب موضوعى يدعونى الى هذا

وهو ان هؤلاء تكونوا علميا وفنيا فى الازهر طوال تسع سنوات ، وأتيح لهم من الزاد الفنى والادبى قسط كبير صقل ملكاتهم الفنية ونمى مواهبهم الشعرية . وأظن أن ملامح الشاعرية تتكون وتتحدد فى تلك السن المبكرة من الشباب « حتى العشرين » وهؤلاء جميعا ظلوا فى الازهر الى ما بعد سن العشرين بقليل ، وذهبوا الى معاهدهم الجديدة ، وهم شعراء متكونون ... بطبيعة الحال تفتحوا على معارف جديدة ، وثقافات مختلفة زادتهم تفتحا ونموا . ولكن لون شاعريتهم ظل يدين لهذا التكوين الاول فى الازهر ..

وليس هناك شك فى أن هؤلاء أغنوا مدارس الشعر العربى الحديث ..

مدرسة البعث

ففى مدرسة البعث التى رادها البارودى وشوقى وحافظ ، يمكن أن نضيف محمد عبد المطلب ، وعبد الوهاب عزام ، وعلى الجارم ، ومحمود غنيم ، ومحمد الاسمر ، وعلى الجندى ، وعبد الله عفيفى ، وعبد الجواد رمضان، والباقورى، ومحمد نايل ، والبديوى، و « أبو الخشب » ، والخفاجى ، وغيرهم ، وغيرهم .

مدرسة التجديد

وأما مدرسة التجديد التى رادها العقاد وشكرى والمازنى فيمكن أن نضيف اليها العوضى الوكيل ، وأحمد مخيمر ، وعبد العزيز غتيق ، وغيرهم ..

مدرسة أبوللو

وفى جماعة أبوللو التى رادها على محمود طه ، وابو شادى ، وناجى ، والصيرفى ، وصالح جودت ، وتلألأت

مجموعة من ألمع أبناء هذه المدرسة من الازهر ودارالعلوم منهم محمود حسن اسماعيل ، ومحمد عبد الغنى حسن ، وطاهر أبو فاشا ، وأحمد عبد المجيد الغزالى، والمهدى مصطفى ، وغيرهم ..

جيل الشعر الحر

وقد جاء بعد جيل أبوللو جيل جديد من الشعراء يطلقون عليه جيل الشعر الحر ...

وقد رفد الازهر ودار العلوم هذا الجيل بصفوة من أبنائه اعتبرهم أقدر شعراء هذه المدرسة الحديثة التى تتخذ من التفعيلة وحدة لبناء القصيدة وتحاول أن تدخل على القصيدة أصواتا متعددة وتفيد من أشكال فنية أخرى فى تنسيق القصيدة ، وتتخذ من الاسطورة والموروثات الشعبية رموزا تغنى القصيدة ..

هؤلاء الشعراء الذين تكونوا فى الازهر ودار العلوم وتفتحوا على هذا اللون الجديد من الشعر أو هذا النسق ، أظهروا مقدرة فنية هائلة لانهم يملكون الادوات الفنية ويمزجون فى تكوينهم العقلى والروحى أنضج ما فى التراث بأبهى ما فى الثقافة المعاصرة ، لذلك خلا ابداعهم الفنى من هذا الغموض الكثيف الذى يصل الى درجة الالغاز، ومن هذه العجمة وتلك الركاكة التى تحيل القصيدة الى ما يشبه الترجمات الركيكة ، واذا كان هذا الجيل قد أنتج موجتين متعاقبتين فان أبناء الازهر ودار العلوم قد قادوا هاتين الموجتين ، على الرغم مما يوضع فى سبيلهم من عقبات ، ومما يتربص بهم من اضطهاد جعل بعضهم يحسون أنهم « زنوج الثقافة العربية » ..

قاد الموجة الاولى عبده بدوى ، وسعد دعبيس ،

وفاروق شوشة ، وكيلانى سند ، وغيرهم ...

وقاد الموجة الثانية محمد ابراهيم أبو سنة ، وكمال عمار ، ومحمد أحمد العزب ، وأنس داود ، وغيرهم .

وأنا أعتبر عبده بدوى همزة الوصل بين جيل أبوللو وهذا الجيل الجديد بل لعله أسبق شعراء المدرسة الحديثة ــ فى مصر ــ ابداعا فى هذا اللون من الشعر بل نشر شعرا فى جريدة المصرى قبل صلاح عبد الصبور

ثم هو دائما يبحث عن آفاق جديدة يستثمر فيها هذا اللون الجديد من الشعر فمرة يكتب « أوبرات » مثل اوبرا الارض العالية ، ومرة يكتب « قصيدا سيمفونيا » يتناول فيه حياة النبى العربى عليه السلام ومرة يحيل المواقف الاسلامية والاحداث والشارات والشخصيات رموزا يستعملها برشاقة وفنية ، ولذلك آن الاوان لان نقول أن رائد هذه المدرسة الحديثة فى مصر هو عبده بدوى ، ثم هو لم يهجر عمود الشعر العربى بل يبدع فيه أيضا كثيرا من نتاجه ، وحتى وهو يبدع فى هذا اللون الجديد يقبع فى أعماقه هذا التراث العربى كله يشكل تجربته ويمنحها الاصالة والعمق .

***

تلك هى أهم المدارس الشعرية المعاصرة ، وهذا هو الاثر الكبير الذى أحدثه الازهر فيها ، وتلك بعض الاسماء من أبنائه التى كان لها أعمق الاثر فى تطوير شعرنا الحديث ولا يمكننى أن أتناول كل هذه الاسماء بالدراسة التفصيلية . فحسبى تلك الاشارة .

ولكن لابد من الوقوف عند شخصيتين من أكبر شعراء مدرسة البعث انسحبت عنهما الاضواء فى الاعوام الاخيرة وهما الشاعران على الجندى ، ومحمد الاسمر . فهذان الشاعران من أعذب الاوتار فى قيثارة

شعرنا المعاصر وهما شخصيتان من أعذب الشخصيات فى عالم الفن .

صاحب « ترانيم الليل »

أما الشاعر على الجندى فهو نسمة من أرق النسمات ، روح عذب ونفس وديعة صافية ، وقلب يفيض بالحب والرحمة والحنان ويحتدم فى باطنه شخص مقتحم غزل يحب الجمال ولكنه يقمعه بهذا المظهر الوديع الهادىء النبيل .

ولد فى شندويل من أعمال سوهاج وحفظ القرآن ودخل الازهر ثم دخل دار العلوم وتخرج فيها وعمل مدرسا بالمدارس ثم مدرسا بدار العلوم ثم ظل يترقى حتى صار عميدا لكلية دار العلوم .

وقد أصدر ثلاثة دواوين من الشعر هى « أغاريد السحر » فى عام ١٩٤٧ ، و « ألحان الاصيل » فى عام ١٩٥٠ ، وأصدرت دار المعارف فى عام ١٩٦٤ ديوانه الثالث « ترانيم الليل » .

وشعره رصين جزل قوى البناء فيه كثير من الماء والرواء . يمتاز شعره كما يقول الدكتور شوقى ضيف فى مقدمة ديوانه الثالث : « بجزالة الصياغة ورصانتها ومتانتها وقوتها . وقد تجرى السهولة المفرطة فى بعض جوانب صياغته ولكن يظل الرونق لا يفارقها وتلازمها العذوبة والسلاسة ... ويوقع الشاعر ترانيمه وألحانه على أوتار قيثارتنا الشعرية الموروثة عن الآباء والاسلاف والتى تهزنا وتروعنا بما تقدمه لنا من غذاء للعقول ، وشفاء للقلوب والنفوس » .

والشاعر مرهف النفس رقيق الشعور ثرى العواطف ظاهره كعاطفة تلوح على صفحة وجهه كل التيارات

التى تمور فى باطنه ... يتحول الى دموع لمجـرد أن يرى منظرا مؤلما أو يرتطم بعقبات الحياة ، ثم هو رجل متدين شديد الاعتماد على الله ...

صورة نفسية

وقد رسم لنفسه لوحة نفسية تكاد تكون مفتاح قلبه وعقله يقول :

لـكل امرىء جهر يخالف سره
وما لى من سر يخالفه جهرى ...
تطالع فى وجهى صحيفة خاطرى
وتقرأ فى عينى ما جال فى صدرى
خلقت كعيسى لا أجن ضـغينة
بقلبى ولا أطوى ضلوعى على غدر

ثم هو دائم الشكوى والحزن والالم يشـكو ظروف حياته . ويشكو حظه . ويتألم لشعرات بيضـاء تلم برأسه ، يقول من قصيدته « بين الرأس والقلب » :

شـعرات فى مفرق الرأس لاحت
كنجـــوم تضىء فى الديجور
تركتنى فى نضرة العمـــر أبكى
ذكريات الصبـــا بدمع غزير
وكستنى ثوب الوقار وهل أسمج
فى العين من وقار الصـــغير
يا لظـــلم الايام اذ وقفتنى
بين رأس شـــيخ وقلب غرير
ذاك يدعو الى الرشـاد وهـذا
مســتهام بكل وجه نضـــير

أما الغزل فله فيه جولات وصولات وكلها لا تتعدى وصف تجاربه مع الفاتنات الحسان وتجاربه عادة تقف

عند النظر الابيض البرىء ، وفى شعره الفكاهى سخرية نافذة تصل الى درجة الايلام. يقول فى «بعض الثقلاء» :

ثقيل على أرواحنا ثقل الحجر
نلقبه من شؤمه « زحل البشر »
تغيب بشاشات المنى بحضوره
وتهجر أحزان النفوس اذا هجر
كأن ثلوج القطب حشو ثيابه
فان هو وافى كاد يقتلنا الخضر (١)
ترى الصحب منه مشفقين كأنما
تساورهم من قربه الحية الذكر
فان لمحوه من بعيد تغامزوا
ولاذوا سراعا بالاخاديد والحفر

وهو دائم الحنين الى ماضيه . وله قصيدة نافذة بعنوان « مغنى الصبا الاول » من أرق الشعر المعاصر وهى تجربة عميقة عاد الشاعر فيها الى حجرة كان يسكنها فى أيام التلمذة فوجدها ساحة خرابا يبابا تتناثر فيها الحجارة وأكوام الصبا فراح يناجيها فى انفعال عميق :

أمغنى الصبا والصبا أخضر
حبا فوقك العارض المطر

وعلى الرغم من أن الشاعر كتب فى كل الاغراض الشعرية بمقدرة واصالة الا أن شعره الذى رثا فيه أصدقاءه من أعمق ألوان الشعر عنده تحس فيه ذوب الدموع ونبض القلب وصدق العاطفة .

وله شعر يعبر عن تمرده وثورته على واقعه وله قصيدة بعنوان « ليتنى كنت صفيقا » يقول فيها :

---

(١) البرد

سر تعسى وخيبتى وشقائى
أننى حامل محيا رقيقا

ونحن لا نوافق الشاعر بطبيعة الحال على هذه السخرية النافذة . ونعتبر أن هذه الخلال النبيلة والاخلاق الفاضلة والمنزلة العلمية الرفيعة والطبيعة الانسانية السمحة ، كل هذه السجايا التى يتمتع بها شاعرنا الكبير هى التى جعلت منه هذا الصرح الشامخ الذى سيخلد على الزمان .

سجل حافل بالامجاد

أما الشخصية الثانية التى سأقف عندها فهى شخصية الشاعر المرحوم محمد الاسمر ، وهو شاعر من شعراء البعث الكبار ، تمرس بالشعر فترة طويلة من الزمان وهو شخص مصقول النفس والذوق والسمت ، مرح خفيف الظل ، بارع النكتة ، صافى الطبع ، دمث الاخلاق ولد فى دمياط وتعلم فى الازهر واشتغل فى مكتبة الازهر ، وظل لهذا متفرغا للشعر. وقد أصدر ديوانه الكبير بعنوان « ديوان الاسمر » فى عام ١٩٥١ فى نحو ٦٦٠ صفحة وضع فيها عصارة قلبه وذوب نفسه ونبض وجدانه .

وقد وصف الشيخ مصطفى عبد الرازق شعره بقوله : « لشعرك تأثير فى نفسى أحسبه يفوق ما يفعل الشعر، ذلك إنه فيض نفس أحبها . وقد يكون سحرا ذلك الذى ترسله نغما موسيقيا فى أسلوب سهل قيسرى فى الارواح ويفجر العواطف خلالها تفجيرا » .

والحق ان ذلك السحر الشجى الذى نشعر به ونحن نعيش مع تجارب الاسمر الشعرية ثمرة من ثمار موهبته

الـكبيرة التى امتزجت بأدواته التعبيرية والتصـويرية وأخرجت لنا هـذا الفيض الشعرى العميق . وديوان الشاعر سـجل حافل لحياة الامة العربية بأمجادها السياسية والاجتماعية . وتصـوير لمعالم الحياة فيهـا ووصف لمظاهر الطبيعة . ثم فيه الـكثير من الاخوانيات والمداعبات التى تنم عن نفس مرحة وذوق رفيع ، ولكنه كان يعبر أحيانا عن تجاربه الذاتية واحساسـه الحاد بالحياة فيجىء شعره فلسفيا نابضا بالمرارة والالم، يقول فى قصيدة له بعنوان « أسير » :

أنا كالطـير أسـير
واقع بين الشبـاك
طـال ما بين جناحى
وحبـالى من عراك

***

ويكاد يكون من أوائل الشعراء الذين صوروا مأساة الحرب العالمية الثانية أدق تصـوير فى مجموعة من القصائد الحارة . فكتب « قبل الحرب العالمية » وكتب عندما قامت الحرب وكتب عن المخابىء « وليالى الغارات الجوية » ويقول فى هذه القصيدة الاخيرة :

وناعبة فى الليـل يسرى نعيبها
تحذر شر الطـائرات وتنـذر
نهضنـا لها متيقظين وعلمت
أخا القوم فيما علمت كيف يسهر
ونطفىء أو نخفى المصابيح نتقى
عواقب بعض النور والنجم ينظر
ولو ناله ما نالنا لم تلح له
مصابيح مثل الروض وهو منور
وبات كما بتنا على شر حالة
نعانى ظلام الليـل والليـل أعكر

وقد خص فلسطين بباب كبير من ديوانه ، وفى شعره الروحى تتجلى قدرته الشعرية وطاقته الفنية .

***

وقد كتب الشاعر فى مقدمة ديوانه تجربته وهو يبدع قصائده فى دقة تفيد الباحث يقول : « وانى فى أول نظمى للقصيدة أجدنى مسوقا الى نظمها بشعور خفى ليس فيه ما يرهق أعصابى ، ثم يأخذنى التيار الجارف فيربد وجهى ، واظل ذابل البصر ، غائبا بعض الغياب عما حولى . وفى هذه الحالة اذا نمت كان نومى متقطعا اغفو الاغفاءة ثم أقوم ناهضا الى القلم والقرطاس ، لان معنى من المعانى تمت صياغته بيتا من الابيات وانه ليخيل الى أن مخى فى أول عمل القصيدة ، انما هو « ساعة » أملؤها . وهو بعد ذلك يؤدى عمله بنفسه . ولا سلطان لى عليه « كما تؤدى الساعة عملها » .

وفى هذه اللمحات مفاتيح نفسية كثيرة يمكن من خلالها أن نقوم بدراسة الشاعر وتجربته الشعرية على ضوء من التحليل النفسى .

الفنانون والأزهـر

قد يبدو فى عنوان هذا المقال بعض الغرابة أو بعض المبالغة . فما هى الصــلة بين الفن والفنــانين ، وبين الازهر المعمور ؟ !

ولــكن دعنى أقل لك شيئا تحت هــذا العنوان ، فلعلك تجد فى آخر الامر أن الفن المصرى ينتسب الى الازهر نوعا من الانتســاب لا غرابة فيه ، وان لبث الازهر طوال عمره المديد جامعة لعلوم الدين واللغــة والادب وحدها ، واتخذ الفن طريقا مستقلا خاصا .

وحديثنا كله فى هــذه الصــفحات مقصور على فن الغناء ، وأهل هذا الفن فى عصر يمتد أكثر من مائة عام ، وكلهم انتسب الى الازهر بالتعلم فيه أو التعلم منه ، أو الاقتباس مما يبعثه خارج جدرانه من النور على سائر الناس .

والغناء ــ كما نعرف ــ يخصه العرب بالحب الشديد منذ الزمان الاول ، وقد ارتبطت أصوله وقواعده منذ ألوف السنين بالشعر العربى ، بل حتي بالكلمة العربية المفردة ، فضلا عن التفعيلة فى الشعر ، وفضلا عن بحوره المتكاملة التفعيلات والاوزان ..

وتفعيلات الشعر العربى فى صميمها ، هى ايقــاعات ميلودية « مفردة » قائمة على سلم الغنــاء العربى أو

(*) الاستاذ كمال النجمي

الموسيقى العربية . ولو تمردت هـذه التفعيلات على الايقاع العربى لخرجت تماما من الاوزان العروضية العربية القائمة على الصـوت العربى ، وعلى أجزائه الدقيقة التى يسميها سادتنا الموسيقيون « ثلاثة أرباع الصوت » .. ويسمونها أحيـانا ــ للاختصار ــ ربع الصوت ..

والـكلمة العربيـة المفردة كذلك لا تحيد عن هـذه القاعدة ، فان اشتقاق المفردات العربية أساسه التوزين الصوتى فى سلم الموسيقى العربيـة .. وبهذا تختلف اللغة العربية ــ اذ تقوم على الاشتقاق ــ عن اللغـات الاوربية القائمة على النحت ويختلف شعرها عن شعرها ، وغناؤها عن غنائها ..

ومهما قيل عن تطوير الموسـيقى العربية ، فان الحقيقة الثابتة هى أن الـكلمة العربية ايقاع .. وبحر الشعر ايقـاع .. والوزن اللغوى والوزن العروضى مرتبطان أوثق الارتباط بالوزن الموسيقى ..

وهذا الامتزاج الحميم بين الغناء والشعر ، متصـل من قديم بأسباب أصيلة عميقة فى تاريخ الانسـان العربى ، فلا سبيل الى التفريق بينهما ، الا اذا هجر الانسان العربى لغته وتكلم باللسان الرومى .. مثلا !

وهذا هو السر فى أن فن الغناء العربى قد تطور فى عهده الذهبى ــ أيام العباسـيين ــ وازدهر واستبحر على أيدى موسيقيين ومطربين كانوا ينظمون الشعر أو يتذوقونه تذوقا صحيحا كاسحاق الموصـلى وأبيـه ، وابراهيم بن المهدى وابن جامع ومخارق وغيرهم ..

الشيخ محمد شهاب

ولمـا أخذت الامة العربية تنهض وتسترد شخصيتها

بعد حملة نابليون على مصر فى آخر القرن الثامن عشر، مست النهضة العربية الغناء والشعر معا . وحمل لواء هذه النهضة فى الغناء والشعر جماعة من النوابغ انتسبوا الى الازهر درجات متفاوتة من الانتساب ..

وظهر فى هذه الفترة فنان موسيقى — وشاعر أيضا — لا ينساه الموسيقيون العرب ولا ينسون فضله فى احياء التراث العربى العريق فى الغناء ، وهو الشيخ محمد شهاب الدين الذى ظل يبحث وينقب فى الموشحات الاندلسية التى أوشكت أن تندثر حتى جمع منها مئات مختلفة المقامات والايقاعات ، دونها فى كتابه المعروف باسم « سفينة شهاب » وقد اطلع على هذا الكتاب وتعلم منه جميع فنانى الغناء العربى الرواد فى السنوات المائة الماضية ..

تلاميذ شهاب

وفوق « سفينة شهاب » عبر تلاميذه ومريدوه بحر الغناء البدائى الذى كان قد حل فى عصور التدهور القومى السالفة محل الغناء العربى الحضارى بعد اندثاره على يد هولاكو عند تدميره بغداد ، ثم اندثار ما تبقى منه عند سقوط غرناطة فى أيدى القشتاليين فى آخر القرن الخامس عشر وانطواء صفحة العرب فى الاندلس ..

واقبل جماعة من خريجى الازهر او ممن حضروا بعض دروس الازهر ، أو أخذوا عن الازهريين بعض العلم ، فأكثروا من تأليف القصائد والازجال وتلحينها وانشادها .. وكان هؤلاء الطليعة التى أعادت الغناء العربى الى أسلوبه الحضارى الاول ، بعد أن طغت عليه الاغانى الغجرية والعثمانية والفارسية وغيرها مئات

السنين وأوشكت مقاماته وايقاعاته وأساليبه أن تضيع لولا ما بقى منهـــا فيما استخدمه الفنون الشعبيون والفلكلوريون المجهولون فى أغانى الافراح والاناشيد الحزينة فى الحقول أو فى الاعمال الحرفية بالمدن ، أو فى انشاد قصص أبى زيد الهلالى وما اليها ..

وهكذا كان لهؤلاء المشـــايخ ذوى الفطرة الفنية الحساسة النابغة أكبر الاثر فى رد الغنـــاء العربى فى أسلوبه الكلاسيكى أو الحضارى الذى كاد يندثر .. وارتبط عملهم العظيم فى هذا المجال بالنهضة الشاملة فى الشخصية القومية للأمة .. وكان فضل هؤلاء الفنانين المشايخ على الغناء ، قريب الشبه بفضل محمود سامى البارودى على الشعر .. وتحرر الغناء العربى من آثار عصور التدهور القومى التى عبثت بكل تراث عربى ، فنى أو أدبى ..

ولا يثير دهشتنا الآن ارتباط نهضة الغنـــاء العربى بنهضة الشعر العربى ، فى زمن واحد ، فان الغناء ــ كما أسلفنا ــ هو قرين الشعر عندنا نحن العرب . كما لا يثير دهشتنا أن المشـــايخ هم الذين أنهضوا الغنـــاء وأنهضوا الشعر معا ، فان المشائخ كانوا خلاصة مثقفى الامة الغيورين على تراثها القومى .. واذا تذكرنا اليوم أساتذة البارودى فى الشعر والادب ، قلنا ــ بلا حرج ولا مغالاة ــ أن البـــارودى « المطربش » كان شـــيخا بتخرجه فى الادب والشعر على أيدى الازهريين وكتبهم .

الحامولى وشيوخه

واذا استقصينا ماصنعه الفنانون المنتسبون بثقافتهم الى الازهر ، فى مجال نظم الاغنية وتلحينها وغنائها ، فضلا عن تلحين القطع الموسيقية من بشارف ودواليب

وسماعيات ولونجات وتحميلات ، لما اتسعت لنا هذه الصفحات. فلعلنا نقنع باستعراض سريع ولكنه شامل بقدر الامكان لهؤلاء الفنانين وأعمالهم .

وقد نبلغ هدفنا هذا اذا بدأنا بأكبر مطرب عرفه العصر الذى بلغ فيه الفنانون المنتسبون بثقافتهم أو زيهم الى الازهر ، قمة فى النضج الفنى ما زالت تثير اعجابنا كلما سمعنا ما تنشده فرقة الموسيقى العربية من تراث هؤلاء الفنانين الموهوبين ..

كان عبده الحامولى أكبر مطربى ذلك العصر الذهبى ـ منذ مائة عام تقريبا ـ ولم يكن أزهريا بنشأته ولكنه اكتسب علمه ورهافة حسه من الازهريين ، وغنى أشعارهم وألحانهم ، فنظم له أغانيه عدد من المشايخ ، من بينهم الشيخان على الليثى وعلى أبو النصر ـ وكانا من أشهر أهل زمانهما ـ والشيخ عبد الرحمن قراعة مفتى مصر حينذاك ، والشيخان محمد الدرويش وأحمد وهبة وكانا من أشهر مؤلفى الاغانى ..

وألف الاغانى ولحنها لعبده الحامولى شيوخ آخرون، مع ان الحامولى نفسه كان من أكبر الملحنين ، لان الفن كان مرتبطا بأولئك الفنانين الدين انتزعوا بأعمالهم الفنية الكبيرة احترام مجتمعهم ، فانضم اليهم فى التأليف للحامولى ، اثنان من أشهر باشوات العصر وهما محمود سامى البارودى واسماعيل صبرى ..

الشيخ المسلوب

وممن لحنوا للحامولى الشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب الذى كان فى عصره من أعظم الملحنين .. وقد تعلم فى الازهر ثم اشتغل منشدا فى الموالد ، ولما نضجت موهبته اتجه الى الغناء والتلحين ، وبرع فى

تلحين التواشيح حتى قيل أن أحدا من الملحنين لم يبلغ مستوى الاندلسيين فى تلحين التوشيح كما بلغه الشيخ محمد المسلوب ..

واشهر ما بقى لنا من تواشيح الشيخ المسلوب ، توشيح « لما بدا يتثنى » الذى يعتبر مثالا فى دقة الصنعة وحلاوتها وسهولتها وامتناعها.. وقد جمع هذا التوشيح صورا كثيرة للموسيقى والغناء العربى ، ويتمثل فى صيغته أو « فورمته » أرقى مابلغته الموسيقى الاوربية ، وهى صيغة « الروندو » .. ويتفق تكوينه الفنى مع الموسيقى العربية فى الوقت نفسه اتفاقا سليما ، وتتمثل فى نغماته وايقاعاته مقدرة الشيخ المسلوب الفائقة ، حتى لقد ذهب بعض من هالتهم دقة وحلاوة هذا التوشيح الى القول بأنه من التواشيح الاندلسية القديمة لا من تلحين الشيخ المسلوب .. ولكن « الادوار » التى لحنها الشيخ المسلوب لا تقل روعة عن تواشيحه ، فهل كانت هذه الادوار أيضا من تلحين الاندلسيين ؟ !

الشيخ المنيلاوى ورفاقه

وكثر بعد انقضاء أيام الحامولى أهل الفن من ذوى النسب القريب الى الازهر أو النسب البعيد ، فكان من بينهم مطربون وملحنون وعازفون على العود والقانون والناى ..

ووثب الى قمة فن الغناء الشيخ يوسف المنيلاوى ذو النشأة الازهرية ، وقد غنى من الحان الحامولى كما غنى من الحان الشيخ المسلوب والمشايخ الآخرين..
واستفاد الشيخ المنيلاوى من غناء الالحان الكثيرة المتقنة التى خلفها الملحن الكبير محمد عثمان ــ توفى

سنة ١٩٠٠ — لمطربى بدايات القرن العشرين ، حتى نسبت بعض هذه الالحان الى المنيلاوى ، ولكن المنيلاوى كان حريصا دائما على أن ينسب هـذه الالحان الى صاحبها رحمه الله .. وهكذا كانت أخلاق ذلك الرعيل من الفنانين الاصلاء ..

وعرف عصر المنيلاوى كثيرا من المغنين والملحنين والعازفين البارعين ، كالشيخ سيد الصفتى ، والشيخ محمد الشنتورى ، والشيخ خليل محرم ، والشيخ على القصبجى — والد الملحن الكبير محمد القصبجى — والشيخ أحمد ادريس .. وبدأ « الافندية » يتكاثرون بين المشايخ ، فكان أشهر المطربين الافندية عبد الحى حلمى ، ومحمد أفندى سالم العجوز الذى لم يكن أفنديا الا بالطربوش على رأسه . أما زيه فكان أزهريا .. وقد عاش الشيخ العجوز أو العجوز أفندى الى سن المائة أو فوقها بعشر سنوات — كما يقال — ولبث طوال هذا العمر المديد يغنى !

الشيخ سلامة

وفى ظل هؤلاء الفنانين الموهوبين نشأ شيخ آخر ملأ صيته الآفاق هو الشيخ سلامة حجازى الذى استبدل بالزى الازهرى زى الافندية ولكنه ظل يحمل لقب « الشيخ » الى آخر حياته ، وبعد حياته ، لان نشأته كانت دينية .. وكان مؤذنا فى شبابه .. فلما احترف الغناء أحدث فيه انقلابا ، لانه لم يكتف بالغناء فى الافراح والحفلات الخاصة ، بل أنشأ مسرحا غنائيا ، ونقل الغناء من الصالونات والسرادقات الى المسرح ..

ولم يكن مسرحه فى الحقيقة مسرحا غنائيا بالمعنى الفنى الذى نعرفه الآن ، بل كان مجرد اتجاه الى المسرح

الفنائى من ناحية الشكل ، وبقيت الحانه المسرحية على الوضع الفنى القديم : مجموعة من الادوار والاغانى ، وكان يغنى على المسرح كل ما يطلبه منه المتفرجون بغض النظر عن سياق المسرحية وقصتها ، فاذا طلبوا - مثلا - ليالى ومواويل ، قطع التمثيل وغنى لهم ما طلبوه حتى يكتفوا ، ثم يعود الى ما قطعه من مسرحيته وحكايتها ..

الشيخ سكر والشيخ على

وبرغم ظهور « المسرح الفنائى » فى ذلك العهد ، فان المشايخ استمروا فى مذهبهم الفنائى ..

بعضهم ، كالشيخ اسماعيل سكر استمر فى طريقة «الانشاد» فى الموالد ، وقد تتلمذ على يديه «مطربون» استفادوا من طريقته المحكمة فى الانشاد ، كما تتلمذ على يديه ملحنون كان من أبرعهم وألمعهم الشيخ زكريا أحمد ..

واذا كان الشيخ اسماعيل سكر هو امام المنشدين فى عصره ، فان الشيخ درويش الحريرى كان أستاذ الملحنين والمطربين، وقد تتلمذ على يديه كثير من الاصوات الرجالية والنسائية ، وله « تركة » لا يستهان بها من الالحان ، ولكن دوره الحقيقى كان دور الاستاذ لمطربى وملحنى عصره ..

ويمكن اعتبار الشيخ على محمود امتدادا للشيخ اسماعيل سكر فى الانشاد ، ولكن الشيخ على محمود، غنى أيضا واعتبره معاصروه مغنيا وملحنا لا مجرد منشد أو « موالدى » بارع كسلفه الشيخ سكر ..

ومن يستمع الآن الى قصيدة « يا نسيم الصبا تحمل سلامى » التى سجلها الشيخ على محمود على اسطوانة

قبل أربعين عاما ـ وهى تمثل مذهبه الفنى خير تمثيل ـ يجد أن الشيخ علىمحمود قد خطا الىالغناء خطوة ، ولكنه لم يقطع صلته بالانشاد كما كان معروفا عند الشيخ اسماعيل سكر ..

وعلى يد الشيخ على تتلمذ الكثيرون من مطربى وملحنى العشرينات والثلاثينات ، بل تتلمذ عليه أيضا محمد عبد الوهاب الذى أصبح زعيم التجديد فى الغناء العربى الحديث ، وقطع كل صلة بفن الانشاد القديم .

وفى عصر الشيخ على كان الشيخ أمين حسنين أو «حسانين» يحاول أن يجارى المطربين أكثر مما يجارى المنشدين .. وتكاد بعض الاسطوانات الباقية لنا من الشيخ أمين حسنين توهمنا بأنه كان من المطربين « الافندية » لنزوعه الى « التجديد » فى بعض أغانيه نزوعا شديد الوضوح .. ويبدو أن السبب فى ذلك أن عبد الوهاب كان قد سيطر على الاسماع بطريقته الجديدة ، وكان لابد لمن يريد أن يعيش فى أسماع الناس ، من مجاراة هذه الطريقة بما فى وسعه !..

ومع ذلك ، بقيت طريقة الشيخ علىمحمود فىالانشاد الى اليوم عند المخضرمين أمثال الشيخ محمد الفيومى الذى يغنى لنا الى اليوم أو ينشد بطريقة الشيخ على ، ويكاد أحيانا لا يخرج عنها قيد أنملة ، فتذكرنا جودة أدائه وحلاوة صوته بما كان فى سالف الاوان من شيخه النابغة الموهوب ..

الشيخ أبو العلا

وللشيخ أبوالعلا محمد صفحة خاصة فى الغناء العربى خلال نهضته المعاصرة ، لانه كان أستاذ كوكب الشرق أم كلثوم فى بداية حياتها الفنية ..

ومن المصادفات العجيبة أن قصيدة « وحقك أنت المنى والطلب » التى لحنها وغناها الشيخ أبو العلا ناسجا فيها على منوال عبده الحامولى ، هى من تأليف الشيخ عبد الله الشبراوى الذى كان شيخا للأزهر فترة من القرن الثامن عشر ، وكانت له قصائد وتواشيح غناها مطربو عصره ..

وبعد آن غنت أم كلثوم هذه القصيدة وغيرها من ألحان الشيخ أبوالعلا محمد ، اتجه الشيخ الى التدقيق فى أقامة التوافق بين الكلام والالحان ، فأخرج تحفته الرائعة : « أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا » .. غنتها أم كلثوم منذ أربعين سنة فكانت من أجمل الالحان التى تكامل فيها التوافق بين الشعر والغناء .. فقد وضع الشيخ أبو العلا الكلام واللحن فى وعاء واحد ، وأتاح للصوت أن يستعرض كل قوته وجماله واقتداره .. وعلى هذه الصورة الرائعة كان الغناء العربى الاصيل فيما حدثنا به أبو الفرج الاصبهانى فى كتابه «الاغانى» .

وأسهم الشيخ أبو العلا ـ من خلال صوت أم كلثوم ـ فى تخليص الغناء العربى نهائيا من العجمة العثمانية والفارسية والغجرية التى عبثت بحناجر المطربين والمطربات فى مصر والبلاد العربية مئات السنين ..

ولم تكن هذه الوثبة الفنية فى الغناء العربى مستمدة من الغناء الاوربى ، بل كانت قائمة على انبعاث الطريقة العربية الحضارية فى الغناء .. وكان صوت أم كلثوم من أهم العوامل التى جعلت نجاح هذه الوثبة مؤكدا ولا جدال فيه ..

الشيخ سيد درويش

ولا داعى بطبيعة الحال للافاضة فى الحديث عن

الشيخ سيد درويش ، فان الكلام عنه يتجدد عودا على بدء بلا انتهاء .. حسبنا أن نقول عنه فى هذه الصفحات انه لم يدخل الازهر ، ولكنه تعلم فى الكتاتيب التى كانت تعد تلاميذها للالتحاق بالازهر .. وارتدى العمامة والقفطان وعاش الى أخريات حيـــاته شيخا بالاسم والمظهر ، ولم يتطربش ويتفرنج فى ثيابه الا فى السنوات القلائل الاخيرة من حياته القصيرة الحافلة ..

كان الشيخ سيد درويش موهوبا بكل معنى الكلمة ، فاستوعب فى عمره القصير تراث الغناء ، وصنع مئات من الادوار والتواشيح والطقاطيق والمونولوجات مازالت تحير سامعيها بدقة صنعها وجمال تركيبها ، وقد أتم سيد درويش أكثر هـذه الاعمال الفنية العظيمة التى توجها بألحانه المسرحية ، وهو دون الثلاثين من عمره ، ولما مات قبل أن يبلغ الثانية والثلاثين ، كانت غزارة انتاجه تلحينا وغناء قد ساوت بينه ، من حيث الكم ، وبين من عاشوا الى ما بعد الستين من ملحنى عصره ، وتفوق على الكثيرين منهم بموهبته غير العـــادية وابتكاراته ..

ولم يكن سيد درويش بلا أساتذة كما يتصور بعض محبيه ومريديه ، لانه علم نفسه بالاستماع الى ألحان كبار الملحنين ، كما استفاد من الشيخ على ابراهيم ضارب الدف ، أو « الرق » الذى كان حجة فى الادوار والموشحات ، بصيرا بالايقاعات والمقامات ، فألحقه سيد درويش بفرقته وتلقن منه كل ما استطاع أن يتلقنه ، وأضافه الى محصوله القديم من ملحنى مصر والشام ..

وممن يذكر فى مجال العلم بالادوار والتواشيـــح والايقاعات والمقامات الشيخ محمود صبح الذى عاش الى بداية الاربعينات وكان فضلا عن كونه حجة فى العلم

بالالحان صاحب صوت من أوسع الاصوات مساحة ..

الشيخان زكريا والقصبجي

بقي شيخان هما : زكريا أحمد ومحمد القصبجي.. كلاهما لبس العمامة والقفطان ، ونشأ فى الازهر أو على مقربة من الازهر ، ثم تحول الى الفن وبرع فيه ووهب له حياته ..

لم يتح لزكريا أحمد أن يمضى فى دراسته الازهرية الا قليلا ، ثم انضم الى بطانات المنشدين ، ودخل فى فرقة الشيخ اسماعيل سكر ، وتعلم منه الكثير ، ثم تتلمذ على يد الشيخ الحريرى.. واشتغل زكريا بالغناء والانشاد والتلحين وهو بعد شيخ لم يتحول الى زى الافندية ، ولما تحول الى هذا الزى لم يفارقه لقب « الشيخ » فعاش الى آخر حياته يحمله سعيدا به فخورا ..

والشيخ زكريا الذى توفى منذ سنوات قلائل ، كان بقية الرعيل الاول الذى جدد الغناء العربى والموسيقى العربية ، وكان فى ألحانه أمة وحده ، لا ينازعه طريقته أحد ..

عاش زكريا أحمد فى عصر التجديد العاصف الذى قاده عبد الوهاب وملحنو جيله ، ولكنه لم يتزحزح عن طريقته ، فلحن بها لام كلثوم وأصوات أخرى كثيرة ، وكان وسط ذلك التيار العاصف من التجديد ممثلا لفن التلحين العربى فى اصالته ..

أما الشيخ محمد القصبجي الذى خلع العمامة والجبة ليدخل فى زمرة الملحنين الافندية ، وهو بعد شاب صغير ، فقد كان ميله الى التجديد فى الغناء العربى واضحا ، بل كان من أوائل دعاة التجديد ، ويعتبر

مونولوج « ان كنت أسامح » الذى لحنه لام كلثوم قبل أربعين عاما أعلى صيحة للتجديد الفنائى فى ذلك العهد.
وبعد أن نجح هـــذا اللحن نجاحا هائلا ، واصل القصبجى النسج على منواله فى التجديد ، فلحن لأم كلثوم مجموعة كبيرة من أجمل أغانيها ، انتهت بأغنية « رق الحبيب » التى لحنها ســنة ١٩٤٦ ثم توقفت قريحته ــ رحمه الله ــ عن التلحين على هذا المستوى الرفيع الذى عرف به خلال أكثر من عشرين عاما لحن خلالها لام كلثوم ومنيرة المهدية وفتحية أحمــد وليلى مراد وأصوات أخرى كثيرة ..

بقى أن نقول ان هؤلاء الفنانين الكبار الذين انتسبوا الى الازهر تمكنوا من اعادة « تعريب » الفناء العربى ، فان العجمة الطويلة التى رانت على الامة العربيــة فى ماضيها ، اقتضت حملتين من حملات « التعريب» .. احداهما فى الفناء ، والاخرى فى الشعر والادب والثقافة. وقد تمت الحملتان معا بفضـــل الازهريين ، والفنــانين الذين كانوا فى الاصل من أبناء الازهر أو من القريبين الى الازهر وأبنائه .. وما زلنا نسمع منهم الشيخين النقشبندى وسيد مكاوى ..

وقد ذكرنا فى هـــذا العرض السريع كثيرا من هؤلاء الفنانين الرواد ، ولــكن هناك أسماء غابت عنا أو لم نتذكرها .. حسبهم أن أعمالهم الفنية قد دخلت تاريخ بلادهم وشاركت فى انهاض فن عريق من فنون الامة العربية

"الأزهـــــر"
قلعة الوطنية المصرية

من أبرز مميزات الحركة الوطنية المصرية التى نبتت فى نهاية القرن التاسع عشر واشـــتد ساعدها مع مطلع القرن العشرين ، انها كانت لجميع أبنـــاء الشعب على اختـلاف طبقـاتهم ، وأديانهم ومعتقداتهم .. وكانت تعتمد على كل فئـات الشعب المسلم ، والمسيحى ، الشاب ، والـكهل . الفنى ، والفقير . العـامل ، والصانع ، التاجر ، والزارع ، الطالب والموظف ... وكانت قيادات هذه الحركة كما كانت جماهيرها تؤمن ايمانا صادقا بأن الدين لله ، والوطن للجميع ..

بذل الاستعمار البريطانى الـكثير من الجهد والمال، والنفوذ للايقاع بين أبناء الوطن الواحد تنفيـذا لمبدئه الاستعمارى الاساسى « فرق تسد » فلم يستطع .. حيث لم تمكنه جماهير الشعب من تحقيق مخططاته ، لقد كانت جماهير الشعب تؤمن بصدق احساسـها ، ودقة مشاعرها ، وعمق وعيها ، أن الاستعمار لا يبغى من وراء التفرقة بين أبناء الوطن الواحد الا استمرار سيطرته ، واحتلاله ، واستغلاله لمصر ولشعب مصر.. وكانت هـذه الجماهير ـ بما فطرت عليه من وطنيـة صادقة وايمان خالص ـ تعتقد انه لا نجاح لاية حركة وطنية الا بوحدة وقوة وتماسك الجبهة الداخلية ..

(*) للاستاذ صبرى ابو المجد

ومرة ، لاحت للاحتلال فرصة ذهبية للايقاع بين المسلمين والمسيحيين عندما اغتال ابراهيم ناصف الورداني — من شباب الحزب الوطنى — فى الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ٢٠ من فبراير ١٩١٠ بطرس غالى باشا ناظر النظار ، واعترف الوردانى فور تسليم نفسه لرجال البوليس ، كما جاء فى محضر التحقيق الذى نشرته صحيفة « الجريدة » التى كان يصدرها وقتئذ الاستاذ احمد لطفى السيد ، انه اغتال بطرس باشا غالى « لانه وقع اتفاقية السودان عام ١٨٩٩ التى اشركت بريطانيا فى حكم السودان ، ولانه رأس المحكمة المخصوصة التى حاكمت أبناء دنشواى ، ولانه أعاد قانون المطبوعات الذى كمم الصحافة وقضى على حريتها ، ولانه عاكس الجمعية العمومية التى كانت تنظر مشروع امتياز قناة السويس الذى كان يؤيده بطرس باشا ، ولانه يحارب الوطنية المصرية » .

ولان القاتل مسلم ، ولان القتيل قبطى ، فقد استغل الاستعمار البريطانى الفرصة للايقاع بين عنصرى الشعب ، وأقام مؤتمرا طائفيا لخلق الثغرة الطائفية فى مصر ، ولكن هذا المؤتمر فشل ، وأقام المصريون مؤتمرا آخر باسم « المؤتمر المصرى » كتب له التوفيق ، فقد راح المستنيرون من أبناء البلاد من المسيحيين والمسلمين ، يبذلون كل جهد ممكن لحماية الجبهة الداخلية ، وتفويت الفرصة على العدو المحتل ..

***

وكان ممن اشتركوا فى تلك الحملة المستنيرة الاستاذ نصيف المنقبادى الذى كتب خطابا تاريخيا الى رئيس تحرير جريدة الاكلير الفرنسية يقول فيه : اسمح لى بصفتى مصريا أن أقرر بعض نقاط تتعلق بمقتل بطرس

باشا غالى رئيس الوزارة المصرية . ليس من اختصاصى تقدير عمل ابراهيم الوردانى ولكنى أريد من صميم فؤادي أن أبدد التهم التى أشاعها الانجليز فى العالم فقد اتهموه بأنه « مختل الشعور » ، « قليل الذكاء » ، وانه « أطاع داعى التعصب بقتله بطرس غالى المسيحى الذى يقولون انه كان حرا ووطنيــــا » ، أنا أعرف الوردانى شخصيا وهو فتى شديد الذكاء كثير المعارف ، ملء صدره الوطنية الحرة ، وليس رجلا متعصبا ولم يقدم على عمله الا بداعى الوطنية المتحمسة بعد أن ضاق صدره كما ضاقت صدورنا جميعا بالسياسة الانجليزية التى كان بطرس باشا ينفذها باجتهاد . . وأنا بصفتى قبطيا ، أعنى مصريا مسيحيا ، أصرح بأن حركتنا هى حركة وطنية مجردة ترمى الى الترقى والحرية ، وما تهمة التعصب الا من الاشاعات التى يشيعها الانجليز لتبرير المظالم التى يرتكبونها فى مصر ..

وتفشل المؤامرات البريطانية وتبقى الوحدة الوطنية سليمة قوية ، ويعمل المسيحيون الى جانب المسلمين فى الاحزاب ، والمنظمات الوطنية جنبا الى جنب ... وعندما تعلن بريطانيا الحرب على القوى الوطنيــة اثر قيام الحرب العالمية الاولى يكون المعتقلون المسلمون الى جانب اخوانهم المسيحيين وتكون منافى « مالطــة » و «سيشــل» وغيرهما للمسلمين المصريين وللمسيحيين المصريين فى وقت واحد ..

وتقوم ثورة ١٩١٩ ويشترك فيهــا المصريون جميعا تحت شعار « وحدة الهلال والصليب ». ويوجه أحــد قادة الانجليز فى مصر اللوم الى نجل بطرس باشا غالى قائلا : « كيف تضع يدك فى يد من قتلوا والدك ؟ » . فيرد قائلا: « أضع يدى فى يد من قتلوا والدى ، ولكنى

لا أضع يدي في يد من قتلوا وطني ! »

الازهر قلعة الوطنية المصرية

لقد كانت ثورة ١٩١٩ مختمرة في قلوب المصريين وأفئدتهم لما لاقوه من الاحتلال البريطاني وخاصة في سنوات الحرب العالمية الاولى ، فلم تكد تنتهى تلك الحرب حتى بدأت الطلائع الوطنية المصرية تتأهب للمطالبة بحقوق البلاد ، ولم تكد السلطات البريطانية تعتقل بعض قادة الحركة الوطنية وعلى رأسهم سعد زغلول ، حتى هب الشعب على بكرة أبيه — دون تنظيم أو ترتيب مسبق — يعلن الثورة على الاحتلال ..

ومنذ ٩ مارس ، بداية الثورة ، والازهر حصن الثورة الحصين ، نقطة الانطلاق ، اليه تتجه جماهير الشعب ، وفى حرمه يلتقون ، ومن فوق منبره يستمعون الى خطباء الثورة وهم يحرضون الشعب على الثورة ضد الاحتلال ... فى اليوم الثانى من أيام الثورة — ١٠ مارس — أذاع الطلبة المنشور التالى : « غدا الثلاثاء ستتحرك المظاهرة السلمية الكبرى فى الساعة العاشرة صباحا من الازهر الشريف مارة بالاحياء الوطنية تتقدمها الموسيقى برياسة حسب الله والاعلام حتى تكون الساعة الثانية عشرة تماما أمام قصر العينى ، وهناك ينضم اليها فريق من المحامين والاطباء والعلماء والمعلمين والموظفين وطلبة المدارس العالية الذين يسرهم أن يكونوا مثالا عاليا للشعب .. »

ومنذ الفجر — فجر اليوم التالى لاذاعة هذا المنشور، كانت جماهير الشعب تزحف الى الازهر ، وكان العلماء وطلاب الازهر يستقبلون الجماهير ويجلسونهم فى أماكنهم فى نظام رائع ومن فوق منبر الازهر كان خطباء الثورة

يلقون خطبهم النارية ، التى تحرض الشعب على الثورة ... وكان من بين هؤلاء الخطباء : الشيخ مصطفى القاياتى ، والشيخ على سرور الزنكلونى ، والشيخ محمود أبو العيون ، والشيخ عبد ربه مفتاح ، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، والشيخ عبد الباقى سرور ، وكلهم من علماء الازهر ... ثم القمص مرقس سرجيوس ، والقمص بولس غبريال ، ومحمد أبو شادى بك ، ومحمد كامل حسين ، ومحمد لطفى المسلمى ، ويوسف الجندى ، وابراهيم عبد الهادى ، وحسن يس ، ومحمد يوسف ، ومحمود عبد السلام ، ومحمد شكرى ، ومحمد عبد المجيد بدر ، ومحمد أمين صدقى ، وزكى مبارك ، ومحجوب ثابت ، وأمين الخولى ، وأحمد أمين وغيرهم وغيرهم من شباب الازهر والمعاهد العليا ، والمدارس الثانوية ..

ويصبح الازهر ، كما يقول أستاذنا عبد الرحمن الرافعى طيب الله ثراه ، مكانا عاما للخطابة ، وهو المكان الفسيح الذى لم تستطع السلطة العسكرية اقتحامه ومنع الاجتماعات فيه ويرجع ذلك الى مكانته ومنزلته الدينية ، فكان ذلك ميدانا تبارى فيه الخطباء من كل الطبقات ، وقد ظهرت فيه شخصيات برزت بمواهبها الخطابية ..

سرجيوس يخطب فى الازهر

ووقف مرة على منبر الازهر القمص سرجيوس بملابسه الكهنوتية ـ وكان أول كاهن قبطى يعتلى منبر الازهر ـ وبدأ يخطب بلهجة حماسية رائعة أثارت انتباه الحاضرين ، وقال : « كنت أسير يوما فى شارع كلوت بك فوجدت أطفالا يلعبون أمام منزلهم فتحدثت

معهم حديثا قالوا لى بعده : « ان أمنا فى المنزل وهناك بعض الجنود يعتدون عليهـــــا ، فعجبت لامرهم ، وسألتهم : « كيف ذلك ؟ .. » قالوا : وماذا نفعل؟.. فصعدت الى المنزل فوجدت امرأة يعتدى عليها جنود انجليز ... أتدرون من هؤلاء الاطفال ومن هى هــذه الام ؟ .. فقال الجمهور : « لا... » وقال سرجيوس : « هم فئة الموظفين ، والام هى مصر » ! .. عندئذ ثار الموظفون المصريون ، فقال لهم : « اذن اظهروا شعوركم حيال أمكم مصر » ...

وكان أن قرر الموظفـــــون الاضراب احتجاجا على السياسة الاســتعمارية البريطانية ، وكان الموظفون فى بداية الثورة قــد اكتفوا بتوقيع عرائض الاحتجاج على اعتقال سعد وصحبه ، ورفعهـــا الى السلطان ، وكان استمرارهم فى عملهم رغم الغليان الشعبى مثار دهشــة بالغة ... وكانت بريطانيا تبذل مع الموظفين محاولات معينة لضمهم الى صفوفها ، غير أن كل تلك المحاولات قد باءت بالفشل ، فقرر الموظفون الاضراب فى ٢ ابريل لمدة ثلاثة أيام ، غير ان اندفاع الحركة الشعبية وشمولها لــكل جماهير الشعب قد مدت فى أجل ذلك الاضراب ثلاثة وعشرين يوما ...

ويروى القمص سرجيوس قصـــة ذهابه الى الازهر للاشتراك فى ثورة ١٩١٩ فيقول : « عنـــــدما كنت بالسودان أنشأت مجلتى « المنـــارة المصرية » وجعلت منها متنفسا لآرائى التقدميـــة ، وكانت هى والخطب والعظات التى ألقيها مثار اعجاب شديد ، ونقد أشد. وفى ذات يوم استدعانى مستر مور مدير الخرطوم وقال لى : « ان الحاكم العام للسودان يطلب اليك أن ترحل فى خلال أربع وعشرين ساعة » . فقلت له : « أنا لست

فى لندن حتى يأمرنى الحاكم العام بمغادرة البلاد فى أربع وعشرين ساعة . أنا هنا فى بلادى وليرحل هو اذا شاء » . فقال : « لا تحرجنى يا سرجيوس ونفذ الامر » . فقلت : « ان الطريقة التى تستطيع بها تنفيذ الامر ، هى أن تضع القيود فى يدى ، وتخرجنى من بلادى فى الجنوب قسراً حتى أشهد العالم على استبدادكم » ... وعمد الرجل الى الملاينة فقلت له : « اننى أريد أن أعرف السبب أولا » ... فقال لى : « لو قلت لك السبب هل تعطينى كلمة شرف تعد فيها بمغادرة البلاد ؟.. » ولما وافقت قال لى : « انت بطبعك تنزع الى الحرية ، ونحن نحكم هذه البلاد بالسيف ولهذا فان طبيعتك لا تلائمنا ، وسوف نتعبك وتتعبنا » !..

وعدت الى مصر فى سنة ١٩١٥ وقبعت فى بلدتى جرجا ، وظللت بعيدا عن القاهرة حتى شب أولادى ، فأردت أن ألحقهم بالمدارس واضطررت للسفر الى العاصمة واخترت لمقامى مسكنا فى حى الفجالة .

وظلت حياتى موزعة بين الدراسة والوعظ والعبادة حتى أحد أيام ١٩١٩ وكنت قابعا فى بيتى عندما سمعت ضجيجا وصخبا فى الشارع ولما تبينته وجدته مظاهرة من الشباب تهتف « يحيا سعد ، يحيا الاستقلال » ولما سألت عن السبب قيل لى ان المستعمرين قد اعتقلوا سعد زغلول الذى يطالب بالاستقلال التام ، وهنا تدفقت الدماء حارة الى رأسى وكأنما براكين الدنيا كلها قد تفجرت فى نفسى ، فأسرعت الى الشارع وانضممت الى المتظاهرين حتى انتهت بنا المظاهرة الى الازهر ، وكان فى تلك الفترة حصن الثورة الحصين وألقيت فيه عصا الترحال .

وظللت قرابة ثلاثة أشهر ألقى فيه كل يوم ما لايقل عن خمس خطب فى المواطنين بعد انقضـــــاء الصلوات الخمس . وكنت قبـل أن أتهيـأ للخطابة اذكر كلمات الانجليزى الذى طردنى من السودان وأقول لنفسى : « من يكره الحرية أكرهه ، ومن يحاربها أحاربه » .

ولم أترك شـارعا أو مسجدا أو كنيسة الا خطبت فيها داعيا لتعبئة الشعور ضد أعداء البـلاد . وحينما احتاج الوفد للمال صحبت فتح الله بركات فى جولة بين القرى والضياع وكنت أظل اخطب فى أهلها حتى أحس ان المستمعين قد وصلوا الى مرحلة التضحية بأموالهم ، فأشير الى فتح الله ، وكان يحمل حقيبة كبيرة كحقيبـة القومسيونجية ، فيفتحها أمام المستمعين واذا هى تمتلىء فى لحظات .

***

وذات يوم كنا فى ميدان الاوبرا وكان أكثر من عشرين ألفا قد وقفوا صامتين كأن على رءوسهم الطير يستعدون للاستماع الى خطابى وصـعدت على أكتاف طالبين ، وفى وسط هذا الصمت الرهيب بدأت خطابى قائلا : « اهتفوا معى : يحيا الانجليز » وبهت الجمع الحاشد لهول المفاجأة ، وعدت أقول : « لن اخطب حتى تهتفوا يحيا الانجليز ، فهتفوا ... واستطردت قائلا : يحيا الانجليز الذين استطاعوا بظلمهم واستبدادهم ، وفجرهم أن يجعلوا منا هذه الـكتلة الموحدة المقدسة الملتهبة» . وصفق الجميع تصفيقا يصم الآذان ...

ومرة أخرى ... هكذا يمضي القمص سرجيوس فى ذكرياته عن ثورة ١٩١٩ فيقول : « كنت فى السرادق الضخم الذى أقيم لسعد زغلول ــ تكريما له بعد عودته من المنفى ــ وكان زعيم الوفد فى أوج عظمته ومجده ،

واخـلت الجماهير تنـادي : « سرجيوس سرجيوس سرجيوس » ووقف سعد رحمه الله قائلا : « فليسمعنا خطيب الثورة كلمته » ... وصمت الجميع ، ووقفت أخطب فقلت : « والله انك لمجنون يا سـعد » وبهت الجميع ، ولـكنني اسـتطردت قائلا : « والله انك لمجنون يا سعد اذ تقوم على دولة عظمى خرجت منتصرة من حرب عظمى وتملك كل شيء ولا تملك أنت شيئا ثم تنتصر عليها » ! .. وفى كل مقطع من خطبتى كنت اكرر « والله انك لمجنون يا سعد » وفى نهـاية الخطاب قام سعـد من مكانه واحتضنني قائلا : « مجنـون والله يا سرجيوس » !.. وضـجت الجماهير بالهتاف والتصفيق ..

***

وذات يوم استدعانى كين بويز ، مدير الامن العام ، وقال لى : « أنت عدونا الاكبر ، وبت ليلتى فى ثكنات قصر النيل نزيل غرفة جمعت فى أحشـائها كل أنواع البعوض والبق والبراغيث والفيران ، وفى الصـباح اقتادونى الى أحد المعتقلات فى رفح ، وكان يزاملنى فيه النقراشى ، والقاياتى ، وأبو شـادى ، والخولى ، وغيرهم ، وغيرهم ..

وهناك عكفت على قراءة القرآن ودراسـة كتب التفسير ، كما قرأت للرازى والنسفى والبيضـاوى وتفسير الجلالين ، والملل والنحل وغيرها ، وذات يوم كنا نقف مـع ضـابط المعتقل فقال : « ان المصريين المتوحشين قد قتـلوا جنديين بريطانيين اليوم ، ورد عليه احد المعتقلين قائلا : « هـذا أمر مؤسف » . فاندفعت أنا قائلا : « ان قتل جنديين بريطانيين يعـد وحشية ، وقتل الصبيان والغلمان المصريين وحصدهم

بالمدافع الرشاشة لانهم يطالبون بالاستقلال هل هو فى نظركم مدنية ؟ ! » وحقد على الضابط الانجليزى ، ولذلك ظللت فى المعتقل حتى أغلقته وجئت بمفاتيحه ، الى القاهرة وكان ذلك فى سنة ١٩٢٠ ، ثم صدر قرار بنفيى من القاهرة الى بلدتى جرجا ، ولكن نسيم باشا وزير الداخلية وقتئذ رفض تنفيذ أمر النفى وقال : « كيف أنفى رجلا وصلتنى ستة زكائب احتجاجات من أجله من المسلمين والاقباط ؟ .. »

***

ومن مذكرات القمص سرجيوس عن ثورة ١٩١٩ ، ان ضابطا بريطانيا قال له : « لقد صبرنا عليك أربعين يوما وأنت تخطب ضدنا فى الازهر » ، وأجاب سرجيوس قائلا : « اذا كنت أنت لم تحتملنى فى بلادى ٤٠ يوما ، فكيف احتملناكم نحن ... فى بلادنا أربعين عاما ؟ ! » ومما يذكر أن الكثير من أبناء الشعب كانوا يطلقون على سرجيوس لقب خطيب الثورة ، ولقب « خطيب الازهر » .

مكتبة الأزهر

منارة العلوم الإسلامية والإنسانية

مكتبة الازهر من أشهر المكتبات فى العالم ، يعرفها الباحثون والعلماء من الشرقيين والغربيين على السواء احتفظت على طول العصور بقيمتها التاريخية لانها ضمت بين دفتيها نفائس الكتب ونوادر المخطوطات ، ففيها ما ليس فى مكتبات الاستانة والقيروان وبغداد ، وفيها من الادب النادر والتاريخ القيم ، وكتب الشريعة من مختلف أنواعها .. التفسير وغريب الحديث والحكمة والفلسفة ، وكتب السياسة الرشيدة ، وهى زاخرة بما تحويه من انتاج أفكار العلماء المسلمين الذين ضربوا بسهم وافر فى المعرفة والثقافة الاسلامية ، يسير طالب العلم بين جوانبها فيحار فيما جمعته تلك المكتبة من أندر المخطوطات التى لم تتوفر لغيرها من المكتبات ، ورغم تعرض هذه المكتبة للسرقات المتكررة ، وبيع كتبها ومخطوطاتها بأبخس الاثمان ، الا أنها ما زالت تحتفظ بكنوزها الوافرة ونوادرها القيمة ..

ولو رجعنا الى الوراء قليلا لوجدنا ان الاسلام عنى قديما بتكوين المكتبات ، وممن عنى بذلك أهل مصر ، ومن أشهر مكتباتهم القديمة مكتبة الاسكندرية التى أسسها بطليموس الاول فى القرن الثامن قبل الميلاد . ويقال أن عدد الكتب بهذه المكتبة قد وصل الى أربعمائة ألف مجلد .

(*) للاستاذ عاطف مصطفى

وأول من أنشأ مكتبة فى العصر الاسلامى هو خالد ابن يزيد الاموى فى دمشق ، وبأمره ترجمت كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية الى العربية ، كما أسس هارون الرشيد مكتبة ببغداد جمع فيها ماوجده من الكتب النفيسة ، ثم وسعها المامون وسماها « بيت الحكمة » واهتم بها من حيث ترتيب خزائنها وتبويب فهارسها تسهيلا لمحبى القراءة والاطلاع واهتم المأمون بمراسلة الملوك فى شأن الكتب ، وكان يضع فى شروط معاهداتهم تقديم الكتب له باللغات التى اشتهرت فى ذلك الوقت . وقد اسند الإشراف عليها الى كبار العلماء والادباء ، وممن تولى شئونها الاديب المشهور سهل بن هارون .

كما انتشرت المكتبات العامة فى بغداد والشام والاندلس ومصر . واهتم الحكام فى كل بلد اسلامى بانشاء المكتبات وصل الى حد المنافسة فى اقتناء الكتب وتقريب الادباء الى مجالسهم والاهتمام بأمورهم وقد بلغ عدد المكتبات فى غرناطة وحدها سبعين مكتبة.

وقد اقتدى الفاطميون بمصر بخلفاء بغداد والاندلس فى انشاء المكتبات والاهتمام بها وتنشيط الحركة العلمية ، فأنشأوا مكتبة « خزانة الكتب » ومكتبة « دار الحكمة » ومكتبة « الجامع الازهر » ، ونالت المكتبات فى ذلك الوقت اهتماما شديدا من العزيز بالله ، فكان يجرى الارزاق على العلماء والاطباء ، ويهتم بكل ما من شأنه رفع الثقافة وزيادة المعرفة بين أهل مصر

صراع من أجل البقاء

ليست المكتبة الازهرية الموجودة الآن هى مكتبة الازهر القديمة التى اشار اليها المؤرخون فى كتبهم ،

وانما هي مكتبة حديثة قامت على أطلال المكتبة القديمة ، فقد قال ابن ميسر فى كتابه « أخبار مصر » سنة ٥١٧ هـ : « انه قد أسند الى داعى الدعاة أبى الفخر صالح منصب الخطابة بالجامع الازهر مع خزانة الكتب»
وقد ذكر المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٧٣ ، ٢٧٥) « ان الحاكم أمر بنقل نصف الكتب التى كانت بدار الحكمة الى الجامع الازهر ، والباقى الى مسجده ، ومسجد المقس » ويتضح من هذا أن مكتبة الازهر كانت تضم أكثر من خمسين ألف كتاب .

وقد وزعت معظم كتب مكتبة الازهر على الاروقة التى بلغ عددها زهاء الثلاثين رواقا وزاوية ، واشهرها رواق الشوام والمغاربة والاتراك ، والشراقوة والاروام ، وآخرها الذى أنشىء قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل وهو الرواق العباسى ، وذلك لاطلاع الطلبة عليها ، وخصص منهم من يقوم على هذه الكتب وحفظها .

ولكن اتضح أن كثيرا من نفائس الكتب التى كانت مودعة بمكتبات الاروقة تسرب الى أيدى علماء أوربا ومكتباتها الشهيرة وذلك عن طريق سماسرة الكتب الذين استغلوا الجهل والضعف الخلقى فى نفوس بعض القائمين على هذه المكتبات فى بعض الفترات . والى جانب تسرب الكتب وبيعها بأبخس الاثمان ، فقد أهمل البعض وترك فى سراديب طعاما سائغا للحشرات وتكومت فوقه الاتربة ، فتلفت أوراقها ، وبليت ، ومزقت وقطعت جلودها ، وكاد لا يوجد منها كتاب سليم الا ما ندر . كما ان الفرنسيين حينما اقتحموا الازهر أثناء الحملة الفرنسية على مصر نهبوا كثيرا من هذه الكتب التى ما يزال البعض منها بمكتبة باريس

ولقد كان تعرض كتب الاروقة للضياع والتسرب الى

أيدي المتربصين بها ممن يعرفون أقدارها والذين تخصصوا في الحصول عليها وارسالها الى أوربا ، هو الذى أوحى للشيخ محمد عبده بفكرة انشاءمكتبةالازهر بعد أن راعه أن هذه الكنوز العلمية مبعثرة لا يهتم بها أحد .وكان ذلك ضمن برنامجه الاصلاحى للازهر والذى أخذه على عاتقه ، وقد تقدم الشيخ محمد عبده بفكرته هذه الى مجلس ادارة الازهر ، فنالت الفكرة القبول من أعضائه وبخاصة الشيخ حسونة النواوى شيخ الجامع الازهر فى ذلك الوقت والذى وهب مكتبته الخاصة لهذا المشروع الجليل دون تردد ليقتدى به الآخرون . واجتمع مجلس ادارة الازهر لدراسة هذا المشروع وما لبث أن وافق عليه ، واختار المكان المناسب لعمل مكتبة الازهر . وكتب لديوان الاوقاف الذى كان يتولى الاشراف على شئون الازهر لاعداد تنفيذ هذه الفكرة ، وتم تنفيذها فعلا فى أول المحرم سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٧ م) .. وقد لاقى الامام محمد عبده كثيرا من الصعاب فى اقناع القائمين على الاروقة بفائدة مكتبة الازهر ، وضرورة تنفيذها حفاظا للتراث الاسلامى من الضياع ، وتجميعه فى مكان واحد ليكون أكثر فائدة ، وأعم نفعا لطلاب الازهر من كل بلاد العالم الاسلامى .

ولم يكتف محمد عبده فى تكوين المكتبة بما جمع من مكتبات الاروقة بل دعا الاغنياء والعلماء فى المشاركة فى تكوينها مستعينا فى ذلك بمدى حبهم له ومكانته عندهم فاستجاب البعض لذلك وعلى رأسهم الشيخ حسونة النواوى ، وورثة سليمان باشا أباظة .

مكتبة مبعثرة

ومكتبة الازهر ليست ـ كما يتبادر الى الذهن ـ

مكانا محدد المعالم تستطيع أن تجد فيه بغيتك من قاعات مجهزة القراءة ، كافية الاضاءة ، لكنها تشمل أماكن كثيرة ، فهى تشغل أربعة أمكنة متفرقة داخل الجامع الازهر ، وهى المدرسة الاقبغاوية والمدرسة الطبرسية، ورواق الاحناف ، والرواق العباسى .

والمدرسة الاقبغاوية على يسار الداخل الى الازهر من بابه الغربى الكبير ، وقد أنشأها الامير أقبغا عبد الواحد على نظم المدارس الاسلامية فى ذلك الوقت . وفى المدرسة الاقبغاوية توجد المكتبة العامة بجميع فنونها التى تبلغ اثنين وستين فنا .

أما المدرسة الطبرسية فهى على يمين الداخل الى الازهر من بابه الغربى ، وقد أنشأها علاء الدين طبرس نقيب الجيوش المصرية ، وأتم بناءها سنة ٧٠٩ هـ .

وقد شغلت المكتبة أولا المدرسة الاقبغاوية ، وعندما ضاقت بالكتب ضمت اليها المدرسة الطبرسية حتى تستوعب الكتب الكثيرة والمخطوطات التى أمكن تجميعها بعد جهود شاقة بناء على اهتمام الشيخ محمد عبده بجمع التراث والاحتفاظ به لكل طالب علم .

ومن أجمل ما تراه العين بمكتبة الازهر تلك المكتبات الخاصة الملحقة بها والتى أهداها أصحابها الى راغبى العلم بالازهر ، وهذه المكتبات موضوعة فى أماكن خاصة داخل المكتبة العامة ، ومن هذه المكتبات الفرعية :

مكتبة سليمان باشا أباظة ، مكتبة الشيخ محمد بخيت المطيعى ، مكتبة الشيخ الانبابى ، مكتبة الشيخ حسونة النواوى ، ومكتبة الشيخ محمد حسنين البولاقى ... الخ .

وبقيت مكتبات المغاربة والاتراك والشوام بأروقتها تحت اشراف أمناء يحافظون على ما تحويه من نوادر

المخطوطات وبخاصة مكتبة رواق المغاربة التى يوجد بها كثير من المخطوطات النادرة والكتب القيمة .

ربع مليون كتاب

ومكتبة الازهر بها ربع مليون كتاب ومخطوط وتشمل اثنين وستين فنا ، وهى ثانى مكتبة فى مصر بعد دار الكتب ، ويوجد بها أكبر مجموعة فى العالم من التراث العربى الاسلامى منها مخطوطات ثمينة لا توجد فى أية مكتبة سواها برغم السرقات والاهمال الذى لحق بها حقبا طويلة من الزمن ، وبعض هذه المخطوطات بخط مؤلفيها الكبار ، ولو طبعت هذه المخطوطات وتداولها الباحثون لغيروا رأيهم فى كثير من مفكرى العرب والاسلام ، ولعرفوا قدرهم فيما توصلوا اليه بثاقب علمهم ، وغزير انتاجهم لشتى النظريات فى الطب والفلك والرياضيات .

وليس أدل على ذلك من الاجهزة العلمية الفريدة الموجودة بمكتبة الازهر ومنها أجهزة الرصد الفلكية والتى تدل على التفاعل العميق بين الازهر ومجالات العلم المختلفة والتى تبلورت الآن بالازهر فى مراحل تطويره كخطوة على طريق طويل من الاستجابات لتطورات الحياة . وهذا الربط يتم عن طريق الكليات الحديثة بالازهر ، كالطب والصيدلة والهندسة ، بالاضافة الى تطوير المناهج بالكليات الاصيلة كاللغة العربية وأصول الدين والشريعة ...

كنوز بمكتبة الازهر

وتضم المكتبة نوادر الكتب والمخطوطات فى كثير من

الفنون من العسير أن نجدها فى أى مكتبة أخرى ، ذلك لان مكتبة الازهر ورثت خلاصة الثقافة الاسلامية فى الشرق ممثلة فى مؤلفات علماء الجامع الازهر بصفة خاصة وعلماء الاسلام بصفة عامة ، فالازهر قبلة العلماء ، وصفوة النابهين من المسلمين لاكثر من ألف عام مضت . وكان ولا يزال مصدرا من مصادر الثقافة الاسلامية الرشيدة لراغبى العلم من كل بلاد العالم .

وفى المكتبة بعض مؤلفات السيوطى بخطه ، وبعض مؤلفات ابن حجر ، وبها جزء من القاموس بخط مؤلفه الفيروزبادى ، وبها نسخة ينقصها جزء من شرح ابن بطال على البخارى ولا تعرف هناك نسخة أخرى فى جميع مكتبات العالم غيرها ، وبها مخطوطات ترجع الى نحو من ألف سنة مثل كتاب غريب الحديث لابن سلام ، وكتاب البعث لابن داود السجستاني ، ومن الكتب النادرة فيها كتاب رسوم دار الخلافة الذى نشر أخيرا محققا لاهميته .

وأهم ما يلفت نظرك بالمكتبة المصاحف المختلفة الاحجام والتى كتبت بماء الذهب ، ومنها المصحف ذو الحجم الضخم الذى وقفه أقبغا صاحب المدرسة عام ٧٤٠ هجرية ، ومصحف شريف فى تسع عشرة ورقة مهدى الى المكتبة من عباس حلمى ، ومصحف بالخط الكوفى مكتوب على رق الغزال يرجع تاريخه الى أوائل القرن الرابع الهجرى .

ويوجد أيضا صندوق صغير غاية فى الروعة ودقة الصنع به « ربعة قرآن » وهو باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهذا الصندوق من أندر روائع الفن الاسلامى الباقية حتى الآن .

هذا بالاضافة الى مجموعات نادرة من المخطوطات

فى علوم اللغة والتاريخ والفلك وبعضـــها يحتوى على « حواشى » بخط المؤلف نفسه .
والى جانب هذه الكنوز الموجودة بمكتبة الازهر ، تمتاز المكتبة بوفرة فى العلوم الدينية والعربية ، وذلك لصلة المكتبة بالازهر ، وصبغته الدينية ، ولانها تكونت فى الغالب من مكتبات العلماء الذين تنبع ثقافاتهم من معين دينى عربى .

تطوير المكتبة

وفى الآونة الاخيرة كان للمكتبة الازهرية حظ كبير من النشاط العلمى ، ولزيادة الكتب وكثرتها ضم اليهـا الرواق العباسى ، لكى تستوعب أكبر عدد من الكتب وكذلك محاولة انجاز فهرس المكتبة والذى طبع منه حتى الآن سبعة أجزاء والثامن تحت الطبع ، وقد تميز هذا الفهرس باستيفاء البيانات عن موضوعات الكتب مع ذكر مواليد المؤلفين ووفياتهم ، وقد عنى بالمخطوطات عناية خاصة ، ولا سيما ما يتعلق بالناحية العلميـة ، والفنية ، وذلك ببيان ما عليها من سماعات واجازات وتصحيحات وما فيها من نقوش وزخارف تمثل روح العصر .
ولا يفوتنا أن نشير الى أن العنـاية بتصنيف واعادة ابراز الكتب المجهولة فى القرن التاسـع عشر وأوائل القرن العشرين من شأنها أن تلقى ضوءا على الكثير من التيارات الفكرية التقدمية التى تشـيع لها الازهر فى فترات الاحتلال وفى عهود التخلف العثمـــانى . وكان الازهر مليئا بأصحاب النزعات والافكار التجـديدية والتى اهتم بعضهم بالعلم فى حد ذاته فألفوا أهم المراجع فى أبواب العلوم والمنطق والتفسير ، واهتم بعضهم الآخر

بجوانب التجديد الاجتماعى . أن مكتبـــة الازهر بكل ما تحويه من هذه الـكنوز ، وهذا التراث العلمى الفريد الذى يحتاج الى مراجع كثيرة لحصره ، ونقــله الى محبى التراث العربى والاسلامى ، لتحتاج الى تغيـــير جذرى فى كل شيء ، وبأسرع ما يكون ، ولا بد لوزارة الاوقاف وشئونالازهر بأنتسرع بانشاء مبنى يتناسب وهذا التراث الاسلامىالعريق، وتجند كل القوى المحبة للعلم ، والتى لها المام بتراث تلك المـكتبة فتضاعف من مجموعه ، حتى تحفظ تلك الدرة الثمينة التى تعد تاجا على جبين مصر والشرق العربى .

والحفاظ على مكتبة الازهر وما بها من كنوز ما هو الا نوع من التدعيم للمكتبة الاســلامية فى شتى بقــاع العالم الاسلامى ، حتى يتزود المسلم بكل فنون المعرفة من نتاج سلفه الصالح والذى يملأ خزائن كبيرة للـكتب الفريدة المتنوعة فى كل علم وفن .

المـرأة فى الأزهـر

تطور الازهر فى وثبتـه الاخيرة على صـورة تبشر بالامل الـكبير .. بعد أن ظلت أبوابه موصـدة أمام دخول المرأة الى رحابه زمنا طويلا مع أن تاريخ الاسلام حافل بأسماء نساء كثيرات قمن بأدوار رائعة فى المجتمع الاسـلامى من دعوة وارشاد وأدب وشـعر ، ورواية حديث ، وبطولات قومية. وقد تنبهت الدول الحضارية الى أهمية المرأة فى نشر الدعوة الدينية ، ففتحت لهـا المدارس كما زودت بها الارساليات التابعة لها فى الدول المختلفة ...

وفى التطور الجديد للأزهر الشريف عام ١٩٦٢ فـكر المسئولون فى انشـاء كليـة اسلامية للبنـات ، يعتمد منهجها على دراسات اسلامية انسانية تهدف فى صميمها أولا الى تهذيب الفرد وربطه بالمجتمع العام والخاص ، وتوقظ فيه الوجدان المؤمن .

ولقد مرت مراحل التحاق الفتـاة بالازهر بأدوار عديدة .. ففى الوقت الذى لم تكن الفتاة المصرية تفكر فيه فى دخول الازهر ، فكرت فتيات مسلمات من بلاد مختلفة فى دخول الازهر ، وجاءت ثلاث فتيات من بلاد الملايو الى القاهرة عام ١٩٥٠ للالتحاق بالازهر الشريف، ولـكن رفض طلبهن بحجة أن اللائحة لا تبيح ذلك ..

(*) للاستاذ عاطف مصطفى

ولقد كان الشيخ المراغى رحمه الله من مشجعى فكرة دخول الفتاة الازهر ، كما كان المغفور له عبد العزيز جاويش من أنصار الفكرة ، وكان ينادى فى خطبه ومحادثاته بوجوب انشاء فرق فى المعاهد الدينية لتعليم المرأة الدين والعربية ووسائلهما .

***

وكلية البنات الاسلامية هى النواة لانشاء جامعة للبنات ، وقد زاد الاقبال على هذه الكلية بصورة واضحة كنتيجة للدور الواضح الذى تقوم به ، والسمعة الطيبة التى تتمتع بها .

وتجمع الفتاة فى دراستها بكلية البنات الاسلامية بين علوم الدين والدنيا التى تدرس لها فى كل سنوات الدراسة ، وهى الدراسات الاسلامية الانسانية والتدبير المنزلى ، والفنون الطرزية ، الى جانب علوم التخصص فى الهندسة والطب والاجتماع وباقى فروع العلم ، وبذلك ستصبح خريجة هذه الكلية أما صالحة وعاملة منتجة فى نفس الوقت ، ونظرا لما لهذه التجربة الفريدة فى نوعها من أهمية بالنسبة للمرأة المعاصرة ، فقد كان لابد لنا من لقاء مع المهتمين بهذه التجربة .. لنلقى ضوءا على أبعادها وصولا الى دور الازهر البارز من حيث تطويره وانطلاقه الى أبعاد جادة خلاقة .

ويبدأ لقاؤنا بالدكتورة زينب راشد عميدة الكلية سألتها : على ضوء تجربتك بالنسبة للحياة الجامعية ،

ما أوجه الاختلاف بين الفتاة الجامعية الازهرية وزميلتها فى الكليات الاخرى ؟ ..

فأجابت : هو الاختلاف بين التعليم المنفصل والتعليم المختلط ، كل من النوعين له مزاياه الواضحة فالتعليم

المنفصل الذى أدى الى انشاء كليات خاصـة بتعليم البنات ، تجربة تبنتها أكثر الدول تمدينا وتقدما منذ اهتمامها بحركة التعليم ، ومنها الدول الاوربية العريقة مثل فرنسا وانجلترا ، ومن الدول الاحـدث الولايات المتحدة الامريكية .

وهناك أمثلة متعددة فى العالم الحضارى الذى قطع شوطا بعيدا فى ميادين التقدم العلمى والتربوى . وفى هذا أكبر دليل على ان تعليم البنت وتثقيفها فى معاهد أو كليات خاصة بها ، ليس دليلا على التخلف ، وقد أخذت مصر بهذا فى عصرها الحديث وسياستها التقدمية فأنشأت كلية مستقلة للبنات فى جامعة عين شمس .

ومن مزايا هذا النوع من التعليم أن الفتاة تستطيع فى حرية مطلقة أن توجه الاسئلة وتتاح لها الاستزادة من العلم دون حرج وبخاصة فى بعض المواد ، كالفقه ، والشريعة ، والطب . والى جانب ذلك لا يجوز أن نغفل ما للعامل الدينى من أثر فى تكوين الشخصية ولا سيما فى العصر الحاضر ، الذى نفتقد فيه القيم الدينيـــة والروحية والاخلاقية ، ثم ان جامعة الازهر جامعة دينية قبل كل شيء ، قامت منــذ أكثر من ألف عام لتربية الناشئين على أساس من العقيـدة الدينيـة والتمسك بالقيم الاخلاقية والروحية لا فى مصر وحدها ، بل فى العالم الاسلامى كله ، وهذه الرسالة ترجمت فى صورة مناهج فى العلوم الاسلامية تدرس لجميع طالبات كلية البنات ، مهما كان تخصص الطالبـة منهن ، فطالبـة الطب ، وطالبـة العلوم والطبيعـة ، وطالبـة اللغات الاجنبية ، مثل طالبة الدراسات العربية والاسلامية ، تحظى بنصيب فى التربية الاســلامية من شريعة وفقـه وتفسير وحديث ، وحفـظ الآيات الله الـكريمة وأقول بصراحة أن التحاق الفتـاة بجامعة الازهر يعتبر فكرة

رائدة بالنسبة للفتاة المسلمة بصفة خاصة ، وللأسرة المسلمة بصفة عامة ، وان تزويد الفتاة المسلمة بهذه الثقافة الاسلامية الواعية بطريقة علمية ، يعود بفوائد عظيمة على المجتمعات الاسلامية ، لانه اهتمام بنصف المجتمع الذى كان مهملا .

ويفكر القائمون على أمر هذه الكلية فى انشاء فرع جديد تتخصص فيه الفتاة بالاقتصاد المنزلى والريفى حتى يكون لخريجاتها فى هذا التخصص الاثر الفعال فى توجيه الاسر المسلمة فى قلب الريف المصرى .

* هل نجحت تجربة الفتاة فى الازهر؟ وما مدى نجاحها؟

ـ الاجابة عن هذا السؤال تقتضينا أن ننبه الى أن هذه التجربة لم تبدأ الا منذ أعوام قلائل ، ولست أحب أن أفيض فى مدى نجاحها فى غير تحفظ ، فبشائرها قد بدت واضحة على الرغم مما قام فى سبيل النهوض بهذه الكلية من عقبات لا أقول أنها خاصة بمثل هذه التجربة ، ولكنها عقبات تقوم فى سبيل كل تجربة جديدة .

وبحسبى أن أشير الى ما يتعلق فيها بالبيئة ووسائل الاعلام ، فمن المفروض أن طالبة الازهر تحترم الكلية التى تنتمى اليها ، وتتمشى فى سلوكها ومظهرها مع التقاليد الاسلامية العريقة ، ولكن بعض الطالبات لا يتبعن هذه التقاليد ، وهذا يتنافى تماما مع الحكمة التى من أجلها أنشئت هذه الكلية ، ومما لا شك فيه ان هذا يرجع الى قصور تفكيرهن والى عدم اسهام المنزل فى التعاون مع الكلية لتوجيههن التوجيه السليم وتحقيق الهدف الذى تسعى اليه الجامعة . وقد قامت الكلية بمحاولات عديدة لتصحيح هذا الوضع ، منها

انهـا اشترطت فى بادىء الامر زيا معينا ، ورغبـة فى التشجيع على محافظة طالبة الازهر على مظهرها اللائق، كانت وزارة الاوقاف تسهم بما يزيد على نصف تكاليف كل من الزيين الشتوى والصيفى للطالبة .

ولما ازداد عدد الطالبـات ، وتعذر وجود الـكميات اللازمة من الخامات لصنع هذا الزى وتوقفت الوزارة عن الاسهام فى تكاليف الزى ، تهاونت الطالبات أولا فى شرائه ، ثم امتنعن بعد ذلك عن ارتدائه .

ورأت الـكلية عنـدئذ أن تكتفى بفرض مواصـفات معينة لملابس الطالبات ، وأعلنت ذلك أكثر من مرة فى الـكلية ، واستعانت بموظفات رعاية الشـبـاب من المشرفات الاجتماعيات والمشرفات الرياضيات على ضبط العملية ، مما ترتبت عليه مشـاكل عديدة ، وفشلت هـذه المحـاولة ، فطلبت الـكلية الى مجلس الجامعة صراحة أن تضمن شروط القبول بالـكلية شرط ارتداء زى معين ، وبعد المناقشة رؤى أن هذا الموضوع لا يمكن ادراجه ضمن شروط القبول ، واكتفى بتوصية خاصة بارتداء طالبة جامعة الازهر ، زيا مناسبا .

ومما يعيد الطمأنينة الى القلوب أن السيـد الدكتور وزير الاوقاف وشئون الازهر قد أبدى اهتماما بالغـا بمسألة زى الطالبات ، وتم الاتفاق على أن تعود وزارة الاوقاف مرة أخرى الى تمويل مشروع الزى المناسب الخاص بطالبات الـكلية .

ولا يفوتنى أن أذكر أن من مظاهر نجاح تجربة الفتاة فى جامعة الازهر أن الـكلية تبينت عند اتصـال بعض أولياء أمور الطالبات بها فى المناسبات المختلفة أن بناتهن قد بدأت تظهر فى سلوكهن آثار التربية والتوجيه الدينى الاسلامى ، مما جعلهن ينصحن ذويهن وجيرانهن بارتداء

الملابس المناسبة وتأدية الصلاة فى مواعيدها ، وهـذه ارهاصات تبشر بالخير ، ومثل ذلك ما ينتهى الى علمى من الاقطار الاسلامية الاخرى التى تدرس بنـاتها فى الـكلية الاسلامية .

* ما الذى تتمنينه لنجاح التجربة على اطلاقها ؟..

ـ هناك أمور نرجو أن ننجح فى تحقيقها ليتم لنا ما ينبغى لهذه التجربة من نجاح :

١ ـ تعميم معاهد الفتيات الثـانوية والاعدادية بالاعداد الـكافية التى تصب فى الـكلية فيسهل عمـل الجامعة اذ تجد فيهن المثل الطيب الذى يستطيع تفهم الجو الاسلامى والتمشى مع تقاليده .

٢ ـ أن تتيح الـكلية للفتاة ممارسة حياتها الدينية بكل الوسائل الممكنة وذلك ببناء مسجد أو ايجاد مكان متسع لاداء فريضة الصلاة للنساء ، وان الـكلية لتأمل فى أن يكون للطالبات فى أقرب وقت مسجد خاص بهن ، فيه من الوعاظ ما يمكن الفتاة من أداء واجباتها الدينية على النحو الـكامل .

٣ ـ تفهم القائمين بالامر فى وسـائل الاعلام لطبيعة رسالة جامعة الازهر والمعاونة فى تحقيق أهدافها .

وأمنيتى أن يعيش الطالبات كلهن فى دار واحدة كما يعيش الطلاب فى المعاهد العسكرية ، فهى حياة قوامها النظام الـكامل القائم على احترام القوانين الروحيـة والمبادىء السامية والاخـلاق الـكريمة يغذيها الايمان الصادق بكل ذلك .

***

وسئل الدكتور احمد ابراهيم الشعراوى وكيل الكلية :

* هل يعتبر دخول الفتاة جامعة الازهر تجربة جديدة

ـ الازهر صورة للمدرسة الاسلامية الاصيلة ، ولان الله كتب له أن يعيش هذا العمر الطويل ، فقد أصبح النموذج الحى الباقى لهذه المدرسة منذ عهد البعثة النبوية الشريفة الى الآن .. والدين الاسلامى كرم المرأة وأعطاها حقوقا لم تحصل عليها المرأة عموما قبله . من ذلك اعطاؤها الحق فى تلقى العلم وتشجيعها عليه .

وقد كانت النساء فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يشاركن الرجال فى تلقى العلم عنه ، حتى لقد خصص لهن يوما لذلك . ومنذ عصر الرسول الى الآن والمرأة المسلمة تشارك فى تلقى المعرفة وتلقينها . والصحابيات اللاتى نقل المسلمون عنهن أصول الدين كثيرات ، ومن الامثلة البارزة على ذلك السيدة عائشة رضى الله عنها ، التى قال الرسول عليه صلاة الله وسلامه : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

وتسجل لنا صفحات التاريخ أن بعض السيدات وصلن فى العصور الاسلامية المختلفة الى نفس المستوى العلمى للرجال فى التخصصات الدقيقة ، كوصول بعضهن الى درجة الافتاء ، من هؤلاء ، فاطمة بنت الامام الكاشانى صاحب كتاب « البدائع فى الفقه الحنفى » . فقدكانت تشارك والدها فى اصدار الفتاوى فى المسائل التى يستفتى فيها وتوقع عنه ، وبعد أن تزوجت انضم زوجها الى اللجنة المكونة من والدها ومنها ، فأصبحت ثلاثية ، تصدر عنها الفتاوى ممهورة بتوقيع الثلاثة .

أما الازهر فقد ظلت أبوابه مفتوحة لطالبات العلم منذ انشائه ، ولم توصد الا بعد الحملة الفرنسية . واذن ، فدخول الفتاة المسلمة جامعة الازهر ليس بالتجربة

الفريبة على الازهر ، بل هو استئناف لتقليد اسلامى قديم ، درج الازهر عليه ، ودرج المجتمع الاسلامى عليه منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

* هل نجحت فتـــــاة الازهر الحديثة فى تحقيق الاهداف المرجوة منها ؟ ..

ــ انه لا ينتظر لاى عمل فى مجال التربية والتعليم أن يبدأ بنجاح مائة فى المائة ، وهذا شيء يعرفه المشتغلون فى ميادين التعليم المختلفة . ومع ذلك فمقدار النجاح الذى حققته الفتاة الحديثة فى جامعة الازهر مرض ، بل وفوق ما كان منتظراً ، ونحن على الطريق نعمــل بدون ملل ولا يأس للاصلاح ، وتجنب الاخطاء ، والاخذ بيد فتاة جامعة الازهر حتى تصل الى المستوى الرفيع الذى نرضاه لها .

والمتتبع لتطور نمو كلية البنات الاسلامية يدرك لاول وهلة التضاعف السريع لاعداد الطالبات بها ، فقد بدأت الكلية عند افتتاحها منذ حوالى عشر سنوات بحوالى ثلاثمائة طالبة ، وبلغ عدد طالباتها الآن أربعة آلاف منهن فتيات من احدى وعشرين جنسية .

وانا نرجو أن تسمح ظروف الكلية باستيعاب أكبر عدد من الفتيــات المســلمات اللاتى يرغبن فى الالتحاق بالكلية من جميع الاقطار الاسلامية وبخاصــة حينما تتحول كلية البنات الى جامعة للبنات ، وتحويل أقسامها الى كليات .

***

وسئلت الدكتورة أميرة على توفيق المدرسة بالكلية :

* ما الذى تضيفه فتاة الازهر الجديدة الى المجتمع ؟

ــ لا تقتصر رسالة جامعة الازهر على العلم وحده ،

انما رسالتها الاولى هى الدين ؛ فهى جامعة تعد الفتاة العالمة المؤمنة ، الفتاة التى تواجه مشكلات العصر الحاضر مسلحة بالعلم بجانب العقيدة والايمان ، الفتاة التى تعيد الى المجتمع الاسلامى ما افتقده فى الآونة الاخيرة من الاسس والمبادىء الاخلاقية الاسلامية الصحيحة .

وانا نعقد آمالا كبارا على أن تكون فتاة الازهر من العوامل الفعالة فى نشر مبادىء الاخلاق الكريمة ، وأسس الدين الحنيف فى تعاملها مع أفراد المجتمع ، طبيبة ، ومهندسة ، وكيميائية ، ومربية ، وزوجة واما قبل كل شىء .

*** باستثناء دراسة المواد الاسلامية فى كلية البنات الاسلامية ، هل تختلف الدراسة فيها عن غيرها من الجامعات ؟ ..**

ـ الواقع أن الدراسة العلمية فى كلية البنات تدرس فيها التخصصات المختلفة تماما كما تدرس فى غيرها من الجامعات فى جمهورية مصر العربية ، عدا تدريس المواد الاسلامية لجميع التخصصات لا للمتخصصات فى الدراسات الاسلامية فقط ، غير أن جامعة الازهر تتميز ببعض الامور ، فطالبات قسم التجارة مثلا هن الوحيدات بين طالبات التجارة فى الجامعات المصرية اللاتى يدرسن الآلة الكاتبة والاختزال ويتدربن عليها ضمن مواد تخصصهن وقسم اللغات والترجمة الفورية فضلا عن انه لا نظير له فى الجامعات الاخرى ، فانه أنشىء به معملان للصوتيات للتدريب على اللغات الاجنبية واللغة العربية .

.. هذا من حيث المناهج الدراسية ، أما من حيث رسالة فتاة الازهر واتجاه الدراسة فيها ، فانى أرى أن فتاة

جامعة الازهر هي التي يجب أن تحمل امانة احياء الحضارة العربية والثقافة الاسلامية ، والتعريف بها ونشرها ، باعتبارها الحضارة التى ظلت نبراسا يهتدى به العالم طوال العصور الوسطى .. أو العصور المظلمة كما يسميها بعض المؤرخين ، فواجب فتاة الازهر التى تتخصص فى الطب مثلا ، أن تبدأ بدراسة طب العرب الذى ظل يدرس فى بعض جامعات أوربا حتى أواخر القرن السابع عشر ، وواجب فتاة الازهر التى تتخصص فى العلوم الاسلامية أن توضح كيف ان أحكام الشريعة الاسلامية هى الاسس التى أخذت منهـا القوانين الوضعية ، وان التساهل فى أحكام الشريعة الاسلامية عن طريق القوانين الوضعية يعتبر من أهم الاسباب فيما انتشر فى المجتمع العربى الاسلامى من عيوب .

وواجب فتاة الازهر التى تتخصص فى العلوم الادبية احياء التراث الادبى بدراسته وتحقيق مخطوطاته ونشره وشرحه ونقده ودراسة النابهين من أدبائنا وعلمائنا وانتاجهم باعتبارهم جزءا من ثروتنا الادبية والقومية ، وهكذا . وهدف الدراسة فى الازهر يجب أن يؤخذ من احيـاء الحضارة والثقافة العربية الاسلامية منطلقا لدراسة ما تطورت اليه العلوم المختلفة وما توصل اليه العلم الحديث ، ثم الاسهام فى هذا التطور بما يستطاع .

* ما الاقتراحات التى ترين أنها تساعد على تحقيق ما يرجى لفتاة الجامعة الازهرية ؟ ..

ــ هناك اقتراحات كثيرة أعتقد أن أهمها :

١ ــ استكمال مبانى الجامعة فى أسرع وقت ممكن حتى تستطيع الكلية أن تؤدى واجبها على الوجه المرضى .

٢ ـ انشاء مدينة جامعية تستوعب أكبر عدد من فتيات الجامعة ، يمارسن الحياة الاسلامية ويتعلمن السلوك الاسلامى الصحيح تحت اشراف عناصر تربوية حكيمة ذات مستوى علمى غال ، تصلح لان تكون قدوة للطالبات فى هذه السن ، وليس هذا بغريب ، ففى أغلب الجامعات المشهورة فى أوربا يتولى الاشراف على المدن الجامعية أساتذة من الجامعة .

٣ ـ العمل على اعداد الملاعب الخاصة التى تستطيع طالبة جامعة الازهر أن تمارس فيها أنواع الرياضة المختلفة ، لما فى الرياضة من أثر فى تكوين الروح الرياضية والخلق الرياضى الحق .

٤ ـ انشاء مركز لانواع النشاط المختلفة يخصص له وقت معين فى جدول الدراسة بالكلية حتى يمتص نشاط الطالبات ، وتتفتح مواهبهن ، وتبرز القوى الابداعية فيهن .

٥ ـ اتخاذ الخطوات اللازمة والمقنعة لظهور طالبة الازهر بالمظهر الذى يتناسب مع ما لجامعة الازهر من مركز دينى .

٦ ـ انشاء مدينة لطالبات البعوث الاسلامية على غرار مدينة الطلاب للبعوث الاسلامية حتى تتمكن البنات المسلمات فى أنحاء الوطن العربى من الالتحاق بالجامعة ، ولا تعوقهن الصعاب والمتاعب التى تصادف الفتاة الغريبة فى مدينة كبيرة مثل القاهرة ، وان الاهتمام بالفتاة المسلمة فى البلاد الاسلامية اهتمام بهذه الشعوب نفسها .

٧ ـ أن تأخذ كلية البنات وضعها الطبيعى فهى وان سميت كلية فانها فى الواقع جامعة بمعنى الكلمة ، ووضع الامور فى نصابها يساعد على تحقيق الاهداف .

شقيقات الأزهـــر

من أقدم وأشـــهر الجامعات الاســـلامية فى العالم ، جامعتا القيروان والزيتونة فى تونس وجامع القرويين فى المغرب ، وواحدة فى الهند هى جامعة عليكره .. وكلها شقيقات للأزهر ، وان اختلفت الاعمار ! ..

لم يقصر الاسلام رسالة المسجد على الصلاة ، بل جعله مقام ذكر ، وموطن تلاوة ، ومعهد علم وثقافة... وأول مسجد فى العالم بناه النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، يوم هاجر الى المدينة وكان مخصصا للفريضة ، ومدرسة يتعلم فيها المسلمون أمور دينهم ودنيـــاهم ، واقتدى الخلف بالسلف : فبعد الصلاة فى المسجد تعقد الحلقات لدراسة علوم الدين والدنيـــا ، وتدرس اللغة والنحو والصرف والادب وسائر العلوم .

وفضل علوم الاسلام والعرب على العالم لا ينكر .. وحلقات الدرس فى المساجد ــ كما يقول الدكتور بدوى عبد اللطيف مدير جامعة الازهر ــ هى النظام الجامعى الحق ، لانه يجمع بين الاســـــــتاذ وطلابه فى جو من البساطة ... وهكذا فان الجامع الاســـلامى ، جامعة بأحدث ما تحمله الـكلمة من معنى ! ..

أقدم جامعة

دخل العرب تونس سنة ٦٧٠ ميـــلادية ، وأنشـــأوا

(*) للاستاذ محمد حسن

مدينة القيروان ، وفى السـنة التالية ـ أى بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام بنحو ٣٨ سنة ـ بنى القائد العربى عقبة بن نافع مسجده الجامع هناك ليؤمه طلاب العلم من المشرق والمغرب . وقد أنشىء بالقيروان معهد لدراسة الطب والرياضة والصيدلة ، وأطلق على المعهد اسم « بيت الحكمة » ، وقام أساتذته بنشر العلوم فى حوض البحر الابيض واوربا ، وأصبحت مدينة القيروان هى عاصمة المسلمين فى افريقيا .

وفى العصر العثمانى لم يكن يسـمح لغير المسـلمين بدخول القيروان : مدينـة الاربعمائة مسـجد بمآذنها وقبابها ، غير أن المسجد الجامع هدم وأعيد بناؤه خمس مرات ـ حيث تبـادل البربر والرومان الاغارة على تونس ـ والبناء الحالى يرجع الى عهد الاغالبة فى القرن الثالث الهجرى .

وفى سنة ٧٣٢ ميلادية ، اثر فتوحات عبد الله بن الحبحاب وعبد الرحمن الغافقى ، بنى الحبحاب جامع الزيتونة من الرخام المجلوب من أنقاض مدينة قرطاجنة المشهورة ، غير ان تونس كانت فى ذلك الوقت لا تزال عرضة للغزو الخارجى بعد أن فقدت أسطولها الضخم الذى كان يسيطر على شواطىء غربى البحر الابيض ، لذلك كانت تحيط بالجامع اربع قلاع هى فى الواقع أحد الحصون الالف المنيعة المنتشرة على سـاحل البحر الابيض من طنجة الى الاسكندرية .

ولقد ظل جامع الزيتونة حصنـا : على منبره تلقى خطب الجهاد الوطنى من عهد عبد الله بن الحبحاب الى عهد الحركة الوطنية ، ومنه تخرج المظاهرات الوطنية ضد قوات الاحتلال ... وحتى بعد الاستقلال ، كان الرئيس بورقيبة يلقى من منبره خطبة فى جهاد النفس

والمحافظة على مكاسب الاستقلال .

يقول الدكتور صلاح العقاد فى كتابه « المغرب العربى : دراسات تاريخه الحديث ومشاكله المعاصرة » : ان مصادر الحركة القومية التونسية ترد فى الغالب الى أصول اسلامية بحتة ، وتتمثل فى المراكز الاسلامية العريقة فى تونس ، وعلى رأسها جامع الزيتونة ... واحد أبناء هذه المدرسة الدينية ، وهو الشيخ محمد السنوسى ، كان أول من قدم عريضة مطالبا بالدستور ، كما تخرج فى هذه الجامعة الشيخ المكى بن عزوز ، الذى كان له الفضل فى تخريج الجيل الاول من المناضلين التونسيين ، وعلى رأسهم الشيخ عبد العزيز الثعالبى ، وكان ابن عزوز يسير على نهج سلفه الوزير خير الدين ، الذى كان له الفضل فى نشأة طبقة المجددين حين أسس مدرسة الصادقية سنة ١٨٧٥ لتدريس العلوم الحديثة فى اطار عربى اسلامى . وفى هذه المدرسة تخرج رواد الحركة الوطنية من أمثال بشير صفر ، وعلى باش حمبه ، ولقد كان مثقفو الزيتونة هم الذين أنشأوا حزب التقدم ، الذى تطور بعد ذلك الى حزب تونس الفتاة ـ على غرار حزب تركيا الفتاة ـ ثم حزب الدستور ، فالحزب الدستورى الجديد ، الذى يرأسه الحبيب بورقيبة ، رئيس الجمهورية الحالى .

وحين زار الرحالة المصرى محمد ثابت جامع الزيتونة فى الاربعينات ، قال : « رأيت الطلبة منكبين على المطالعة والدرس فى أركان المسجد ، فهو منهل للعلوم الاسلامية على طريقة الازهر عندنا ، ويتلقى فيه العلم زهاء ٣٠٠٠ طالب ، وللغرباء فروع ـ أروقة ـ يأوون اليها ، ويخصص لكل طالب أو اثنين غرفة ، ويزيد عدد تلك الفروع على العشرين . وتلحق بالمسجد مكتبة قيمة

حوت اثنى عشر الف مجلد ... وللتونسيين اهتمام بمعاونة المنشآت العلمية ، يقفون عليها كثيرا من أموالهم فى سخاء كبير » .

ولفهم التطور العلمى لجامعة الزيتونة ، لابد من المامة سريعة بالمذاهب الدينية فى تونس : جلب جند الشام المذهب الاوزاعى الى تونس والمغرب والاندلس ، وبعد وفاة الاوزاعى صارت تونس على المذهب المالكى الذى انتشر من القيروان الى بقية المغرب والصحراء والاندلس وجزر البحر الابيض . وفى فترة تالية ساد المذهب الحنفى ، وكان أسد بن الفرات ــ فاتح صقلية ــ يدرس هذا المذهب بجامع القيروان ، ولكن الشعب كان مالكيا ، وكان سحنون يدرس المذهب المالكى أيضا فى جامع القيروان . أما البربر الضاربون فى الجبال والصحارى والجزر فمعظمهم على مذهب عبد الله بن الاباض . ومع ان المذاهب ظهرت فى تونس العاصمة مبكرة ، فان التعليم ظهر فى القيروان مسبقا ، ولم ينتقل الى جامع الزيتونة الا فى غهد دولة الموحدين . وكان التونسيون ، والصقليون المهاجرون وأشهرهم آل صقلى فى الطب ــ والاندلسيون ــ وأشهرهم ابن عصفور وابن القصار فى النحو ، والقلعاوى والابلى والواداياشى فى العلوم ــ هم الذين يقومون بالتدريس ــ وبعد سقوط اشبيلية جاء ابن خلدون ، وابن سعيد ، وابن أبى الحسن ، والمالقى ، وابن الابار ، وغيرهم .

واستعان الموحدون فى التعليم بجامع الزيتونة أيضا بعض الليبيين مثل أبى البركات عبد الحميد بن أبى الدنيا ، وكانت العلوم الرياضية والطبيعة والفلك والكيمياء والطب والتاريخ والجغرافيا تدرس فى جامعة الزيتونة بالاضافة الى علوم اللغة والدين . وقد ذكر

العالم الشيخ محمد مخلوف فى كتابه « شـجرة النور الزكية فى طبقات المالـكية » طبقات الاسـاتذة والائمة والعلماء الذين تخرجوا فى الزيتونة ثم درسوا بها ، ومن بين هؤلاء ابن خلدون ، وابن عرفة ، وابن راشـد القفصى وماغوش وغيرهم .

وتحوى جامعة الزيتونة مكتبة ضخمة ، أسسها أبو زكريا ، مؤسس الدولة الحفصية ، وأضاف اليها من جاء بعده من الخلفاء الموحدين أو من الامراء المراديين والحسينيين ، وكانت المكتبة عند تأسيسها تحوى نحو ٤٠ الف مخطوط بقى منها اليوم ٢٥ الفا ، منها الفريد والنادر والنفيس ، ومن أقدم المخطوطات تفسير ابن سلام القيروانى ، وهو مكتوب على رق الغزال بالخط الـكوفى الجميل ، ويعتبر من أقدم التفاسير — ان لم يكن أقدمها . وفى المـكتبة كتب فى السياسـة والحرب والطب والتاريخ واللغة والفقه والحديث ، ولها نظـام للاعارة المحلية والخارجية .

وطراز جامعة الزيتونة يكاد يكون شـاملا للانمـاط المعمارية الاسـلامية : فيه الفن المغربى من أفريقى واندلسى ومراكشى ، وفيه الفن الفـاطمى والعربى والتركى ، والجامع الاول الذى بناه الحبحاب يجمع بين الفنون البيزنطية والايرانية والعربية : القلعة بيزنطية ، والصومعة المستديرة ايرانية ، والنمط العام عربى يشبه جامع الـكوفة ... ومنبر الجامع يعتبر تحفة من الفن الاسلامى ، صـنع سـنة ٢٤٩ هجرية على نمط منبر القيروان ، وهو فى مقصورة الى يمين المحراب ، يخرج منها على سكة حين استـعماله ثم يعاد بعد ذلك الى مكانه .

وحول جامعة الزيتونة ، أسواق بديعة تتعلق بمهام

الجامعة : سوق الكتبيين ـ باعة الكتب ـ وسوق السفارين ـ المجلدين ـ وسوق الشهود العدول ـ المأذونين ـ الذين يستحضرون الى داخل الجامع لكتابة العقود التى تبرم بعد أداء الفرائض للبيع والشراء والايجار والزواج ، وسوق الفضة التى تصنع فيها المباخر والمجامر و « المرشات » والمراوح التى يتقى بها المجتمعون داخل المسجد حر الصيف ... هذا فضلا عن سوق العطارين، وسوق الطيبيين ـ وهم باعة العطور والبخور ... تماما مثل أسواق العطارين والصاغة والغورية وغيرها ، التى تحيط بالجامع الازهر فى القاهرة .

مهاجرو القيروان بنوا جامعة القرويين

فى القرن الثامن الميلادى هاجر أكثر من ثلاثة آلاف من أهالى القيروان ، هربا من قظائع الرومان والبربر فى بلادهم ، وبالقرب من مدينة فاس استوطنوا « عدوة القيروانيين » التى بسطت فيما بعد الى « عدوة القرويين » . من هؤلاء المهاجرين كانت السيدة فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهرى القيروانى ، وحين توفى والدها ترك لها ثروة طائلة ، انفقتها كلها فى بناء جامع القرويين سنة ٨٠٢ ، على نمط جامع القيروان فى بلادها، وتحول الجامع بعد ذلك الى جامعة للدراسات الاسلامية، وقد ظلت فاطمة الفهرية صائمة ، محتسبة الى الله ، حتى تم بناء المسجد ، فصلت فيه شكرا ... وفى نفس الوقت قامت أختها مريم بعمل مماثل فى جامع الاندلس.

ولم يبق جامع القرويين على حاله ، فقد زاد فيه احمد بن أبى بكر الزناتى عامل عبد الرحمن الناصر ، فبنى الصومعة الموجودة الان وازال القديمة سنة ٣٤٥

هجرية ، ومن بعده زاد المنصور بن أبي عامر الحاجب فيه ، ثم وسـعه على بن يوسـف اللمتونى من دولة المرابطين . وفعل مثله ملوك دولة الموحدين وبنو مرين ، فقد أنشأ السلطان أبو عنان فارس المرينى حول القرويين عدة مدارس ، وأسس مكتبة ، وقام يوسف بن تاشفين بتأسيس مدرسة الصابرين ، وبنى السلطان أبو سعيد عثمان بن عبد الخالق مدرسة العطارين ، وشيد أبو عنان مدرسة البوعنانية . وكل هذه المدارس تابعـة لجامعة القرويين .

وفى رحاب هذه الجامعة بدأت الدراسات الاولية فى اللغة العربية والدين والشريعة ، وذاع صيتها ، فتوافد عليها العلماء من كل قطر ، وفى فاس اليوم لا تزال عائلات كثيرة تحمل أسماء تنتسب الى البلاد التى جاءت منها مثل عائلات التونسى والجـزائرى والمصرى والعـراقى واليمنى ... وكان من أثر نجاح الجامعة أن أصبحت منارة العلم فى العالم الاسلامى ، واشتهرت مدينة فاس حتى أصبح المثل يقول : « يكاد العلم ينفجر من حيطان فاس » .

ولقد سطرت هذه الجامعة العريقة صفحات مشرقة فى تاريخ القرويين ، فمنها انبعثت الانطلاقة الاولى سنة ١٩٣٠ لمقاومة « الظهير البربرى » الذى أراد به المستعمر فصل البربر عن مسلمى المغرب . ومنها خرجت الحركات الوطنية ضد الاستعمار الفرنسى ، وكان خريجوها هم رواد الوطنية فى المغرب . ولقد اهتم علماء القرويين ، بالاضافة الى ذلك ، بكل العلوم والفنون : كانوا يخصصون مجالسهم داخل المسجد للعلوم الاسلامية وعلوم اللغة ، ويخصصون المدارس المحيطة بالجامع للرياضيات والطب والتاريخ والموسيقى ... وبعض العلوم كانوا يدرسونها

فى بيوتهم كعادة بعض جامعات أوروبا الان مثل جامعة « ليدن » فى هولندا .

وقد بقيت هذه الجامعة نشطة طيلة تاريخها ، وظلت منارة العلم التى تحدت الاحداث السياسية التى مرت بها ، خصوصا ضغط الاستعمار الفرنسي لطمس معالم العروبة والدين فى المغرب ، وبقيت كعبة طالبى العلم فى الشرق والغرب ، وجاءها (سلفستر) الثانى طالبا العلم ، ومنها نقل الاعداد العربية الى أوروبا ، ولا تزال تستخدم للان .

وفى عام ١٩٣١ عين الملك محمد الخامس مجلسا أعلى للاشراف على جامعة القرويين ، فقام بتطوير برامجها لتلائم روح العصر الحديث ، فقسمت الدراسة فيها الى ثلاثة أقسام يمنح الطالب فى نهايتها شهادة العالمية ، وفى عام ١٩٥٧ أدخلت العلوم الحديثة كالتاريخ والجغرافيا والرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلسفة الاسلامية واللغات الاجنبية . ويسمى نظامها الان « التعليم الاصلى » . ولعل أهم ما فى هذا التغيير هو تعريب الدراسة كلها ، مما جعل جامعة القرويين تحتفظ بمكانتها القديمة كمصدر لاشعاع الروح الاسلامية العربية .

وللقرويين دور فعال فى تعليم المرأة ... حيث كانت فى البداية تتلقى علوم القرويين وهى فى دارها وتحضر بعض المحافل التى يعقد فيها الفقهاء مجالسهم ، واستمر اتصال القرويين بالوسط النسوى حتى عصر النهضة الحديثة ، حين نادى الملك محمد الخامس من فوق منبر القرويين بوجوب تعليم الفتاة كالفتى تماما ، فقال : « لا رقى لشعب نصفه أشل » ، ففتحت الجامعة أبوابها للنساء ، وفى عام ١٩٤٧ فتحت الجامعة

معهدا للفتيات .

وكانت الجامعة فى بداية عهـدها تعتمـد على كتب الفقهاء والعلماء الخاصة : كان الطلبة ينسخون منهـا دروسهم ، ثم أنشأ السلطان أبو عنان فارس المرينى مكتبة القرويين وأودعها كثيرا من الـكتب تحتوى على « علوم الابدان والاديان واللسان والاذهان » ... ولقد نمت هـذه المـكتبة حتى أصـبحت اليوم من أضـخم المـكتبات ، فهى تضم أكثر من ١٠ آلاف مخطوط فى جميع انواع المعرفة ، ففيها كتب فى الرياضة ، والطب ، والفلك ، والهندسة ، وعلم الجبر ، والحساب ، وعلوم الفلسفة ، واللغة ، ومن هـــذه المخطوطات ما كتبه أصحابها بخط يدهم كـكتاب « الاوقات » لمحمد بن كومرت الذى اختصر كتاب الموطأ ، وكتاب «الطهـارة» وهو مكتوب على رق الغزال ، وكتاب « العبر » لابن خلدون مذيل بتوقيعه ، وكتاب « سير ابن اسحاق » فى القرن الخامس الهجرى ، وهى نسخة فريدة فى العالم ، وكتاب « الرجم والحدود » لعلى يوسف بن تاشفين ، ومنظومة «الطب» لابى بكر بن الطفيل ، وتضم ٧٧٠٠ بيت من الشعر ... هذا فضلا عن كتاب «سير ابراهيم ابن الفزارى» على رق الغزال، وهو من أقدم مخطوطات المـكتبة ، ومخطوطة مرسومة بالبيـان والتحصيل فى الفقه المالـكى للفقيه ابن رشد ، قيل انه استخدم فى كتابته ٣٦٠ غزالا ! ..

وبالمغرب جامعة دينية أخرى هى «جامعة بن يوسف» بمدينة مراكش، تضم عدة آلاف من الطلبة والطالبات ، وقد طورت مناهجها بعد الاستقلال ، لتقبل المرأة ، فضلا عن تعليم اللغات الاجنبية وباقى العلوم الحديثة.

من جامعة عليجره تخرج علماء الشرق الاقصى

دخل الاسلام الهند فى القرن الثامن الميلادى على يد الفاتح العربى محمد بن القاسم ، فى عهد الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك ، وفى القرن الثالث عشر قامت دولة المماليك على يد السلطان قطب الدين ايبك ، وفى مستهل القرن السادس عشر قامت الدولة المغولية على يد ظهير الدين بابر ، وفى بداية القرن الثـــامن عشر بدأت الامبراطورية المغولية تضمحل وتتفكك ، فبدأ الاستعمار البريطانى يدخل الهند على يد « شركة الهند الشرقية » وفى منتصف القرن التاسع عشر ثار الهنود على الشركة ، فتم قمع الثورة ، وحكم الاســتعمار البريطانى بشكل سافر ، وقاطع المسلمون المستعمر تماما حتى أصـــابهم التلف والجهل ...

وفى هذه الظروف المؤلمة برز من بين صفوف المسلمين شيخ تجرع بنفسه مرارة الحرمان والخذلان بعــد أن دالت دولة المسلمين فى الهند ، هو السيد أحمد خان ، وأدرك الشيخ أن المقاطعة والسلبية لن تؤدى بالمسلمين الا الى مزيد من التلف ، فنادى بتعليم المسلمين حتى يمكنهم أن يلحقوا بمجدهم القـديم . وفى عام ١٨٧٧ أنشأ كلية اسلامية فى عليجره تدرس العلوم الاســلامية بالاضافة الى العلوم الحديثة.. وتوفى السيد أحمد خان عام ١٨٩٩ ، ولـكنه خلف رجالا مثـل هالى ، وغفر الملك ، وشبلى ومحسن الملك حملوا رســالته . بعض هؤلاء الرجال ، مع آخرين ، أسسوا «المؤتمر الاسلامى» فى مطلع القرن العشرين . وفى عام ١٩١٣ أصبح القائد الاعظم محمد على جناح عضوا فى المؤتمر الاسلامى ، وفى عام ١٩٣٠ عقــد المؤتمر الاسلامى فى مدينـــة الله آباد

برئاسة الشاعر محمد اقبال ، وفى هـذا المؤتمر نادى اقبال بدولة للمسلمين ، وقام القائد الاعظم محمد على جناح بالجهاد فى سبيل الفكرة حتى ولدت جمهورية باكستان الاسلامية ..

غير أن جامعة عليجره الاسلامية بقيت فى مقاطعة أوتار براديش بالهند ، ومضت تنتعش حتى ذاع صيتها فى جميع أنحاء العالم ، بفضل اثنين من أبرز أساتذتها ، هما الاستاذ البريطانى سير والتر رايلى، والعلامة شبلى النعمانى ، المؤرخ الهندى ومؤسس ندوة العلماء بمدينة لكناءو ، والذى كان له الفضل فى رفعها الى درجة جامعة ، بعد نداء للاكتتاب تبناه زعيم طائفة الاسماعيلية الراحل اغا خان ، وتم جمع أكثر من ٣٠ مليون روبية.

وفى سنة ١٩٢٠ تحولت الكلية الصغيرة الى ما هو معروف الآن باسم « الجامعة الاسلامية بعليجره » ، أقدم الجامعات التى أسستها الامة الاسلامية فى الهند، وأكثرها صيتا وشهرة ، فقد أسهمت هذه الجامعة فى تثقيف الشباب المسلم وصوغه فى قالب جديد ، ومعظم زعماء المسلمين فى ماضى الهند القريب ، وأغلب العلماء الذين برزوا فى مختلف العلوم العصرية ونالوا شهرة دولية إما من خريجى هذه الجامعة وإما ممن كانت لهم علاقة بها .

وقد أقيمت الجامعة على نمط جامعتى أكسفورد وكمبردج البريطانيتين، مع تعديل بسيط لتلائم الظروف والاوضاع الهندية . وفى عام ١٩٢٥ احتفلت الجامعة بمرور نصف قرن على انشائها ، ودعى المسلمون الى اكتتاب جديد لاقامة كلية للهندسة ، وأقسام للطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان والنبات ، بالاضافة الى تعزيز قسم الجغرافيا . وفى عام ١٩٤٤ أعيد تنظيم اقسام

الجامعة بحيث تمارس مختلف الكليات نشاطها برئاسات مستقلة ، ولتشجيع العلاج أنشأت الجامعة ــ بمعونة حكومة الولاية ــ معهدا لتدريس الطب اليونانى والجراحة . وكانت الجامعة تحاول اقامة كلية للطب الحديث ، فتحققت هذه الامنية فى عام ١٩٦٢، وأصبح قسم الطب فى الجامعة متكاملا بمستشفياته وصيدلياته ومبانيه .

ولم تكن بالجامعة كلية خاصة للبنات ، فتحولت مدرسة البنات الملحقة بالجامعة الى كلية تؤهل لدرجة الليسانس ، أما الماجستير والدكتوراه فتدرسها البنات فى الجامعة مع زملائهن من الطلاب ، وللطالبات مدينة جامعية منفصلة تسكنها الطالبات مراعاة لاصول الاسلام وتعاليمه ولوائح الجامعة ، مع التزام الحجاب المشروع وعدم الاختلاط بالطلبة الا فى قاعات المحاضرات ، وفى المناسبات الرسمية .

وكانت الجامعة ، منذ انشائها ، جامعة داخلية ، لان تربية الشباب على خطوط معينة وأصول خاصة وأغراض محددة ، لن تتحقق الا فى جو الجامعة ، لذلك أقيمت مدينة جامعية رحبة للطلبة .

والجامعة تضم اليوم سبع كليات ، هى الكلية الدينية وتتألف من قسم للعلوم الدينية على مذهب أهل السنة وقسم للعلوم الدينية على مذهب الشيعة... وكليات : الآداب ، والعلوم ، والهندسة ، والطب ، والحقوق ، والتجارة .

وللجامعة مكتب نشط للخريجين ، يسهل لهم الالتحاق بالوظائف ويرعاهم ويخلق منهم أسرة مترابطة حتى بعد مغادرتهم للجامعة ...

فهرس

كتاب الهلال القادم :

أشعار وشعراء من المهجـــر

بقلم
محمد عبد الغنى حسن

يصدر ٥ فبراير ١٩٧٣ ــ الثمن ١٠ قروش

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

هذا الكتاب ، هو القصة الكاملة لاعظم جامعة اسلامية فى العالم ، نصدره بمناسبة مرور الف سنة على اقامة أول صلاة جامعة فى رحابها المبارك ..

ويختلف هذا الكتاب فى طبيعته عن سائر « كتب الهلال » فى أنه ليس بقلم كاتب واحد ، وانما أسهمت فيه مجموعة من ألمع الكتاب فى المجالات المختلفة التى يلم بها الازهر ، لان الازهر لم يكن على طول تاريخه مجرد مسجد للصلاة ، ولا مجرد معهد للعلم ، وانما كان دائما مصدر الاشعاع للحركات الفكرية التى أثرت أبلغ تأثير فى حركات الادب والشعر والسياسة والاجتماع ، لا فى مصر وحدها ، بل فى الامة الاسلامية من مشرقها الى مغربها ، ومن شمالها الى جنوبها .

ذلك ان الازهر ليس ملكا لمصر وحدها ، بل هو ملك لله جل جلاله ، ورجاله سدنة لكتاب الله ، بكل ما فى هذا الكتاب من بيان وحكمة وتاريخ وتشريع وتنوير .

ولاتزال أروقته مفتوحة للقادمين عليه من كل فج عميق ، بلا تفرقة بينهم لجنس أو لون ، لان الاسلام ينكر هذه التفرقة ، ولا يجعل لمسلم فضلا على مسلم ، ولا لعربى فضلا على أعجمى ، ولا لابيض فضلا على احمر أو أسود ، الا بالتقوى .

ولقد لبست الجامعة الازهرية لباس الدين قرونا طويلة ، حتى وثبت وثبة العلم فى هذا العصر ، فلم يجمد الازهر ، ولم يغلق أبوابهـــا دونه ، ولكنه تطور وفتح أبوابه للعلم الحديث على جميع مصاريعها دون أن يخلع لباس الدين ، لانه لا تناقض بين العلم والدين ، اذ هما قرينان ، وما العلم الصحيح الا سبيل للايمان .

وهذه هى رسالة الازهر فى عهد العلم والايمان .

١٠ قــروش

